

# بيام مشترك ضد الزمن

عرف القراء العرب «صلاح عيسى» كاتباً وباحثاً في التاريخ السياسي والاجتماعي، وصحفياً مشاغباً تثير كتاباته الزواجر، لكن قليلين منهم هم الذين عرفوه قصاصاً وروائياً، استلهم تجربة جيل الستينيات العربي، في روايته «مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا»، وفي هذه المجموعة من القصص والروايات القصيرة، التي كتبت بين عامي ١٩٦٤ و ١٩٧١، على مشارف - وفي أعقاب - هزيمة يونيو ١٩٦٧، فجمعت بين «النبوة» و «المراثية»، وجاءت صرخة ضد القهر الذي يطارد كل أبطالها : في الشوارع والأزقة، وفي الزنازين وغرف النوم وفي الصحف والإذاعات، فهم متغيون في جلودهم، تحيط بهم - من داخلهم ومن حولهم - مشانق متينة الصنع.

بين أبطال قصص هذه المجموعة ثوار خائنون، وبشر محاصرون، وجنرالات بلا جنود.

وقد يسأل القارئ : أي جنرالات؟! وأي زمن!؟

وهو سؤال نتركه له، قلعه يتعرف على هؤلاء الجنرالات، ويوقع

- مع المؤلف - على هذا البيان المشترك ضد الزمن.

دار الفکر  
الکتاب



# پیام مشرک ضد الزم

مسئله وحی

قصص و روایات قصیده



قصص وروايات قصيرة

صلاح عيسى

بيان مشترك ضد الزمير



الكتاب : بيان مشترك ضد الزمن  
(قصص وروايات قصيرة)

الكتاب: صلاح عيسى  
الطبعة : الأولى ١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : سهند للنشر  
المدبر المولى : رابعة عبد العظيم

١٥ شارع صلاح عيسى، المحلة الجديدة، القاهرة  
تليفون : ١١٣٥٥٧١٧٨

التصنيف : عماد حليم

الاخراج الداخلي : إنسان عيسى

الصف : سهند للنشر

.. إلى أول نشوة.. وآخر دمعة

«صلاح»

١٩٨٧



هذا زَمَنُ الحق الضائع  
لا يَعْرِفُ فيه مقتولٌ من قاتله، ومتى قتله  
ورؤوس الناس على جثث الحيوانات  
ورؤوسُ الحيوانات على جثث الناس  
فتحس رأسك ا  
فتحس رأسك ا

«صلاح عهد الصبور»

١٩٦١

كنت أقول ضاحكاً أن أجهزة الأمن السياسي، هي المشولة عن تدهور مستوى الشعر والقص، وأشكال أخرى من الإبداع الأدبي والفني، ففي السجون - التي كانت تُساق إليها الناس على امتداد كل العهود - تتوقد عواطف، وتتثال ذكريات، سرعان ما تدفع كثيرين لكتابة رسائل شوق لتلك الدنيا التي لا تدرك بهجتها إلا حين تصدك عنها أبواب الزنازين، وبنادق الحراس وأسوار السجون.. وعادة ما تقود هذه الرسائل أصحابها لنظم الشعر، وقص القصص، وأحياناً تحت التماثيل، وتلوين التصاور!

ولأن جيلنا من المشتغلين بالسياسة و الكتاب والأدباء والفنانين، كان يحمل أحلامه، كما يحمل صلواته، فقد التقينا في الزنازين كثيراً، وتعارف أكثرنا بين جدرانها، خلف هذه الجدران، نشأت صداقات، ونبتت مودات، فليس كالسجن مكان يتكشف فيه الناس على حقيقتهم، وفيها سمعت من الشعر أعذبه، وقرأت من القصص أجملها، واكتشفت ألواناً من الغناء الشجي. وبين جدرانها غابيت من ذلك الفن الذي شئتُ بسببه على أهل البص والحبس، فأضفت إلى قائمة الاتهامات التاريخية الموجهة إلى البصاعين العاملين في أجهزة الأمن السياسي تهمة: إفساد مستوى الإبداع!

فلولا أنهم ساقوا الناس إلى ظلام الزنازين أفواجاً، ما توقدت عواطف، تُوهم أصحابها أن ما يكتبونه من كلام ركيك، هو فن.

وذات مرة، أقمت احتفالية شتعتنا فيها على هذا الشعر، وذلك القص، فألقى صديقي المهندس «تيمور الملواني» - أحد القادة البارزين للحركة الطلابية في الستينيات والسبعينيات - قصيدته الشهيرة، التي يقول في مطلعها «أحببتك... تلك مصيبة.. في حق البشرية» وألفت بالاشتراك مع «عبد الرحمن الأبنودي» و «صبري حافظ» غزلية يقول مطلعها:

«حبيبتي

عيناك بُلغتان

عيناك

كخرمتي منخار ليلنا العميق».

ومن أشعر أبياتها، بيت يقول:

«وحين سرت تحت سور الداخلية العريض

حبيبتي

قررت أن أبيض».

وفيما بعد أدركت أن هذا النوع من الفن، هو مقاومة مشروعة للقهر، وتصد بأسل للذين يودعون أصحاب الضمائر وراء الأسوار، ليقتلوا في قلوبهم - بالحصار والتكرار - قدرتهم على إخصاب الحلم..

وكنت قد بدأت مغامرة الكتابة بمحاولة للقص لم تكتمل، فبعد تجارب، كان بعضها مبشراً، مللت القص، لأن أهل القص من جبلي - وفيهم مبدعون حقيقيون - فتحوا مناظرة حقا، موضوعها: هل الإبداع الفني أكثر تأثيراً أم النضال السياسي المباشر؟ وفي موجة من الغباء تعصبوا للأول، فتعصبت - في موجة غباء مضاد - للثاني، وأحرقت ما أبدعته، وخاصمت المبدعين، وشنت عليهم.

ولو أنك قلت: لبيتك لم تعد للقص.

فسوف أقول: عندك حق..

ولكني - من سوء حظ كليتنا - عدت إليه.

وفيما عدا قصتين، كتبت الأولى - وهي «الحب والصمت» - عام ١٩٦٤، والثانية - وهي «جنرالات هلا جنود» - عام ١٩٦٥، فإني لم أعد إلى القص، إلا في نهاية عقد الستينيات، حيث كتبت بقية قصص هذه المجموعة خلال عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠ والشهور الأولى من عام ١٩٧١، في معتقل طره السياسي، دون أن ألقى بالاً إلى المشنئين - ونشرت بعضاً منها في بداية السبعينيات في عدد من الدوريات العربية، وظل مشروع جمعها في كتاب يتسرب مع الزمن حتى نسيت، ولعلني خشيت أن تستغل للتشجيع على أجهزة البص والحبس، مما يسئ إلى علاقات «المودة» التي يحملها لي أهلها.

## الحب والصمت

«وقف رجل في أكبر ميادين المدينة ... وهتف  
بسرور اللجلجة»

مثل كل الناس، كان لى أب.. ومثل بعضهم، كان أبى عسكري  
بوليس في أحد أقسام المدينة. وكان شاربه ذا عضلات قوية، ولقد ظلت  
لفترة طويلة، أتوهم أنه شئ عظيم، عظيم جدا، هكذا كان البانعون في  
حارتنا الضيقة يعتبرونه، فيخافون منه، وينافقونه.

ولقد حدث وأنا في السابعة أن أبى أقلع عن التدخين لقلته دخله،  
كما أبطل أيضا عاداته اللطيفة في حملى. ولم يعد يسمح لى أن أضربه  
بالكف على صدغه كما كنت أفعل وأنا صغير. ولم يعد يدللتى، بل أنه  
ضربنى مرة عندما بُلْتُ على المرتبة الصغيرة.

وحدث أنتى في تلك السن هويت الطيارات الورقية، وكنت أنتفن في  
صنعها والونها، وأصنع لها حبلاً طويلاً جداً وأتركها تطير.. إلى حيث لا  
يمكن أن أراها.. إذ ذاك كنت أترك الحيط الذى فى يدي، فتختفى الطائرة  
بين طبّات السحاب.

وفى صباح ٥ يونيو من هذا العام - ١٩٩٢ - استيقظت فإذا خاطر الدعوة  
لاحتفال قومي بالعيد الخامس والعشرين للثورة، يختلط بخاطر الشروع في تجميع هذه  
القصص، الذى ظل يلح على حتى لم أعد استطع منه مهرياً، وإذا به أقدم أسباب  
ترددى في نشرها وأقول لنفسى: لعلها لو لم تصلح أن تكون قصصاً.. تصلح أن تكون  
وثائق عن الزمن الذى عشناه، بأفراحه وأتراحه.. وضحكاته ودموعه، فبها ظلال كثيرة  
من أوجاع عقد الستينيات، الذى ابتعدت ملامحه، وغرقت مسراته وأحزانه، حتى ل يبدو  
- فى ضوء ما يجرى الآن - وكأنه من عقود العصر الحجري.

أما وقد شامت الظروف أن تنشر هذه المجموعة من القصص، بعد حوالى عشرين  
عاماً من كتابتها، فتلك تذكرة ضرورية، اكتشفت ضرورتها وأنا أقرأها جملة - بعد كل  
هذا الزمن الذى انقضى - فلم تدفعنى القراءة لكتابة هذه المقدمة فحسب، بل قادتني -  
كذلك - لتغيير العنوان الذى قدمتها به إلى المطبعة لأول مرة، - وهو «جنرالات بلا  
جنود» - فكان هذا «البيان المشترك ضد الزمن».

وقد تسأل: أى زمن؟.. وأى جنرالات؟

وذلك ما أسأله أنا أيضاً!!

## صلاح عيسى

مدينة الصحفيين - ٢٠ يونيو ١٩٩٢

وكانت السماء تمتلئ أيامها بطائرات كثيرة، كذلك كانت شوارع المدينة تمتلئ بتلاميذ المدارس يهتفون بأصوات مبحوحة بسقوط شخص لا أذكره، وكان أبى يخرج لكى يفرق المظاهرات: على رأسه خوذة حديدية بيضاء، وفى يده عصى خشبية غليظة، يضرب بها الأولاد طول النهار، ثم يعود فى المساء منهكا متهدلا، وإذا ذاك كنت أراه غليظاً..

ومرة، كانت مظاهرات المدينة صاحبة أكثر مما ينبغى. وكان أبى يومها مرهقا، والأولاد ينحدرون من ميدان رحب نحو الشارع الذى يقود إلى حارتنا. صعدت النساء إلى أسطح البيوت. وأصوات المظاهرة الصاخبة تتسلل عبر جزئيات الهواء، وعندما انحسرت كثافتها فى حارتنا الضيقة زغردت بعض الجارات تحية لأبنائهن، ورفع بعض الأولاد رؤوسهم إلى الأسطح حيث أطلت الأمهات فى فرح عذرى. والذى حدث - إن لم أكن قد نسيت - أن المظاهرة كانت تضم أغلب أولاد حارتنا، وكانت النساء تتفرجن على أولادهن فى فرحة بكر، والجنود يضربون، وانحنى أبى ركنا قصبا فى مكان ما من الشارع، ورفض أن يضرب الأولاد أمام أمهاتهن وهو شئ لم يعجب «زكى أفندى» - قائد القوة - فصاح فيه:

- أضرب يا عسكرى..

- ما أقدرش يا أفندى..

ثار «زكى أفندى». وخشى أن يفلت زمام الأمر منه، والمظاهرة تتحول إلى غضب جنونى، وبقية العساكر قد توقفوا عن الضرب وأخذوا يتابعون المناقشة بين قائدهم وبين أبى. وهوت كف «زكى أفندى» فوق صدغ أبى. وزار:

- اضرب يا ابن الكلب

انغرست قدمه المجنونة فى كرش أبى الكبير.

أكبر الرجال والنساء فى حيننا أبى لأنه رفض أن يضرب أبناهم، لكن أبى كان حزناناً. وعندما عاد فى الظهيرة دخل حجرته متخفياً. نسيت أنا الحكاية. جفت الدموع القليلة التى ذرفت على أبى الطيب. وصنعت طيارة جديدة خضراء، وصنعت لها جبلا طويلا.. وأطلقتها. أخذت أغنى لها:

يا حمام.. يا مروح بلدك متهنى!

خلينى أنوح وأنت الللى تغنى!

سمعت صدى صوتى فأعجبتهنى حلوته. وأخذت أغنى، وأغنى. ارتفع صوتى. ملأ الدنيا الصامتة حولى حياة وحركة. لسانى كان يدور فى فمى بسرعة، وشفتهى تنفرجان.. وتنفرجان، والصوت يخفت، ويعلو، والطيارة تطير، تطير. أنا وحدى، والنافذة والفضاء والحمام.

فجأة، سمعت صوتا لا علاقة له بأصوات الأدميين، شئ كزمجرة أسد أو عواء كلب، لم استطع أن أميز شيئا.. التفت فى خوف متذعر. كان أبى فوق رأسى، وجهه قد انقلب. عيناه مكان فمه. أنفه فى جبهته، وأذناه قد طالتا.

قبل أن يعود إلى احساسى بالأمان ويتحرك لسانى الذى توقف فجأة، هوت يد أبى على صدغى.

كان كفه ضخما.. وثقيلا!!

وصحيح أن شوارع المدينة ظلت مرتعا للمظاهرات بعد ذلك. رغم أن الأولاد الذين كانوا يصنعون المظاهرات قد كبروا، وتوقفوا من زمن عن صنعها، إلا أن بطون النساء، كانت تقذف دوما أولادا جددا، يدخلون المدارس، ويصرخون، ويشتمون دوما أشخاصا لا أذكرهم. ولكننى لم أصنع شيئا من هذا، فمئذ اليوم الذى ضربنى فيه أبى نبت دمل صغير فوق لسانى. ويوما بعد يوم تضخم وتضخم، وعندما عالجته، كنت قد أصبحت لا أستطيع



الكلام بسهولة، وأصبحت أكرر الحرف الواحد مرات عشر قبل أن انطقه، وأصبحت الكلمة الواحدة تتطلب منى زمنا طويلا لكي أقولها، وهرب منى العيال يصنعون المظاهرات، ويتكلمون ويصرخون.

وكانت شوارع المدينة، ما تزال تلد المظاهرات، وكان أبى ما يزال يلبس خوذته الحديدية، ويأخذ عصاه الخشبية القصيرة ليضرب العيال. وعندما زرته فى مكان عمله بقسم الشرطة، اكتشفت بأسى قليل أنه لم يكن عظيمًا كما توهمت وأنه ليس إلها، وبدت وقفته المتصلبة أمام باب حضرة المعاون، شيئا مزرباً وسخفياً، وكذلك اختلاسة الوقت ليدخن نصف سيجارة بشبق ملهوف، ولم يستطيع خيالى الطفل أن يتصور الإله واقفاً كالتمثال البليد، يضرب كعبيه فى الأرض، ويرفع يده إلى جبهته فى رعب كلما مر بعض الناس، وبعد وقت، اكتشفت أن أبى كان يحمل الباش شاوريش «عوضين» فوق كتفيه، الذى كان هو الآخر يحمل الصول «محبوب» جالساً على منكببيه، ثم المعاون، فضابط المباحث، وبتربع المأمور كالزكبية فوق أكتاف الجميع، وهكذا تحول أبى فى خيالى إلى ثور ذى قرنين، ولا أعنى أنه أصبح قوادا - فأمى كانت شريفة - ولكنه كان كذلك الثور الذى سمعت - وأنا - طفل أنه يحمل الدنيا فوق قرنيه، وهكذا أطلقت عليه، اسم «صابر أفندى ذو القرنين».

ولفترة بدأ أبى كفيلسوف خطير يتسامل بالخاص :

- لماذا يضربون العيال، أضرب لهم مائة ولد بعشرة جنبهات؟! -

حرام!..

على أن السؤال الذى ظل يلح عليه، هو الطريقة التى يتمكن من خلالها أن يشتم «زكى أفندى» معاون القسم الذى ضربه بالكف أمام أهل حارته، ليستعيد كرامته المهينة، ومكانته الضائعة بين أهل الحارة.

وعندما لمعت النجمة بجوار التاج على كتف «زكى أفندى»، وأصبح

مأموراً، كانت ذراع أبى تزدان بثلاثة شرائط، واحتل مكتبها فى القسم فى حجرة واسعة مزدهمة بمكاتب ناعلة، تنتشر فوق أسطحها دوائر من آثار أكواب الشاي الساخنة. وشخبطة أسماء الشاروشية، والصولات الذين عملوا عليها منذ زمن سحيق.

وعندما كنت أجول فى شوارع المدينة بحثا عن منوم مغناطيسى، قرأت أنه يستطيع معالجة اللجاجة بطرق مجرية ومضمونة وسرية جدا، كان أبى يصرخ فى البيت:

- «زكى أفندى» كلب.. ابن كلب!

وكانت أمى توافق فى تسليم.. ولكن «ذا القرنين» كان مع ذلك ينفجر فيها:

- أنت مصيبة.. أنت لا تفهمين.. كان يوما أسود.. ذلك اليوم الذى زفونى إليك فيه!..

وأمى طيبة.. و «ذو القرنين» لا يكف عن الصراخ :

- مائة ولد بعشرة جنبهات، يا أنا.. يا إنت.. يا كلب.. يا ابن الكلب!

وقد كان. ذات صباح صرخ «ذو القرنين» فى وجه «زكى أفندى» صرخة صغيرة جدا.. وأحيل أبى إلى مجلس عسكري، ورفقته.. وعندما عاد بلا شرائط، ودون بدلته السوداء الأميرية، كان محمولا على الأيادى، وقال طبيب عجوز ناعل الشعر، انه فقد القدرة على الحركة وعلى الكلام..

فى تلك الاثناء توقفت المظاهرات التى كانت تملأ المدينة، وانتشرت المقاهى ووقف الأولاد على نواصى الشوارع بعلقون سلاسل من الذهب فى أعناقهم، وفشلت «الشيخة سعدية» فى علاجي من اللجاجة بعد أن سرقت منى نقودى، وسرق الباقى صاحب مكتبه عند ناصية الشارع كنت اشترى

ولقد حدث أننى أحببت «سعاد» وبالطبع لم أقل لها ذلك، لأننى بعد عدة تجارب أجريتها أمام المرأة اكتشفت أننى عندما أقول لها كلمة: أحبك. فإن هذا يحتاج إلى سبع دقائق بالضبط تزيد إلى عشرة إذا أضفت قبلها كلمة أنا!..

وكان عساكر البوليس فى شوارع المدينة التحتية، يترصون بالعشاق فى تلك الأيام، ويفاجئون الشفة فوق الشفة، ويتلذذون بتعذيبهم، ثم يبتزون منهم بعض النقود، ونشرت إحدى الصحف أنه قد ضبط عشرة أولاد يقبلون عشر فتيات فى شارع واحد من شوارع المدينة، وترص عدد من الرجال فى النواصي المظلمة من تلك الشوارع، وظهرت مهنة جديدة، هى الارتزاق من تهديد المحبين.. وسمعت أن فتاة من أسرة كريمة أصيبت بالشلل فى إحدى تلك الكبسات!..

وفى ذلك اليوم الذى اذاع فيه الراديو خبر صعود كلبة إلى الفضاء، كتبت رسالة لسعاد، قلت لها فيها أننى كنت أصنع طيارات من الورق وأنا صغير، وأننى لو واصلت ذلك فلربما أصبحت مخترعا عظيما، ورويت فى خطاب آخر، قصة الدمى الذى نبت فى لسانى، وقلت لها أننى لن أحبها، وسأنسى هذا السخف، وكان جسد سعاد شهيا كوجهها، وقد جاءت به على أقدامها ساعيا إلى، وكانت شفتاها دسنتين يخرج الكلام منهما كاجتذابات مغناطيس، وفى أحد شوارع المدينة التحتية سرنا: الذراع منها فى الذراع منى، وهى تتكلم.. وتتكلم.. وتتكلم.. وغنى رجل فى الشارع المجاور اغنية «كلمة.. هى كل آمالى». وتحدثت خلايا رأسى مع بعضها، وتكلم كفى مع كفها حديثا سريعا، ومر عسكرى بوليس فى الشارع، وتحنح بصوت مسموع، وسكنت «سعاد» حتى مر ثم عادت تتكلم.. وتتكلم!..

وفى شوارع المدينة الأمامية كثرت الحوادث، ذلك أن الناس كانوا يسبرون فى ذهول، وكتب عالم نفسى فى صحيفة يقول أن الناس يسبرون

منه الكتب والصحف لا قرأها وأكلم صفحاتها بعيونى. وتحول عدد كبير من زملاء أبى إلى العمل فى دوريات المساء، لأن المظاهرات قد توقفت، وحتى عندما سارت مظاهرة فى شارع المدينة الرئيسى تهتف بحياة أحد لاعبى الكرة، اشترك فيها العساكر. وحملهم الناس على أكتافهم، وكانت الحروف التى تصر على أن تتدلل فى حنجرتى قد بلغت إذ ذاك ثلاثة عشر حرفا كاملة، حسب الأحصاء الذى ظللت ليلة أجره، وظهر لى مقال فى مجلة صغيرة، كان قراؤها يعدون على الأصابع، وأصبح أبى يتكلم بعيونه، وفقد شاره كل عضلاته، فاسترخى متدليا - وطلب ذات يوم أن يحلقوه له.. وقد فعلوا!..

وعندما قبضوا على المنوم المغناطيسى الذى كنت أعالج على يديه علاجا فاشلا، قابلت «سعاد» وكان هذا فى بوفيه الكلية، ولقد ظللت صامتا، وإن كانت عيناي قد تكلمتا مع عينيهما لحظات، كما تحدثت أيضا حديثا خاطفا مع صدرها وفخذها. وكانا لبتين كوسادة تشتاقتها رأسى. كذلك فعل الهواء مع شعرها الأسود الطويل، وغنت مطربة فى الراديو للحمام الذى يروح لبلده متهنبا، تاركاً إياها تنوح وهو يغنى، وسمعت أزيز طائرة فى السماء، وتحدث طالب عن أهمية أن ينتظم مشجعو أحد أندية المدينة فى رابطة حتى يردون على الرابطة المنافسة. وقال آخر أن أحلى شئ أن تغنى وأنت فى الحمام حيث ينطلق صوتك كما تشاء.

ولم تتحدث «سعاد» كثيرا، ولكنها أبدت أعجابها بما كتبت، وقالت إننى كاتب لا بأس به، وإن كانت كتابتى لم تعجب والدها.

وفى تلك السنة صيغ والدها لحيته الشهباء، وتزوج بنتا بكرا لأن زواج الأبهكار مفضل على زواج الشيبات، وفصل طالبين من معهد الدينى لأن أحدهما غنى فى الفصل أغنية، «كلمنى عن بكرة» بينما ضبط عسكرى بوليس الآخر يقبل فتاة فى إحدى الحدائق العامة.

- ولد شهيم ، «أدهم» .. متى أرى فيك يوماً يازكى الكلب!..

واكتشف البوليس أن السفاح قد حول بيوت المدينة كلها إلى مخبأ كبير، وخلت الشوارع التحتية من رجال البوليس وانطلق العشاق يحبون بحرية، ولم يعد أبى يزعق طالبا الموس وماكينته الحلاقة، وإنما أصبح يطلب الجريدة.

وفى أحد أيام الربيع التقيت «بسعاد»، وكان هذا فى الحديقة المجاورة للكلية. وجدتها أمامى فجأة. كانت شهية كالربيع. منطلقة كفرحة بكر. وبدون أن أقول شيئاً، انفجرت شفتاها المتبسمتان عن كلمة: يا حبيبى، وسارت بهى فى بحر أخضر طويل.. وتمتمت بكلمات قليلة، منها أننى غيبى وأننى لم أفهم شيئاً، وأنها تحببى وهذا كفاية.

- أنا لم طلب منك الزواج، من قال أن أبنا ما سيكونون مثلك صامتين... لماذا لا يكونون مثلى، ثم.. من قال أنك ستظل صامتا طول عمرك!..

لم أتكلم. هفت خلاياى إليها، كنت أمر معها تحت قوس طويل من الشجر الأخضر، عندما رفعت قامتها القصيرة، أحاطت عنقى بذراعيها وألصقت شفتيها الدسمتين بشفتى المضمومتين.. فانفجرتا تعتصران شفتيها.. تفتحت خلاياى، مر داخلها شئ كالهواء... إندس صدرها الرمانى الصلب فى صدرى. أحسست بشئ كالحياة يتدفق فى خلاياى، فى لحظة لقائنا المحمومة همست وشفتاى بين شفتيها.

- «أحبك».

لدهشتى لم تستغرق الكلمة أكثر من ثوان.

فى اليوم التالى امتلأت المدينة بأخبار غريبة، وفى اللحظة التى كنت أقبل فيها «سعاد»، كان رجل آخر قد صعد إلى القمر فى صاروخ، ووقف

كما لو كانوا قد فتحوا نوافذ فى صدورهم يتأملون منها فى داخلهم، وأن هذا هو السبب فى كثرة حوادث المواصلات. وحذر العالم المذكور من أن تنتقل العدوى إلى السائقين، لأن ذلك يعنى انهيار المدينة بأكملها، وأكد أن على الدولة أن تقدم بعض المباحج والأفراح، وأن تزين الشوارع، ففى رآية أن منظر الشوارع القبيح هو السبب فى أن الناس قد فتحت نوافذ فى صدورهم، وأدخلت رأسها تتأمل ما فى الداخل.. وقد قرأت هذا الرأى وأنا مستلق على شاطئ البحر، ذلك أننى هربت من المدينة، أو من «سعاد» بالذات، وكرهت لسانى المتدلل، ولسانها المنطلق، وصمت شفتى كالجليد!..

أما أبى، فكان يوجه عناية خاصة إلى شاربه، بعد أن عادت له قدرته على الكلام والحركة، فما يكاد يثبت، حتى يصيح بهستيرياً:

- ماكينته الحلاقة ياهوه.. الموس «يانبوية»..

وهكذا كنت استيقظ صباح كل يوم على صرخته، فأطرد خيال «سعاد» من الحجرة، وانهى حديث خلايا مخى مع بعضها، وأبدأ يوماً ككل يوم..

وكان الرجل الذى عاد من القمر، يشغل أحاديث الناس فى كل مكان - فقد اكتشف أن الناس هناك بلا شفاء وانهم يتكلمون بكثرة، ويثرثرون، ويملاؤن الدنيا ضجيجاً، واغلقت المدينة النوافذ التى فتحتها فى صدورهم وبدأت تتبع أخبار سفاخ خطير، كان يضرب بالرصاص، زوجة خاتمه، وصديق طعنه من الظهر، واستدعيت قوات البوليس من الاحتياطى، لمطاردة المجرم، وحمل أبى جسده المنهك، واشترى صحيفة، وقرأ التفاصيل باهتمام شديد ثم هتف:

- «نبوية»، «سعيد مهرا» يا «نبوية»!

وهزت أسمى رأسها المكمل بالشيب، وبدأ أبى يروى لها الحكاية، ووجه حديثه الى عندما دخلت :

رجل فى أكبر مبادين المدينة هاتفا بسقوط اللبلجة، وكان أبى قد اختفى  
كفص ملح ذاب، وبكت أمى وهزت رأسها الذى أبيض شعره. قالت :  
- أبوك هرب ورا «سعيد مهران»، يا عالم هل أعيش حتى يرجع أم

.٤٧

## جنزالات .. بلا جنود

« .. وأما رأسك .. فما أجملها .. ولكن أين  
جسدك؟... »

يا «أم هاشم» .. يا بنت بنت رسول الله.. محبوبكم آل البيت شف  
وجفأ. امتص الصبر بالشمس كل دم عروقه. صابر ما طال الزمن. واقف بلا  
كلال. أكلت المصيبة قلبه.. والروح خراب..

لهفى عليك يا «حُسَيْن»: طار رأسك من كربلاء إلى القاهرة، مارا  
بأنحاء المعمورة، فبكت الدنيا دما، ضحك الخوارج اللعين، قهقهة الأصدقاء.  
بلا صوت، كأننا أضحكهم نكتة عدو، انداح داخل القلب حزنا أمر من  
العلقم. صاح صائح:

- أنا هنا.. أنا هنا يا ست، بالأحضان يا جنودى المهزومين فى لا  
معركة، أكلتكم أرض الرمال المتحركة،

ضربنى فى المساء شخص لا أعرفه، صرخ داخلى ولم تتحرك صفحة  
وجهى.

(١٩٦٤)



فتعرج بها وبأخت. الروح تشعشع كأنما حملها الكحول المتطاير. الظلمة لا معنى لها، وكذلك البرد. متى قال «محمود»: إهجم عليها. ذات مسيرة في شارع من شوارع العجوزة. وقال شئ نقي في داخلي:

- تبدو من بنات العائلات..

قالت موجات الكحول المتطايرة من فيه :

- عائلات؟! يا أرشل؟!.. إنها كباريهات.. كباريهات جدا!..

تعلمنا يا أبا حنفي منك ما لم نكن نعلم.. وأما اقتحامك للخطر فشيء يدعو للإعجاب، ولكن أين أنت في هذه الليلة الشاتية.. هذه البنت في مدخل الطريق تنطبق عليها شروطك.. واضح أنها كباريهات.. تعلقت ذراعي بذراعها، لم تتكلم، ارتفع شخير الشرطي ماراً بين أقدامنا، قالت:

- أين تسكن؟

السؤال طريف.. واللييلة تشي بنشوة تملأ القلب بألوان من الجنون، وليالي العجوزة، كانت أفراحاً ثلثة، ولكن لعن الله الزمن، صفحة الوجه بجوار الأذن اليسرى بها تشوه خفيف، لهذا انسدل الشعر فوقها عمداً، لعله وشم يؤكد أن يديها تلتقت يوماً روث الماشية في غروب طريق قروي. فوق دقات الحذاء ارتفع صوتها :

- الدنيا برد..

- ولكن الكونياك لذيد..

أما المثانة فلعنة الله عليها. مرّت سيارة مسرعة. غنى داخلها صوت مذياع يقول: يا حبيبي تعال.. تحركت رأس «محمود» في حركة بندولية، أسبل عينيه، ويريش جفنيه.

- لبيك يا أم هاشم.. جنت ومعى هذا الرجل الطيب، قلبك دعا قلبه، ولنا في رحابك خير ملاذ.

هز أبوها كرشه المتهدل بالزمن:

- تريد أن تتزوج «سهى»؟. إيه!

نقلتُ قدمي تحت المائدة.. مددت القدم أبحث عن أرض صلبة أثبتتُ بها رعشتي، الأرض رمال متحركة.. غصت فيها حتى التراب. صخب الصحاب في المقهى يملأ قلبي عزاء ملتاغا.

«محمود» يدق المائدة بعنف :

- أنت تحب البنت، والبنت تحبك.. ما شأن أبيها؟

لم يرد أحد. دق «الخواج» على منضدة أمامه:

- أنا صاحب المقهى ولست أنت..

كنغمة نشاز غنى صوت أبيها، من تحت أصابعه العابثة بشارية الهتلى، قال لسانه:

- كل ما يهمني هو مستقبل «سهى».. سألت عنك.. أنت رجل طيب..

جلجلت ضحكة في صحراء فجاوبها نعيق بوم.. وقالت أمي «اللهم اجعله خيراً» أما كلماته فتحملت ببخر أنفاسه..

- لماذا تريد أن تتزوجها.. بذلتك قديمة.. ولكنك أنيق..

غاص حذائي في الرمال المتحركة.. حرك «محمود» يده فوق باب الضريح، صرخ:

- نظره يا أم هاشم!!

دقات قدم الشرطي تاكل سُكْرِي. الكأس كانت ملائه، كذلك أصبحت مثانتى. غنّت خلايا رأسي أغنية قديمة، نقلتها إلى اللسان فتعرج

تفصّد الجبين عرقاً، نرّ الكونياك الرخيص من كل خلاياي.. قلت:  
نعارل مرة رابعة. وانحسر الظلام شيئا فشيئا، الفراش تحتنا أعلن افلاسى.  
ضحكت وساندته. وقالت خلية فى رأسى: لايد.. لعنة الله على الهزيمة.  
استجمعت صوراً طالما استفزت دمانى.. ولكن شيئا كالصاعقة سحب منى  
كل قوتى.. أحالنى.. إلى لا شئ. قفزت ليلة العجوزة إلى ذاكرتى فجأة، تم  
كل شئ ليلتها على ما يرام، وذكريات النشوة ابتعدت، أما الحبيبة  
فلنتجرعها من تحت الغطاء. رعشتها العارية الآن ضيق بالبرد، لا طلباً  
للنشوة، وها نحن نرقد هامدين كما لو كنا خضنا معركة..

سألته فجأة عن اسمها..

- سهى!!

استقام الحديث رغم النكبة.. قالت أن أباه كان شيخاً من شيوخ  
الأزهر، ضحكت فى الظلام، فقد تزوج أبى منذ عامين..

- ستدبحين عما قليل!!

- لا .. تلك أشياء مضت من زمان.. الأقيون لعنة الله عليه!

ألف لعنة على الكذب والحديعة.. استرددت عريك، وفى رأسها  
حديث لا ريب عن الفتى الذى أفلس..

- لا.. تظنى بى الظنون.. محسوبك فحل وله جولات ولكنها الرطوبة  
لعنة الله عليها..

- طبعاً.. ضرينى أبى أمس.. منع المطر الناس من الخروج.. وانعدم

الايراد.

.. كلماتك كاذبة، كم جسد التصق بجسدك، وأما أن أباه شيخ من  
شيوخ الأزهر فشىئ غير مستبعد، أنت نفسك خطبت الجمعة مراراً، وطالبت  
برجم الزانية وليس الغريب حقاً إلا هذا الضعف الطارىء حتى الموت..

- تصدقى.. كنت يوماً من الاخوان المسلمين، وكانت لى زبيبة  
صلاة.. ثم..

- قال أبى أن المولى يرفع التكليف عن بعض عباده.. وهو منهم..

لذلك صاح صائح فى الخرابة.

- يا شيخ «متولى».. جاءتك البشارة..

وأبوها ضخم كما ينبغى لتيس، وأما لحيته، فما أشبهها بشعر رأيته  
فى مكان ما من جسد ابنته..

عند الفجر قالت :

- لايد أن أنصرف، حارتكم ضيقة.. بطحنى طوب الأطفال فى حارة

مثلها.

.. ذابت فى الحديث رغبتها فنامت، وأما فمى فقد اشعلته بسيجارة.  
انقلبت حجرتى إلى مسجد مهيب، صرخ فى الشيخ :

- سودت وجهى يا خبيث..

قلت :

- يا مولانا إن المولى يرفع التكليف عن بعض عباده..

قال: ولكنك لم ترض المرأة، لهذا غضبت عليك السماوات.

- ولكنى يا سيدنا قد هجرت المسجد من زمن.

قال: أنت حيث كنت ممثلاً لنا..

والعجيب حقاً أن مكان المنبر قد انحسر عن أربع غانبات، وقالت  
واحدة: تعال! وأما الأخرى فرقصت، أحاطت بى الاثنان، وانتشى شئ فى  
داخلى. تكتل ذوب أعصابى.. قلت: لننا المراد. تشاجرت الشقراء والسمرء.  
مزقتنا ثيابى فى جنون. هز مولانا رأسه فى رضى..

دغدغت غملة قدمي، فإذا بعيني تعودان من خلال الظلمة.. وهي مستكنة.. في أحضاني.. قدمها بين أقدامى.. قالت :

- فُتِكَ بعافيه..

- ابقى قليلا..

في الليلة الخامسة، حدث المراد. تكتل البرد والارتعاش في لحظة محمومة. قال داخلي: انتصرنا بحمد الله. أما الضعف فليس إلا تجرية الغرير يلج أرضا طال بينها وبينه البعاد، قال رأسى فلتفتح النوافذ، ولتصرخ في صمت الحزن بحجرات تضم الرجال والنساء واليأس، قائلا ابشروا فإن فتح الله قريب..

قالت زوجة أبي الجديدة، عندما لامست يدي كفها أول مرة:

- أبوك زعلان منك.. خيبت أمله.

شق صوته الأرض فانفجر تحت أقدامى :

- رفتوك؟.. أنا قلت هذا، مثلك لن يكون ضابطا إلا عندما يلغون الجيوش.

حمل بصاقه بقية الكلمات.. وليس كمحمود عزاء لقلب صاد.. وأما أبوها، فهز رأسه صارخا:

- الشرع معى والقانون والحكومة.. فمن معك؟

صفق الحاضرون وطلبوا إعادة البيت. فأطبقت حنجرتى وصحت: «هؤلاء.. أبائى فجنتى بمثلهم.. إذا ما جمعتنا يا جرير المجالس».. صفقت بيدها في فرح صبياني.. قالت :

- تتزوجنى؟!

- نعم..

- ولكن؟...

- الضعف لعنة الله عليه؟!

- هذا شئ طارى؟!

- لا أقصدا

عندما انتظرناها ليعرفها «محمود» أول مرة، صاح وقد لمحها دونى:

- دعك من صاحبتك.. هذه واحدة من الكباريات..

كم وجهه سيقابلك في الطريق فتفتح بسمته اصفرارا، ويضحك حتى يستلقى على قفاه، لمنظر أسرته السعيد، وما ألد أن تكون واجهة.. كذلك قال أبوها.

- أحتاج اسمك.. لنضعه على واجهة البيت.. وليأت الآتون كأنهم أصدقاء لك. فألستة السوء لا ترحم..

بالأحضان أخذنى «الشيخ رواش» وقال

- مرحبا بك في طريقنا أنت الآن في طريق الروح الواصلة، من أهل الباطن أنت، علوية روحك وليست سفلية، نريد منك القلب، وأما بقية الأعضاء، فهى من أهل الدنيا.. تفعل ما يفعلون، وليس على الأعمى والأعرج من حرج. وربك تواب رحيم.

لذلك اهتز الكيان منك في «المحضرة». واهتزت الأعضاء، وصاح «أبو رواش» هذه ملبسة الروح ضعها في فمك.. وعندما ترتفع إلى الله روحك، وتشد الملائكة إلى السماء، قلبك فلتتبادل الألسنة «ملبسة الروح» إذ ذاك تتحد في ملكوت السماء القلوب وينتشر الحب من القلب.. إلى كل القلوب.

ودق بمسبحته فوق معدن رنآن وأنشد.

- و «النبي يا مريد قوم نادى.. قوم حَيِّىْ جمال الهادى».

فأهتز الجسد بعجزه بندولياً يذهب ويجى، كذلك لمحت العين فى لحظة خاطفة، جسد «زينب» يهتز. وأنت يا مريدة الشيخ، ما أمتع جسدك لولا العجز، أما الآن، فما أشبه اهتزاز جسدى، بمحاولات اليائس يوم ضحكت منه الوسائد. والعجيب حقاً، أن تنطلق فى جسدك هذه الشرارة الجنسية، لذلك اقتربت أقدامك منها، والتصق جسدانا. مع اهتزاز المريدن. شعشت الروح. ولتفعل الأعضاء ما تشاء فهى من أهل الدنيا، وأما القلب فهو فى طريق الروح الواصلة، فلما التصق عجزها بمنصف جسدك، انتشت أعضاؤك كأنك شربت خمراً. صحت :

- حى... يا قيوم

شعشت الروح، مس لسانها شئ لا يصدق، انتقل ما فى قمها إلى فمك، كذلك حدث العكس، وصاح «أبو رواش».

- مرحبا بك يا سيدى أحمد يا بدوى، شرفت مجلسنا، المريدون من أربعة أنحاء المعمورة، يهدونك القلب وانه لقليل..

ولما سألته :

- يا «بدوى» لماذا أعرضت عن «بنت برى». أكان مجرد زهد يا رجل؟ كذلك أعرض «يوسف» عن امرأة العزيز، وكيف أعرف الزاهد من العاجز، وألف لعنة على كل كذبة يصدقها الغافلون!

قلت له:

- مريدك أتى يسألك الحكمة.. أردتُ استنقاذ روح، ولكن منعى أبوها وأخجلنى العجز..

قال:

- فلما أتاها فى السحر صائحا: زملونى.. دثرونى، احتضنتُ خوفه ومنعت عنه الضر.. وصدقته وكانت أول المؤمنين.

- ولكن أباه يا سيدنا رجل شرير.

- وما أنت بقادر على الحكم على القلوب، وليست الأعضاء أولاً وآخرأ إلا من أهل الدنيا.. وأما القلب فليسر على درب الروح الواصلة..

لهذا انتقلت إلى بيتها، وقال الأصدقاء: انتهيت. وصاح أبى: ألف لعنة.. وزينت واجهة المنزل بالورد الأحمر والرياحين، وأعلام بها هلال ونجوم ثلاث. ردد أبوها وراء المأذون «زوجتك ابنتى البكر الرشيد». تأمل «محمود» لحبة أبيها، قالت عيناه: أين رأيت مثل هذا الشعر من قبل؟ وأما كتاب «ألف ليلة» فما أمتعته، وأحلام المراهقة كم كانت لذيدة، وكم سرح الخيال محموماً، خلف سطر يقول: فلما أتاها وجدها دُرّة لم تثقب ومهرة لغيره، لم تُركب. تكتل ذوب الأعصاب أول مرة، وبعدها ضحكت الجدران ليالٍ طويلة وقهقه الغطاء ألف مرة وانكشفت الروح خجلاً. دق الباب وانفج عن اللحية. قال الفم المعوج :

- هناك زبون ..

وليس المتعجل لبانتة، كالمقيم مع الفشل، لهذا أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات، وأما «زينب» فقالت :

- يا سيدنا احتاج حضرة..

تبسمت عجيزتها لمسى، وامتلاً القلب نشوة حتى الشمالة.. وقال «محمود»:

- ينبغى أن ينتهى كل هذا..

وأما الشيخ فصرخت رغبة على جانب فيه :



- يا عبدى.. أنت تريد.. وأنا أريد.. ولكنى فعلاً لما أريد.

- يا مولانا، العجز اخجلنى.

- وستر ضعفهم.. وزودهم بجنود لم يروها فكانوا من الشاكرين..

وعندما غرزت أصابعى فى دسم اللحم فى وليمة المولد، قالت «زينب»:

- هذه لِيَّةُ خروف فتمتع بلمس الدسم فى لحم الضأن، ففيه شفاء للناس.

رمى مولانا عجيزتها، ورفع فمه صائحا:

- كلوا من طبيبات ما رزقناكم.

فى الخُلوَّة قال لى :

- إبشر يا مريدى.. أتانى الإمام «الحسين» أمس فى المنام، وكنت

معه، وقال لى : هذا المرید رأس الجِوالَةِ فى الأرض، زوده الله بجنود لم يرها، فليسر فى كل مكان سارت فيه رأسى، وانه لو اجد جنوده فإذا لقيهم فليقدمهم إلى حيث محتشد الشكالى والأرامل ويجتمع الخزانى، والأمهات اللواتى جف لبنهن، وليقل لهم على لسانى: ابشروا أنتم أبناء «الحسين»..

ولهذا خلعت بذلتى القديمة، وألقيت أناقتها التى صنعها الكواء فى ركن خُلوَّة الزفاق، وبذلة «الجنرال» كانت يوماً عفريثة لأسطى.. وأما النجوم والسيف فكانت أوراق كتاب قديم..

«كم هى مضنية رحلة رأسك يا حبيبي «يا حسين». وليس الطائر كالسائر على قدميه. وما يستوى الشيخ والمرید. وما أمر حزنك يا أم هاشم. وكم كان صبرك قاسياً.. أمّا ما فعلت يا حبيبتى عندما سال دم الأحياب تحت أقدامك تشربه الرمال.. فهو ما أدفع عمرى ثمناً لعرفته. أطمعنى فلاح وسقانى وسألته :

- رأس الحسين مرت من هنا؟؟

قال :

- قطعوا رأس جدى يا مولانا.. كانوا يصيدون الحمام...

وقديما قالت «زينب»:

- لماذا لا تأكل حَمَاماً.. إنه مقر للياه.

وأما البذلة، فقد استخدمها كل زائر للحجرة فى بعض شؤونه، فأصبحت مجمع توقيعات الزائرين، وقال أبوها :

- اختفت حبوب منع الحمل من البلد وكنت أطحنها مع «الأفيون» ورأسى الآن تكاد تنفجر..

سال منخاره، فمسحه فى البذلة وكانت بجواره..

قال «أبو رواش».

- تكاثروا تناسلوا فإنى مياہ بكم الأمم يوم القيامة.

- سفاحا يا مولانا؟؟

- إن خفتم الضر فاعزلوا...

- لم أجد جنودى يا مولانا.. و أكلت الحشرات بذلة الجنرالية ..

- عجزت العين ولكن القلب يرى!.

- واختفت حبوب منع الحمل..

- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

- وحتى لو المحبت إينا ليس ابنى؟.

- واجعل لى نصيراً من أهلى هارون أخى، أشدد به أزرى..

- ولكنه ابن عدوى..

«شعثت الروح. فى الظلام، أنارت كوة برأس «الحسين»، سألتنى شفاهها: «أبن الجنود «يا جنرال»؟. فقلت. بحثت فلم أجد. والطريق الذى طارت عبرة رأسك من المخطوط المحرمة دوليا. ولبس الطائر كصاحب قدمين كليتين، وأما رأسك فما أجملها، لكن أين جسدك؟ قال: أتسألنى عما أريد أن أسألك عنه؟.

بحثت فى ظلام المقابر فلم أجد، ويت الليل فى المهجور منها، حولى عالم الأموات، ترغمت على شفتى ألف كلمة، وألف نشيد والروح الواصلة تبحث وما من مجيب، والظلام المطر يأكلنى يوما بعد يوم، لذلك شاب الشعر فى شرح الشباب، ولم اتعلم من الشيوخ حكمتهم، ودق فهمى على الأذهان فما أضيع العمر، وأمس وجدت وثيقة زفانى فى جيبى، فتذكرت أن لى بيتا وزوجة. وسألنى أبوها :

- أبن الجنود يا جنرال؟

لم أجب .ملأت ضحكاته الساخرة فراغ حجرة الزفاف، واستقبلتنى «زينب» باهتزاز العجيبة.. وقال مولانا :

- ابحث عن خلايا جسد الحسين.

قلت :

- كيف تعيش رأسه بلا جسد.

ما أكثر الأسئلة التى تبحث عن جواب. وليس فى أقدامى قُدرة على السير. وعلى باب الضريح قابلتنى امرأة فصاح فمها من خلال إطار السواد حول وجهها :

- القضية نمرة ٧٩٩٨ سنة كذا وستين، جنابات مصر، القليل «سعيد

«سعيد مهران» والقاتل «رؤوف علوان». وفضيلة المفتى أمر بالشنق، «وعشماوى» قبض خمسة جنيهات.. والحكم تم بعد المداولة.

وزارنى أبى على باب الضريح، قال : عد لبيتك.. فقد بارت بسببه سوق كل البغايا.. زوجتك فاقت الكل..

قالت رأسى المهتزة :

- يا من من برى ولا يُرى.. أعطِ البعوض جناحها!!

- لا انفهمك!!

- واحلل عقدة من لسانى، يفتقها قولى!

- اتعبتنى.. لو سمعت كلامى من البداية، لأصبحت اليوم جنرالا حقيقيا، ولكنك خبت.. ففصلوك من الكلية الحربية..

- والجنود يا أبى؟..

- طلق زوجتك..

- والحب؟.

« وما صبرنا إلا لأننا محبون، أليس الحب والصبر صنوين، فليهجر الحبيب ما شاء له الهجر، لهذا أتانى أبوها ببذلتى المرصعة بتوقيعات الزائرين. وحملتها على كتفى وأقدامى الكليلة أصبحت غير قادرة على السير وقال :

- هات وثيقة الزواج ..

- ولكن.

- قلت لك هاتها..

- سينفعكم اسمى..

ضحك الشعر تحت شفتيه وقال بخر أنفاسه..

- أصبح البغاء رسمياً.. وحبوب منع الحمل تملأ الدنيا!

لهذا ضاع الجنود. وزارتنى رأس الحسين، وقالت: ألف لعنة، جنودك ذهبوا إلى بيت زوجتك بصفقون فى ليالى النشوة!

يا أم هاشم.. يا بنت بنت رسول الله.. محبوبكم آل البيت شفى وجف.. امتص الصبر بالشمس كل دم عروقه.. واقف بلا كلال. وما أمرُ حزنك يا أم هاشم. وكم كان صبرك قاسياً، وأما ما فعلته يا حبيبتي عندما سال دم الأحباب تحت أقدامك تشربه الرمال.. فهو ما أدفع عمرى ثمناً لمعرفته.. وإنى لصابر حتى أعرف.. فما صبرنا إلا، لأننا محبون.. أليس الصبر والحب صنوين؟!

## الايتمام على مأذبة اللئام

.. ليكن شعارك أن كل الإنسان على الإنسان  
حلال : عرضه .. وماله .. ودمه!

للمرة السابعة خلال عام واحد، أقسم صديقى «الدكتور مراد» أنه سوف يغادر البلاد نهائياً ليقبم فى الأحراش الإفريقية. وكان يردد ذلك وهو يفكر فى طريقة ينقذ بها «ملكه» الذى كان قد حوَصر حصاراً قاتلاً. وعندما نجح فى إبعاد الخطر عنه مؤقتاً، تنهد بارتياح وقال إن التخلص من مأزق شئ جميل، لذلك فسيفنذ فكرته فى الهجرة إلى شرق إفريقيا مهما كانت العقبات. وتأمّلت «القبيل الأسود» وحسبت كيف يمكن أن أهاجم الملك مرة ثانية دون أن يقتل وزبرى، ثم هممت بأن فكرته مغرية إلا أننى مللتُ تردده لها وأن عليه أن «يكش ملكه» للمرة الثانية. إذ ذاك ابتسم وقطب حاجبيه طويلاً. ونادى «ناهد» من الداخل وسألها عما إذا كانت البيرة قد تثلجت.. فعادت بعد لحظة بعربة شاي متوسطة تحمل البيرة وأطباق المرات.. وبينما استغرقنى تأمل موقف الملك الصعب والتفكير فى وسيلة لانقاذه من الموت، كان «مراد» يشرب فى تلهذ ويشتر أيضا بتدفق شديد. وكان الوباء

(١٩٦٥)

كالعادة ثرثرتنا اليومية، وقال أنه سيضطر إلى إنشاء معزل ثالث في الطرف الشرقى للمدينة، ذلك أن الوباء انتشر وتمدد إلى مالا نهاية، وسأل ناهد عن رسالة الأدوية التي وصلت أخيراً فقالت إنها اوشكت على النفاد فشرّب كأسه.. وقال:

- لا أمل في شيء.. لقد انتهينا.

أطرقت ناهد رأسها إلى الأرض، كانت آثار الجروح مازالت تملأ وجهها، وتشاغلّت بإصلاح ثوبها الأبيض المرصع ببقع حمراء كبيرة. وسألت عن «ناعسة» فقال:

- اختفت.. وهم ينسجون حولها الاساطير..

وفي تلك السنة كانت «ناهد» قد اغتصبتني في حجرة الكشف وعلى مائدته الجلدية الباردة. حدث هذا ذات ظهيرة غاب فيها «مراد» عن عيادته، وقفت على الميزان وهي بجوارى تقرأ ما يؤشر إليه، وفي محاولتي للنزول وجدت نفسي في أحضانها وهممة تمنع تصدر عنها لم أجد مبرراً لها، إذ حتى هذه اللحظة لم أكن قد فكرت في الاحتكاك بلحمها الطرى. وخلال دقائق محمومة مارست لذة الاحتكاك به وكان لزجا بالعرق، واسع المسام كدجاجة نتف ريشها، وكان الشعر ينتشر بين ثدييها في خط طويل ينتهي قبل منتصف البطن ليعود بعد ذلك بقليل في هرم كثيف تتزايد كثافته تدريجياً حتى تتحول ظلاماً دامساً، ووجدت نفسي أسبح في بحر من عرقها ثم أهدم تماماً. ومنذ ذلك اليوم لم يتكرر ما حدث، وقد انتظرت في قلق أن تعاود اغتصابها لي، ولكنها لم تفعل ففتر حماسي لذلك.

وكنّت أعرف أنها عشيقة صديقي «مراد» وممرضته، فهي تمارس دوراً وسطاً بين الممرضة والزوجة. وفي جلساتنا الخاصة كان الباطن الأبيض بغادر

جسدها ليترك مكانه لفستان أخضر - وأحياناً بيجاماً أو قميص نوم - فتشرف بمهارة على تلبية ما نريده، حريصة على ألا تتجاوز وضعها الدقيق، فلا تهدم كل الحواجز بيننا وبينها، ولا تندني بها لتصبح خادمة.

وعندما تطفلت يوماً على صديقي «مراد»، وسألته عن طبيعة العلاقة بينهما أكد أنها كائن شيطاني بلا أسرة، ولا ماض، والأرجح أنها غادرت أسرتها في ظروف غامضة لا يعرفها. وأسرت لي أنها اغتصبتة رغماً عنه في ليلة شتوية مطيرة كان فيها سكرانا وحزينا لسبب ما. وأنها تكرّر اغتصابها له كلما أرادت فليس له أن يعترض. وأكمل وهو يذئب شيئاً في كوب شاي أمامه:

- في بعض الليالي تعذبني الرغبة فيها فلا أجزؤ على الاقتراب منها وانتظر في قلق أن تشير إلي، ولكنها لا تفعل.. ولا يبقى أمامي إذ ذاك إلا الاستعانة بمدد من الخارج.

كانت «ناهد» أميل إلى الاسمرار، ذات ملامح دقيقة كطفلة، تبدو من بعيد هادئة ورقيقة، وجسدها في إطاره الخارجى عذرى الملامح، وليس كذلك إذا تأملت تكوينه الداخلى. وفي مرات قلائل - خاصة قبل أن يستفحل الوباء - رأيتها وهي تحشو سجاثرنا بالحشيش، وكانت تفعل ذلك بديره وتلذذ، وأصابعها النحيلّة ذات الأظافر الطويلة الحادة تتحرك بمهارة وخبرة، ثم تدخن بشراهة، وتضم شفيتها الدمستين على السيجارة فتسحب نفساً طويلاً تحبسه في صدرها فيذوب ولا يخرج منه إلا القليل، ونادراً ما كان الصمت يفارقها، فتبتسم ابتسامة خفيفة إذا ما سمعت ملحة. وتهز رأسها إذا سمعت نغماً. ورفضت باصرار ذات ليلة أن ترقص، وتركت أكفنا المصفقة تدق الايقاع دون إجابة. فقلت: ليكن.. أرقص أنا. وأمسكت لي الواحدة وبرقت عينها وهما تتابعان جسدي في اهتزازاته السريعة، منتشيتين لأقصى الحدود برقصي.



وفى تلك السنة شغلنا مراد بحديث متصل عن البلهارسيا، وقال أنه يفكر فى طريقة جادة للقضاء عليها. وأن فكرة طارئة نبتت فى ذهنه وهو يستحم، أن يوقف حياته على هدف سام، وأن الهدف الذى اختاره، هو هزيمة البلهارسيا هزيمة ساحقة. وأكد أنه سيكون مثيرا أن يضع كمية كبيرة من مبيد حشرى حدد نوعه فى مجرى النيل، فتلك هى الوسيلة الوحيدة والسريعة لافناء قواقع البلهارسيا. ولما نبهناه إلى أن ذلك سيقتل الزرع والحيوان والإنسان أيضا، ضحك وقال بجديبة شديدة رغم أن كلماته كانت مشبعة برائحة الكحول:

- البلهارسيا كائن حقير وتافه، فاما أن يعيش الناس حياة قوية وسليمة وإلا فلا مبرر للحياة أصلا..

وقد اعتبرنا المسألة واحدة من فكاهاته التى لا تنتهى رغم أنها أصبحت مرهقة لنا، إذ أصر على أن يضع فى كل مكان من مسكنه لوحات حجرية مجسمة تظل منها دودة بلهارسيا مقبضة ويشعة المنظر، وذكرها يحتضن أنشأها فى بطنه، وفى ليالى السمر كانت تتطفل علينا، تسمع كلماتنا، تراقب نظراتى المتسولة إلى «ناهد». وفى مرة أقسمت لهم أنها أخرجت لسانها لى. وقد ضحك «الشيخ رضوان» - إمام مسجدنا وواعظه ومقيم شعائره - طويلا، وقال أنه كان يتسائل دائما عن معنى حرف «الدال» الذى يسبق توقيع «مراد»، والآن فقط عرف أنه اختصار لكلمة «دودة»، أما «ناهد» فقد دافعت عن الدودة دفاعا حارا. وقالت أن لونها جميل وأنها تنصح بأن تنتج شركات الأصواف، صوفا بلونها الأصفر الباهت. بيد أنها عبرت عن كراهيتها للأنثى التى كانت تستقر مستسلمة ببطن ذكورها.

وفى الليلة نفسها هرش الشيخ «رضوان» مهبط بطنه - وكانت تلك إحدى عاداته المرذولة - وتحدث متفلسفا عن حكمة الله الذى خلق من كل زوجين اثنين، يسعى كلاهما للآخر، رجالهم قوامون على نسانهم حتى فى

زوجين اثنين، يسعى كلاهما للآخر، رجالهم قوامون على نسانهم حتى فى دنيا البلهارسيا، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولولا أن ناهد عاجلته بغابة الجوزة لاستمر فى حديثه الطويل. بيد أنه سحب نفسا عميقا، وأغلق عينه السليمة - فالأخرى عمشاء - ومضى يبتلعه ببطء، ثم طرد ما بقى منه - وكان قليلا - وأسند رأسه على كفه، وسبح بحمد الله طويلا.

وكنا قد دحنا حتى اكتفينا عندما مضت «ناهد» إلى الداخل، ونادت «مراد» بصوت وحشى، فابتسم ابتسامة هزيلة واعتذر لنا ومضى خلفها، وإذا انفرادى بهى الشيخ قال:

- هذه علامات الساعة.. صاحبتنا تتعشى الآن بالدكتور..

فدعوته إلى أن «يكرس» لنا كرسيًا ندخنه ففعل، وقال وهو يناولنى الغابة أن «ناهد» حاولت أن تعتدى على عفافه، ولكنه قاومها بعنف:

- كانت متوحشة ومفترسة. خمشت وجهى بأظافرها الطويلة الحمراء فأسالت دمائى، مزقت جبتي، عضتني فى كتفى فضغطت على رقبته. أفلتت منى، حاولت أن تنال مكمن عفتى، تمكنت من ثديها الأيسر، عصرته بكل ما فى كفى من قوة، فتهاوت على الأرض، هزمت تماما.. ويكت..

سألته عما إذا كانت قد قدت ملابسها من قبل أم من دبر فضحك طويلا وقال أنها مزقتها جميعا ومن كل اتجاه. فقلت:

- محافظتك على عفافك، فى أيامنا هذه شجاعة تحسد عليها.

شكر الله الذى هداه إلى ذلك، وأكد أن جسدها مُشعر، وأن الله يبارك فى الرجل المشعر ولا يبارك فى المرأة المشعرة.

ومن المؤسف حقا اننى لم أتابع ما حدث للشيخ «رضوان» بعد ذلك، إذ قضيت ما تلا ذلك من أسابيع فى المستشفى عقب اعتداء وحشى وقع عنى فى الطريق الزراعى ذات سحر. وكنت قد أمضيت أغلب الليل أشرح

فى القرية، وقدت سيارتى وكان الظلام خانقا والطريق خاليا وصامتا كغير فرعونى. وكنت أتأمل فى إعجاب مسير الرصاصة التى اخترقت الجبهة، ولم أجد لها أثرا فى قاع الجمجمة، ولم أجد لها أثرا فى أى مكان آخر من الجسد، وسلمت القتل لأهله مجموعة متناثرة من اللحم.

وعندما حاذبت النخل الكثيف فى منتصف الطريق وجدت عانقا يمنع سيارتى من الحركة، أوقفت المحرك. ولدت الظلمة أشياحا ضخمة نادانى واحد منها باسم لا أعرفه. كان صوته غليظا وعريضا، ردد الصمت والفراغ صده المرعب. طلب منى أن أطفى أنوار السيارة وأغادرها. ولم أكد أفعل حتى جاء صوته مرة أخرى عريضا كأنه الغضا. نفسه:

- يا ابن الكلب.. محرم تتناول على أسبادك.

ولم أسمع بقية الكلمات، إذ انهالت على العصى من كل جانب مؤلة وبعثة، تدفق سائل غليظ القوام وحر على وجهى. خفت، تملكنى الرعب، إنحنيت على الأرض، قبلت أقدامهم. توسلت لهم، بكيت. أغشى على. صحت لأجدى فى المستشفى. وفى تلك اللحظة فقط اكتشفت أننى لم أكن المقصود لأننى لا أحمل الأسم الذى نادوه. كما أنه لم يحدث أبدا أن تناولت على أى من أسبادى، إذ كنت أتوهم - حتى تلك اللحظة - أننى بلا أسباد على الاطلاق. وقد ثبت فيما تلا ذلك من سنوات أن هذا وهم خاطئ دفعت ثمنه الكثير.

وفى المستشفى زارنى «الشيخ رضوان»، ودعا لى طويلا، وقرأ آياته وتعاويذه، فقلت له:

- أنا حزين يا مولانا، العار يجلىنى، ثم أنتى دهش: كيف لم أقدمهم؟ لماذا بكيت وقبلت أقدامهم؟  
بسمل واستغفر طويلا ثم قال :

- أبشر، سوف تتغير الدنيا. بهذا أنبأنى هاتف زارنى فى المنام.

وأقسم أن هاتفه بشره بأنه مدخر لرسالة عظمى، لا تقل عظمة عن رسالة «المسيح الدجال» وأنه تمهيدا لذلك قد رفعت عنه كل التكليف، ومن اليوم فلا يخلجن من شئ، ولا يخافن من أحد.

ومضى فغاب طويلا، وسألت «ناهد» عنه فابتسمت ابتسامة ذات معنى. وأكد «مراد» أنه لن يأتى، وقد لا نراه بقية العمر، فقد لزم بيته ولم يعد يؤم الصلاة فى مسجد مدينتنا الصغير، ولم يعد كذلك يؤذن أو يلقي العظات، ذلك أنه ضبط ذات فجر وهو يحاول أن يلوط غلاما صغيرا فى الدور الثالث من منذنة المسجد، وصرخ الغلام واختلف الرواة فيما إذا كانت صرخته استغاثة أو نشوة فتدافع الرجال الذبن كانوا يستعدون لصلاة الفجر، وفرقوا بينهما، وضربوا الشيخ والغلام ومزقوا عمامة الأول وكاكولته وحتى قفطانه، ورفضوا أن يتركوا له ملابسه فسار شبه عار من المسجد إلى منزله، فلزمه صامتا وحزينا. وقيل - نقلا عن غلام أمرد يعمل عنده - أنه يفكر فى الهجرة إلى بلاد الانجليز التى أباحت اللواط - كما قرأ فى الصحف - وقد اتضح بعد ذلك أن تلك كلها أشاعات وأن الشيخ لم يفكر فى الهجرة، بل كان ينتظر فى قلق هاتفه. وكنت أقطع وقت المرض الطويل بالمستشفى فى قراءة تقرير عن حالة الأمن العام فى مدينتنا، وقال التقرير أن هناك زيادة ضخمة فى عدد جنابات الاعتداء على الأشخاص، بلغت ٢٥٧ حالة خلال الشهور الستة الأولى من العام، وأن هذه الحوادث تشمل الضرب الذى يفضى إلى موت والقتل العمد. هذا فضلا عن حوالى مائة جنابة هتك عرض واغتصاب بالقوة أدى بعضها إلى موت الضحايا أثناء المقاومة. وقلت لنفسى إننى سأزيد الأرقام واحدا فى العام القادم. وأن ما حدث لى بكل بشاعته سيصبح فى النهاية مجرد رقم بارد من تلك الأرقام الغريبة.

وكذّب حضور «الشيخ رضوان» لزيارتى - مرة ثانية - كل ما قيل

عنه، وكان يومها هادئاً ونظيفاً جداً، وسألته عن هاتفه فقال أنه زاره، وحاووه طويلاً.. ثم قال له فى النهاية:

- ليكن شعارك أن كل الإنسان على الإنسان حلال: عرضة، وماله، ودمه.

وعندما خرجت من المستشفى كان الوباء فى بداياته الأولى. وزرت «مراد» فى معمله فوجدته يحلل بعض العينات أمام ميكروسكوب عتيق، والقيظ قد تركنا نصف موتى، جلست على مقعد معدنى شعرت براحة لرطوبته. قال:

- ظاهرة غريبة. العينات كلها سلبية حتى الآن. والمشكلة أن «ناعسة» ترفض أن تعطينا أى عينات.

وكان الوباء قد بدأ فى عزية على أطراف مدينتنا ثم انتشر. كانت الأعراض واحدة. وربما فى الحالة الأولى فقط بدا الأمر غريباً، إذ أصر العريس - وأظن أن اسمه كان «أيوب» ألا يفيض بكارة زوجته فى حضور شهود، ورفض المنديل الذى قدمه له أبوها طالباً منه أن يرده حاملاً الدليل على أن ابنته صانت عرضها واحتفظت بعذريتها سليمة. وفى اللحظة نفسها كانت العروس - واسمها على سبيل القطع «ناعسة» - تطرد الدابة وأم العريس وأخواته، وترفض أن تخلع ملابسها، أو أن يحضر أحد لحظة لقائها بزوجها، وعندما حاولت الدابة وأم العريس أن توثقها لكى تؤديا مهمتهما تشاجرت معهما وعضت الأولى فى عجزيتها. إذ ذاك ضرب أبوها العريس، وأمره أخوالها أن يفعل كغيره من العرسان، فرفض بشدة، وقال أنه سيدخل بها فى أى وقت يشاء، ولطمت أمها خديها وولولت فى الداخل، وحلّت شعرها. وانهالت العصى على «أيوب» من كل مكان، وتحطمت مصادر الضوء كلها، وفى الظلام الدامس أطلق مجهولون الرصاص، وخلت ساحة الحفل، وارتفعت أصوات النساء - التى كانت تزغرد قبل لحظات - تصرخ

فى رعب قاتل، ولطخت الدماء التى سالت كنافورة قطعاً كثيرة من أثاث العروس.

وفى السحر حملت إلينا الاسعاف «أيوب» مصاباً بجرح عميق فى رأسه ويكسور فى ذراعيه وساقيه. وتفاقت حالته فى اليوم التالى وأصيب بحمى حادة، ولم يكذب يتحسن قليلاً حتى أصبح يطرد كل ما فى جوفه. وتدهورت صحته بشكل مرعب، ورأيتها واقفة على باب حجرته، قلقة وحائرة. ولكن وجهها الأسمر لم يفقد حرته فى أى لحظة، كذلك فشلت ملابسها المحتشمة أن تخفى سمات جسدها المنسقة. كان كل جزء منه يقود إلى الآخر بشكل تلقائى. بحيث لم أستطع فى كل مرة أواجهها إلا أن اتفرس فى كل قسماته: وكانت عينها صاقبتين ثابتتين، لا تطرفان أبداً مهما حدثت فيهما، وفى مرة اجتذبتنى صدرها، كان خصباً كأرض براح، وقلت لنفسى أن أطفال العالم سيسعدون لاشك عندما ينامون فوق هذه الخصوبة الواسعة الدافئة...

وبعد شهر من شفائه، عاد إلينا، ورأيت يومها: شاحباً ضعيف النظرات، خجولاً. وكان شاربه قد تهدل. وشكا فى كلمات متقطعة أنه لا يستطيع أن يؤدى واجبه كزوج، وأنه فى اللحظة التى يشعر فيها أنه فى أقصى لحظات توهجه والتى تنتظرها زوجته فى عطش محموم، فى تلك اللحظة يشعر بألم شديد فى مؤخرة رأسه، وكأن آلاف من العصى الغليظة تنهال فوقه، ومع الألم الحاد تختفى حماسه تماماً، ويرقد منهارة كخرقة قديمة بجوارها.. وضحك «مراد» ضحكة عالية وهو يروى الحكاية لنا فى المساء، وقال أن العالم يتفنن فى اكتشاف المثيرات ليخفى عجزه الدفين.

بيد أن الشهور التالية حملت إلينا الأبعاد الكاملة للخطر الذى تعرضت له مدينتنا والذى كان خطراً حقيقياً، إذ بدأت الحالات تتزايد، وظهر أن المرض كامن كالفجيرة، وأن ستارا من الحجل كان يحول بين الرجال وبين

الاستعانة بالأحجية والتعاويذ لسلب الرجال قدرتهم على الإخصاب، وأقسم قسا مغلفاً بأنه تاب عن ذلك توبة نصوحاً. وأنه مزق الكتب والأحجية كلها، بل أنه حاول أن يعود إليها ليستعين بها في دفع البلاء الذي عم مدبنتنا فلم يجدها، ثم سكت طويلاً فسألته «ناهد» عن هاتفه، وماذا فعل معه.

- الظاهر أنه هاتف ابن أونطة، مضى ولم يعد.  
وضحك ضحكة قصيرة وأضاف :

- عندما يخلو فراش الرجل من ضجيرة، أو تكون الغبارة رديئة، فإنه يفكر عادة في أن يكون نبيا، وذلك في ظني ما دفع صديقنا الدودة إلى الاهتمام بحكاية البلهارسيا.

ضحكتنا. قهقهت بطن الشيخ في تموجات، واكتشفت لحظتها أنه ينتمى بشكل مباشر إلى جد من القردة العليا، كان وجهه مجدورا وأنفه ضخما ككرة صغيرة مليئة بالحفر. وتوقف الضحك وقلت جادا :

- ولكنك يا مولانا كنت متحمسا لدعوتك، وهي دعوة جديدة بالفعل..

شد نفسا طويلا من غابة الجوزة وأزدرده.. قال :

- راجعت بعض الصحف فوجدت أنها دعوة قديمة جدا..

وضع مسبحته بجوار الاناء الذي يحمل جمرات النار، ومضى يتحدث عن فضائل «الغبارة الهندية» فقال أنها تنشط الجسد الخامد، وتوقظ الرغبة الهامدة وأنها مدرة للنسل وقاتلة للكدر. واقترح أن نكف عن التدخين في الجوزة والسجائر. وأن نضع «الغبارة» كلها فوق النار ونغلق النوافذ فنستنشق هواء كله خدر. ونحمست «ناهد» للاقتراح، واعترض مراد مؤكدا أن الطريقة قد تؤدي بنا وتقتلنا..

التعبير عن الكارثة التي أودت برجولتهم. وقد تأملت طابورهم الطويل اليائس والحجول سواء في ردهة المستشفى الطويلة، أو في حجرة الانتظار بعبادة «مراد». وكانوا خليطا لا يجمعه شيء، معتمين ومطرشين وعراة الرؤوس، وحالقي الشعور تماما، وعدد من شباب الهيبز بشعورهم الطويلة وسوالفهم النسائية، وقد تأملتهم «ناهد» بنظرة يطل منها الاقتراس لم تدم إذ أدركها الفتور وخيبة الأمل سريعا.

وكانوا دوما قلقين يدخنون بشراهة وتتوهج أطراف لغائفهم حتى لتحدث فرقة خفيفة، والغريب أن نظراتهم كانت لا تستقر على شيء ولم تكن عيون أي منهم تلتقي بعيون غيره. إذ شغلت كلها بتأمل ديدان البهارسيا التي ملأت الحوائط في تشكيلات هندسية معقدة. وبدأ من تأملهم لها أنهم معجبون بها.

وفي مرات ليست كثيرة، جاءت نساء، سألن «مراد» أن يكتب لأزواجهن أدوية مقوية ومعيدة للشباب وباعثة على الحيوية. وقلن أن أزواجهن يخجلن من الذهاب إلى الطبيب وأنهن تفضلن أن يكون الدواء في شكل مسحوق حتى يسهل عليهن أن تدسنه في طعام أو في شراب دون أن تضطرن إلى الاعتراف لأزواجهن بأنهن لجأن للطبيب. وكان «مراد» يضحك في سره وهو يطلب منهن أن تصعدن إلى منضدة الكشف، حيث يتيح ليد فرصة ملاسة أجسادهن، ليقول لى في النهاية:

- تصور هذه الأجساد الجميلة... لو ظلت هكذا عطش، إن كارثة قومية في الطريق.

ويبدو أن توقعه كان صحيحا، إذ ظهر «الشيخ رضوان» فجأة ذات مساء، وأعلن أنه أنهى اعتكافه بعدما وصلته أنباء الوباء. وترحم على أيام الكوليرا والملاريا، واستعاذ بالله من شر النفوس السيئة، ومن كذب اللسان الذي دفع البعض إلى اتهامه بأنه عاد إلى ممارسة هوايته القديمة في



نهايتها أصغر الرجال وبعدها نتركها خراباً يبأباً وقد احترق فيها الحرث والنسل. ودعانا إلى أن نحزن مثله حزناً عميقاً لا حد له، وليكن حزننا جليلاً ككارثتنا، فنعيش الحياة بكل ثانية فيها لا نضن بشئ.. بيد أنه أكمل فكرته بتوضيح أكثر - عقب عودته من الداخل هو و«ناهد» - فقال:  
- هذا بالطبع إذا كنا ما نزال نملك القدرة على ذلك!

قطعت الحديث لالفت نظرهم إلى صورة غريبة وجدتها في جريدتى، وكانت الصورة لامرأة فيتنامية قُتلت إثر غارة، ويبدو أنها كانت تستحم فى جدول صغير تاركة طفلتها على شاطئه فأصابها الشظايا فى مقتل، وكانت الصورة لها وهى عارية تماماً، ميتة. والطفلة الصغيرة قد تحركت نحو جثتها بعد ما قرصها الجوع، فالتهمت حلمتها، وأخذت ترضع من ثديها الميت. وقلت لهم :

- ما رأيكم يا أصدقاء فى هذه الصورة المعبرة؟

قال «مراد» أن جسد المرأة نموذج أنثوى رائع، وأخرج نظارته الطبية لكى يتأكد من أن ما قاله مطابق للواقع. وتغزلت بشعرها الأسود الطويل، وكان مبللاً بالماء، يحيط بوجهها كشعار الحداد، بينما لفتت «ناهد» نظرنا إلى الشظية التى أصابت المرأة فى منتصف بطنها.. وقال «الشيخ رضوان» :

- هذا انتهاك لحرمة الموت. والصورة فوق هذا مثيرة للغرائز الدنيئة.. ضحكت «ناهد» ضحكة طويلة - وكانت تثرثر بكثرة، وتلك حالة نادرة - قالت :

- ولكن لا تنس يا مولانا أن الغرائز الدنيئة قد ماتت، وحتى لو كانت حية فإن ظهر المرأة لم يظهر!!!

وانفجرنا ضاحكين، حتى «الشيخ رضوان» نفسه قهقه مدارياً خجله. وقلت مغيراً الحديث.

- الحقيقة أن الرصاصة هى أوقع ما فى الصورة، ماتت الطفلة لاشك، ولم يحن الثدي عليها بقطرة لبن واحدة.

وقال «مراد» أن هذا سيحدث فى مدينتنا، وأن الوباء سيقضى علينا تماماً، وأنه يقدر لعمر المدينة ثلاثين عاماً أخرى، كحد أقصى، يموت فى



## اضغاث احلام

« .. أودعت قلبي إلى من ليس يحفظه .. أبصرت  
خلفي وما طالعت قدامي .. »

١

في الصباح شرعت في قتل «رمسيس الثاني» أخرجت مسدسي -  
«براوننج ٩ طلقات» - تأملت حجمة الدقيق. قبلته. سرت إلى شفتي  
رطوبته. مزدحماً كان الميدان. رجال معروقون صُفر الوجوه. جمعهم ينظر إلى  
موطن أقدامه. قلت : لعل قرشا ضاع، فمن يجده في هذا التزاحم؟  
وقفت «ليلي» على محطة الأتوبيس. أشارت إلى التمثال في وده.  
«سعاد» كانت معها. تعلقت عيناها بقمة التمثال العالية. ظلت مشدودة  
إليه.

قلت : سأضرب الرأس حتى يموت بطلقة واحدة. كان موظفو شركتنا  
ينتشرون كالذباب المنهك.. قلت أنهم سيشهدون ضدي في المحكمة. صوت  
المسدس. أطلقت رصاصاته التسع في تدافع مستمر. لم يحدث له شيء :

طاشت فى الهواء ثلاث رصاصات. توزع الباقى بين القاعدة وقدمه اليمنى.  
واحدة فقط أصابت وجهة الجرانيتى. أشار «رمسيس» إلى العمارة العالية.  
إقتريت منه. صحت.

- تريدنى أن أنتحر.. لن أفعل؟.. سأقتلك.. سأقتلك.

حرك قدمه اليمنى ليربها من الوقفة. حملنى. طار بى. علقنى فوق  
لافته فندق يشغل الطابقين الأخيرين من ناطحة سحاب تطل على الميدان.  
صرخت جزعا. تسلت ضحكات خلفى. قالت بنت جالسة فى تراس الفندق :  
- انزل يا شاطر... روح لأمك

.....  
.....

تقلبت فى فراشى. كانت قطتى تحوم حول إطار فوق «الكوميدينو»  
تششمه. أطلت على من خلاله ابتسامة «سعاد» الخائفة. تشابته. حملت  
فوطتى. توجهت إلى الحمام.

٢

فى الضحى.. قال صديقى «محمود» :

- شئ مرعب.. لم أتم دقيقة واحدة ليلة أمس.. صراخها أطار النوم  
من عينى.

- والطبيب ماذا قال؟.

- طلبته فى البيت فنفخ زعلانا. قلت إنها تصرخ.. ببرود قال : وما  
عساي أن أفعل؟. أى شئ يا دكتور أكاد أجن. قال: لدى مسئوليات جسام

فلا تضيع وقتى أعطها المسكن. فقد مفعوله يا دكتور. لا جديد لدى. ثم  
بحسم: لا تتصل بى بعد العاشرة، من حتى أن أنام.

- كلب.

- أكلنا لحما وتركنا عظاماً.. بعث ما أمامى وما ورائى.. عفش  
زواجنا كله..

- إصبر.

- التلفزيون والشلاجة.. والبيوتاجاز.. غرفة الصالون.. كل شئ:

- إصبر..

- حقا.. ولنفرض أننى لم أصبر.. فماذا سيحدث..

- لعل معجزة تحدث.

هربت ببصرى من النافذة.. كان التمثال واقفا بيتسم فى  
شماته. قلت:

- سأقتلك يا «رمسيس الكلب».. سأقتلك.

٣

عند الظهر خرجت من باب الشركة. ضحكت من عمق حنجرتى على  
نكته سمعتها. انحنيت أنقب عن القرش الضائع فى الأرض.. صرخ فى  
شرطى المرور. ابتلع اتساع الميدان التمثال. اقتريت منه. تأملت قاعدته.  
ملساء كانت. قلت : لو حاولت الصعود إليه فسأقع وتُدق رأسى. لو سلم  
حتى طائرة. لم أوقع فى دفتر الانصراف لثالث يوم. غدا سيستدعينى الما  
العام.. ينظر إلى بعينيه الجاحظتين.

.....

- يا أستاذ «صابر».. لك ثلاثة أيام لم توقع فى الدفتر وعندما سألوك سخرت منهم.. لا أحد بمنجى من العقاب.

تحين اللحظة الفاصلة. لهذا نعد العدة منذ أيام. أصرخ:

- أنت لست مديرا. أنت كلب. مرتشى ولص. بدل السفر ستة جنبيها فى الليلة. لماذا؟! تسافر إلى الاسكندرية لتصيف وتأخذ أجراً إضافياً وأنا انتحر فى عز الحر هنا، وتطلب منى أن أوقع فى دفتر الانصراف سفنخ على أبوك. وقع.

يبهت وجه المدير العام. ينتشر الاحمرار فى ملامحه المكتنزة. ينظر الى فى خوف :

- لا تزعل يا أستاذ «صابر» إهدأ أرجوك.

أخبط على المكتب بجمع يدي :

- إخرس.. ما لزوم هذه السكرتارية المهولة؟! ماذا يفعلون؟! يرتبون لك المواعيد الغرامية؟! صورتك ربع صفحة إعلان فى الثلاث جرائد. من تظن نفسك؟! «نيكسون»؟! أنت مجرد لص وضيق. وسأفضحك..

يخرج من وراء مكتبه.. يقترب منى.

- أرجوك يا أستاذ صابر.. عندي أولاد.. الله لا يفضحك..

جاء وقت تفجير القنبلة.. شيطان أنا وعهد الله.

- وليلى؟!!

- مجرد سكرتيرة والله العظيم..

زغدته ببدي.. اهتز توازنه.. كاد يقع.

- .. والسهرات الخاصة فى شقة العجوزة؟

- سهرات عمل والله..!

- وهل العمل رقص.. وويسكى.. وحشيش؟!!

- كذب والله العظيم كذب.. إشاعات المغرضين.

تحرك تاركاً مكانه.. حلت محله.. جلست خلف المكتب. المقعد

مريح.. والهواء رطب والضوء خافت..

مددت يدي. سحبت سيجاراً هافانياً من علبة أنيقة على

المكتب قلت:

- .. والاغراء بالعلاوات والمكافآت التشجيعية؟!!

- أطلب التحقيق العادل.. قدم المغرضون شكاوى متعددة. للرقابة

الإدارية ضدى، ولكن أوراقى سليمة.

- وبعد؟

- وحققوا معى أيضا فى الاتحاد الاشتراكى، وثبت أن أوراقى

سليمة.

ضحكت.. أخذت أقلم اظافرى بمقص طويل وجدته على سطح

المكتب.

عاد يقول :

- أوراقى سليمة.

خبطت على المكتب بعنف. وقلت :

- لكن ليلى دعت «سعاد» إلى شقة العجوزة يا وغد؟!!

- «سعاد» من؟!

- صاحبة أجمل صدر وأشهى شفتين!

نظر إلى بحيرة. قال مراوغا.

- لا أفهم!

وقفت.. اقتربت منه عندما رأى المقص فى يدي خاف.. صرخت :

تزايدت صرخاته. تهشمت زهرية ورد زجاجية فوق رأسه. مرق المقص فى يدي يمزق ملبسه الفاخرة.. وصل إلى هدفه رغم مقاومته الضارية.. وعندما فُتح الباب وتدفق الموظفون. كنت قد أتممت مهمتى. وهم يتدافعون نحوه.. خرجت متسللا، وضعت غنيمتى المبللة بالدم على مكتب «لبلى» بهدوء. ستفهم الإشارة وتعلم أن أوان اعتزالها القوادة قد حسان.

.....  
.....  
انطلقت صفارة عالية - تراحم البعض حولي.. اقتادنى الشرطى إلى كشك المرور فى الميدان.. قال الضابط :  
- ما هذا يا أستاذ.. كادت السيارة تدهمك.  
- كنت سرحانا.  
- فيم ؟  
- لا شيء.. أفكر..  
- ولكن التفكير ممنوع يا أستاذ ؟  
- كيف ؟  
- ممنوع لدينا فى إدارة المرور.. إ دفع الغرامة وإلا حبستك.

٤

جلست انتظر القطار على بوفيه المحطة.. طلبت شايا. أشعلت سيجارة.

- بل تتغابى يا متصاهى يا وضيع.. ألم تقل هذا الكلام؟ : عايز هذه البنت، من؟ الهابشة اللي هناك دى. «سعاد»؟ أبوه.. صدرها مهول، فكّرتنى بجين راسل.. ستأتين بها هذا الاسبوع يا «لبلى». حدث أم لم يحدث.

- لم أقل هذا الكلام.. وأوراقى سليمة.  
- لا تكذب.. وإلا ألقيت بك من النافذة..  
- حاضر ولكن لا تزعل..  
صحت وأنا ألوح بالمقص الحاد فى يدي :  
- وابتعد عن الأجراس.. لو حاولت الاستعانة بمدد من الخارج سأقتلك فوراً.

- بعدت.. لكن من نقل عنى هذا الكلام..  
- قوادتك خاطبت «سعاد» لتذهب إلى شقة العجوزة، بدعوة منك.  
- لم يحدث!  
- ألا تعلم أننى «وسعاد» خطيبين و سنتزوج فى الخريف!  
بُهِت. عدت إلى الالتفاف حوله فى حركة صامتة.. قال بتسليم :  
- ليكن.. ولكن كن عصريا.. أنت شاب وتفهم طبعاً. مجرد نزوة أنا آسف لم أكن أعلم أن «سعاد» لك. طيش شباب..  
صرخت..

- أتظن نفسك شاباً يا عجوز يا مخرف..  
هجمت عليه. أوقعتة على الأرض.. قاوم بشدة. خبطته على رأسه.  
صرخ مستغيثا. صحت :  
- أكنتم فمك وإلا قتلتك.. سأحولك إلى «أغا» كى تكف عن إدعاء الفحولة. سأخصيك يا كلب!

### هزرت رأسى منشدا

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيّعت أيامى  
أمنية ظفرت بها وروحى زمناً واليوم أحسبها أضغاث أحلام  
نظر القاضى إلى أوراقه. وقال:

- مجال أوراق المتهم إلى فضيلة المفتى..

قادونى إلى الخارج. انشدتهم وردّ التوبة الأخير :

أودعت قلبى إلى من ليس يحفظه أبصرت خلفى وما طالعت قدامى

.....

.....

انحنى الجرسون أمامى.. قال:

- هل تريد شيئاً.

- لا..

- رأيتك تشير.. ظننتك تطلبنى.

- كنت أكلم نفسى..

- هذا وباء منتشر هذه الأيام.. كان الله فى العون.

- قهوة.. قهوة سادة من فضلك..

وصل قطار الى رصيف ٣. تدافع عدد من الركاب. اشتد الزحام. حسوت

القهوة الباردة مرة واحدة.

.....

.....

انشق الزحام فجأة عن رجل يجرى. لم ينتبه أحد فى البداية إلى

صراخه. أخذ يلف فى فناء المحطة. تميزت صرخاته.

### قال القاضى :

- يا «صابر».. لماذا أحدثت بالمدير العام الإصابات المبيّنة بتقرير  
الطبيب الشرعى؟

- لكى يسود العدل يا أفندم..

ابتسم القاضى. عوج طربوشه على الجانب الأيمن. قال :

- إعقل وأجب.. أحسن لك.

- هذا هو العدل.. طلب منى هاتف فى المنام أن أحقق العدل على

الأرض.

ضجّت القاعة بالضحك والهمهمة. صحت.

- إصمتوا أيها الناطقون بالدنيه المقترفون للخطيئة الصامتون على

الإثم..

دقّ القاضى بمطرقتة على المنصة. قال :

- أنت تهين الشهود.

- ولكنهم فرسيون.

- شهد الجميع بأن المدير العام كان حسن السير والسلوك. يصلى

خمس مرات يومياً. ويصوم رمضان. ويتلو ورد التوبة قبل النوم. ويزور

الكنيسة يوم الأحد فيعترف بين يدي أبونا «لوقا»..

- قلت أنهم فرسيون!

- ويدل ملفه السرى فى الوزارة. وفى كل الجهات التى تحتفظ بملفات

سرية على أنه كان رجلاً قاضلاً تقياً ورعاً.

- قلت إنهم فرسيون

دقّ القاضى على المنصة. وصاح :

- ولكنه كان صديقى.



قال العسكري يتوسل :

- صح يا أخويا.. صح..

- صدق أم لا؟

- صدق يا أخويا صدق.. لكن تعال..

- لا تقترب مني.. أمامي أنت وكل الناس إلى القسم. أنت عارف كل شيء. قل لهم أن تهمة الحشيش مزورة، وأنه هو الذي دسها على.. وهو الذي أجبرني على تطليقها، ولهف القيراط بتراب الفلوس.

- حاضر.. تعال.. تعال معي.. الحق على.. أنا أرحتك ولم أضع الكلبشات في يديك.. يكون هذا جزائي؟

شق شرطيان الزحام.. لمحهما «بيومي».. جرى بعيدا.. حصراه في ركن من أركان الميدان دارت عيناه في محجرهما. نظر إلينا نظرة متوسلة.. سكت الجميع. وهم يقودونه إلى الخارج كان يبكي بصوت مرتفع. نظر إلينا أخيرا نظرة عاتبة.. ومضى.

.....

.....

- يا أستاذ.. أستاذ..

- قمت متثاقلا.. قال الجرسون:

- نمت في مكانك.. خشيت أن يفوتك القطار؟. إلى أين تسافر؟

- إلى.. إلى..

- طنطا أم الاسكندرية؟

- بلاد «واق الواق».

- نظر إلى بيلادة.. مضى..

.....

.....

- أنا مش مجنون.. والله العظيم مش مجنون.

جلبابه ريفي ممزق. حافى القدمين تورمهما محاط بأريطة مهلهلة.

اندفع شرطى ريفي هزيل الجسم.. جرى خلفه. صرخ الشرطى.

- حَلِّق يا جدع إنت وهو. إمسك هذا المجنون.

وقف الناس يتفرجون. تجمعت شلة من الرجال والنساء. أخذت تسمع

صراخ الرجل :

- يا عالم وكتاب الله أنا عاقل.. والله العظيم عاقل..

صرخ العسكري :

- على ماذا تتفرجون.. سيهرب وأروح أنا في داهية.. حَلِّق يا

جدع.. أين عساكر المحطة؟

جرى خلفه.. انتقلت المطاردة إلى الساحة الخارجية للمحطة. تجمع

المتفرجون. جرى كثيرون ليجدوا لأنفسهم مكانا. أخذت أدفع من أمامي

لكى أجد لنفسى مكانا فى الصف الأول. عاد الرجل بصرخ :

- قعدت بالمستشفى ستين.. هريت.. رجعت البلد. بَلِّغ عنى.. يا

عالم المجدونى.. والله أنا عاقل.. النهاردة السبت.. وإحنا فى شهر بؤونة..

والجمعة سبع أيام. والسما سبع طوابق.. وأعرف «نيكسون» و «موشى

ديان» كمان.

جلس العسكري لاهثا على الأرض.. قال متوسلا :

- يا «بيومي» حرام عليك.. أنا سأروح فى داهية بسببك.. عندى

أولاد فلا تخرب بيتى.. تعال.. تعال..

أخرج «بيومي» من جيب جلبابه سكيننا طويلا. تراجع رجلان كانا

يهمان بالتدخل صرخ.

- أنا عاقل «يا أمباشى فرج».. الكلام الذى قلته صح أم لا؟.

فى المساء تحدثت حبيبتى طويلا عن الحب والحرية.. كان رأسها محشوا بخليط من التعبيرات التليفزيونية والفلسفية.. ابتسم الجرسون ابتسامة لزجة.. قال

- تريدان شمسية؟

رفضت بتمتمة غير مفهومة. عاد يلح..

- كى تكونا بأمن من التطفل.

صرخت فيه :

- إمش.. أغرب عن وجهى.. كلب..

نظر إلى خائفا. مضى. جاء المترودوتيل بالطلبات. اختفى الآخر.

علقت حبيبتى على الحادث بتقنقات أفكار. سرحت طويلا

.....

.....

جاء «بيومى».. انحنى أمامى. قبل أقدامى. صاح

- أنت تعرف كل شىء.. فهل تشهد معى.

- طبعاً... ولكن أين؟

- لا أدرى. أكتب شكوى الآن.

- لضابط النقطة؟؟

- كتبت له واحدة.. مزقتها ورماتها فى وجهى. قال : مجنون

وأين.....»

- .. والمأمور؟

- دخلت له قال : أمعقول أن يخطف سيادته امرأة من رجل متشف  
مثلك؟.

- لمن إذن؟

- فكر أنت؟!

.....

.....

قالت حبيبتى:-

- أفكر فى ماذا؟.

عدت من جولتى منهكا. صرخ «بيومى» : انتظر لحظة. تركته. امرأة متصابية تجلس على المنضدة المجاورة ومعها فتاة صغيرة.. أظنان أصباغ على وجه المرأة وفى فمها سيجارة. الفتاة قلقة مرتبكة. قلت :

- فى لا شىء

قالت حبيبتى :

- «صابر».. أحوالك غريبة هذه الأيام.. لعل أعصابك مضطربة..

- وآية ذلك أنتى أحلم أحلاما غريبة!

- مثل؟

- رصاص وينادق ومقصات. تمثال ضخم ودماغ.. «بيومى» يصرخ وما  
من سميع.

- من «بيومى»؟.

- صديق من أصدقاء الطفولة بالقرية.

- وأين هو الآن؟.

- فى مستشفى الأمراض العقلية بالخانكة.

- يا حفيظ..

- وأمس ركبت حصانا أشهب، وسرت فى الشوارع أتهدى والناس تهتف بأسمى..

- أحلامك طريفة..

جاء رجل أكرش. استقبلته العجوز المتصابية باسمه.. ارتبكت البنت الصغيرة..

قالت «سعاد» :

- مررت على النجار أمس. قال أن ثمن القشرة زاد عما اتفقنا عليه وطلب مائة جنيه زيادة.

- لص.

- نعم.. ولكن ما العمل؟

- ملعون أبو القشرة.

- لا قيمة للموبيليا بدونها.

- ملعون أبوها فى الأرض.

انكسف وجهها. حَبَّتْ لمعتة. شعرها حريرى طويل. صدرها أمرى وافر الدسامة. بدا من شق الثوب بعض فيضانه. أباحتها ليدى المتلصصة أكثر من مرّة.. تسرب منه دفء منتشر. صحت يومها: «زملونى .. دثرونى». ضحكت وقيلت ظاهر كفى وكانتا تعصران رمانتيها.

قالت : أنت عصبى جدا الليلة. ماذا حدث..

- لا شئ.

بدفقة حنان مفاجئة، قالت : «صابر» لا تُخَفِ عني شيئا.

أخجلتني حنانها. قلت : لا شئ..

- لم تعد تهتم بعشنا. لعنت الموبيليات وغدا تلعننى.

- غير معقول. لكنى مرهق..

قالت :

- رأيت تصميمًا جميلًا لركن الانتزيع.. سأريكه غدا.. ما رأيك؟

- نعم؟

- أنت سرحان.. أسالك: أين نضع التلفزيون؟

نفختُ بصوت مرتفع :

- لا أمل، يريد النجار مائة جنيه.. من أين نأتى بكل هذا؟

- كلمت «لبلى» اليوم. قدمت طلب سلفة. وعدتني بالتوصية عليها

لدى المدير العام..

قلت أن الورقة التى قَدَّمتها لا بد قد تلوّثت بالدم الذى سال حين

وضعت غنيمتى على لوح الزجاج وهى تقطر دما.

قمت فجأة.. تركت المكان.. مررت وأنا خارج بالمنضدة المجاورة..

كانت المرأة المتصابية تهمس للرجل :

- .. وهى عروس فى شهر العسل كما طلبت.

٦

«السيد المحترم صابر سويلم

تحية طيبة وبعد..

نظرا لتغيبكم عن العمل لمدة خمسة عشر يوما متواصلة دون إخطار

فقد تقرر فصلكم من الخدمة اعتبارا من تاريخه.. تطبيقا للمادة ٣٤ من

القانون..

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.»

«المدير العام»

- كيف أهدأ.. ذُبلت.. ذابت، في عينيها نظرة معذبة. لوى الألم شفتيها وكانتا جميلتين كحلْم.. فقدتُ كل شيء.. تقتلني بالعذاب كل يوم مائة مرة. ينشر صراخها جسدي، يبدأ بأعلى الجمجمة، ينثنى المنشار مرة ومرتين.. ثم يمر في العظام الطرية.. يمر بطيئا جدا.. يمر.. طوال الليل والنهار..

صمت لحظة قال:

- أمس كان عيد زواجنا الأول..
- إصبر يا «محمود»..
- حق.. ولنفرض أنني لم أصبر.. فماذا سيحدث؟
- لعل معجزة تحدث.
- معجزة... تفوه على المعجزات

٩

في الركن كانت «سعاد» تقف مع «ليلي».. كانتا تتضحكان بشدة...

١٠

.....  
.....  
في عز الظهر، بدأت مهمتي، ألقىت سلم الجبال على قمة تمثال رمسيس الثاني. شبكت مقدمة السلم في رأسه. بدأت أصدع إلى القمة. ارتفعت. علوت. انهكتي الصعود.  
قلت : لا بد أن أصدع. صعدتُ. في النهاية جلست فوق كتفيه.. أحطت رقبتة بساقي. أخرجت الدُّمَاق من جيبِي. بدأت أدق.. وأدق.

٧

«إلى مولانا وسيدنا الإمام الشافعي رضى الله عنه وأرضاه. بمقامه الكريم بمصر المحروسة.

.. يا ملاذ العدل.. يا قاضي الشريعة..

سُقت عليك حبيبي وحبيبيك رسول الله وآل بيته الكرام. وحلفتك بالحسين الشهيد وأم هاشم الطاهرة. أن تأخذ لى حقي من المجرمين. سرقوا الحُرمة زوجتي وقبراط أرض كان عندي واتهموني بالباطل والزور، ورموني بمستشفى المجانين.. وغلاوتك عندي يا قاضي الشريعة أنا عاقل.. والحُرمة عايزاني.. وأنا عايزها.. العدل يا قاضي الشريعة... العدل....

خادمكم ومحبيكم إلى يوم القيامة

بيومي عبد الصمد

من كفر الشرفا - قلوبية

ملحوظة : أنا الآن بباب مقامكم الشريف. أنتظر كراماتك يا حبيبي يا قاضي الشريعة ليعود الحق إلى أهله، ويلقى الظالمون جزاءهم.. مدد .. مدد... ماداد..

٨

قال صديقي «محمود»

- لا فائدة.. يوما سأقتلها لا تخلص من العذاب!

- إهدأ يا «محمود»..

بصوت مختنق قال :

... طارت شظية من التمثال كادت تصيب عيني. عدت أدق. كان الازميل صغيرا ولكنني عدت أدق.. نظرتُ من عل.. كان الناس صفارا، رؤوسهم محينية. قلت أن القرش مازال تائها. تنبه واحد. صاح من أسفل. لم أسمع، لَوْح بيده مهدداً.. صحت :

- اسكت

...

- اسكت

تجمع الناس.. ازدحم الميدان.. صعد الشرطي على السلم.. ظل

يصعد ويصعد.. صاح :

- انزل يا مجنون..

- انزل أنت وإلا قتلتك

رفعت الدماق.. هممت أن أقذفه في رأسه. في اللحظة التالية صرخ

صرخة مهولة. تهاوى ساقطا على الأرض.. عجبت. كان «بيومي» يصعد سريعا على السلم. قال :

- غرمت السكين في ظهره.

فرحت جدا.. سألته عن حاله. قال : وقفت بباب قاضي الشريعة حتى

جاءتني الإشارة. قلت : التمثال صلب جدا.. أين أدواتك؟ قال : ليس معي شيء. ولكن أسناني كالحديد.

عض جزءا من الذراع. أكلها بتلذذ. عض جزءا آخر.. وثالث... تجمع

الناس في الميدان. ضحكت.. قالوا شيئا، صرخ «بيومي».....

- اسكتوا أيها الفرسيون.

- انزل يا مجنون أنت وهو.

صرخ :

- حَكِّم قاضي الشريعة... ولا بد من تنفيذ الحكم..

صعدت أقدام متعددة على الحبل.. قال صوت :

- يا «صابر» .. أنا «محمود».. قتلتها واسترحت..

قلت : تعجلت يا غبي..

تعددت الأقدام الصاعدة على الحبل.. قال «بيومي» :

- سأقرضه بأسناني. حتى لا يصعد الأمباشي فرج.

قلت : أنتظر لحظة

كان الصاعدون قد توقفوا.. بدأوا يدقون التمثال بعنف شديد.. صاح

واحد توقفوا.. نصبنا المدافع وسنطلق النار عليهم. دوت الطلقات عنيفة..

فاهتز لدورها الميدان.

.....

.....

فتحت عيني، كانت قطتي واقفة في ركن الحجره... ويجوارها إطار

لصورة كانت على الكوميدينو.. وقفت تنظر إليه بخجل. قمت. نظرت إلى

القطعة نظرة خائفة. جرت بأقصى سرعة.. رفعت الإطار. كان زجاجة قد

تشقق. مسحت عليه. أطلت ابتسامة «سعاد» المنكسرة منه.



## بيان مشترك ضد الزمن

وهل تستطيع أن تضمن لى إذا مت شهيداً ..  
ألا يعتبرنى التاريخ مهرجاً .

إيقاعات ذات رنين مفجع

١

(تدحرجت حبات المطر على زجاج النافذة. لمعت فى ضوء المصباح فاجتذبت بصرى الذى كان قد غاب تماماً فى توهج المدفأة. تابعت أذنى بصعوبة نقرات الماء على سطح الزجاج متوافقاً - فى إيقاع حنون - مع تنفسها البطئ. ها نحن فى جزيرة من الدفء كما حملنا مرة. فمن كان شريكى فى الحلم؟. هى؟... ربما. ولعله واحد من أصدقاء العمر العديدين. ولكن القلق عليها يفسد كل شئ. وستكون جباناً حقاً إذا تجاهلت بحر العواصف الذى يحيط بجزيرتك. ولكن من حقنا أن ننعم بشيخوخة دافئة. ونغز الروماتيزم لمفاصلك أسوأ أقدار الحياة. وتذكر أن «سعد زغلول» كان قائد ثورة، وخطيباً كالبحر الهادر وهو فى الستين، ولكننا بالكاد نقدر على المشى إلى مقهى «الحرية» بباب اللوق، حيث يحتضن القلب ذكريات الزمان الخالى. هنا كانت مدرسة الحقوق ومبنى الجامعة القديم وقصر البستان، هنا

تلتقى بمن بقي من أصدقاء الزمان الأول، نتكلم ونثرثر ونترحم على عشرة  
الماضى الجميل. ويتشاجر «منصور» مع «عبد الحميد» ، ويتهمه بقرص  
الزهر، ويستشهدان بك فينتزعاك من لحظة سارحة فى زفاف «السلطان  
فؤاد». أو فى جنازة «ويصا واصف»، بيد أننا نسبنا الكثير. كانت الذاكرة  
فيما مضى من سنوات العمر محتفظ بكل كلمة أو نامة، ولكنها تآكلت كما  
تآكلت الأسنان، وصعب التذكر كما ضاق التنفس، فألف رحمة على أيام  
الصبا الأول. وتفكيرك فى فقدتها يورثك الجنون. كيف تخلو هذه الشقة غداً  
من أنفاسها ومن صوتها، وقد عاشت معك ثلاثين عاما طويلة، ولن تجد -  
بعدها - إنسانا تستطيع أن تزعم أنه يحفظ كل تفاصيلك ويحفظ كل  
تفاصيله. معها تكون حرا تماما، تضحك كمنجنون وتغضب كطفل، تبكى  
وتغنى، وتقول كل ما يعن لك دون مراجعة. أه متى ينتهى هذا الكابوس؟  
كانت دائما قوية، ولولا تقلصات الولادة ما شاهدت لحظة ألم على ملامحها  
الهادئة. وترف على شفيتها وهى نائمة بسمة صغيرة، فتذكر أنك لم ترها  
أبدأ وهى نائمة. فى أى وقت، أعود كنت أجدها ساهرة فى انتظارى، عيونها  
الوسنانة تتفجر بحبوية دافقة، فكيف تهاوى هذا البناء الشامخ فى لحظة  
واحدة؟. «الزمن» هذا ما قاله الطبيب فألف لعنة عليهما معا. نظر إلى  
نظرة مهنية وقال «القلب» لحظتها وددت لو قذفت به من النافذة. بلا مبالاة  
يتكلم كأننا نتحدث عن كلب ضال فى الطريق. شككت فيما وصف من  
أدوية وراجعت معلوماتى التى هشمها الزمان، قال :

- حضرتك طبيب؟

قلت قبل أن الحظ ابتسامته الساخرة :

- بل مريض قديم، وفوق هذا فقد درست الطب لعدة سنوات!

زام بكلام غير مفهوم ولم يطمئن قلبى، إلا بعد عرض الأمر على  
صديق من أطباء المقهى، فأقر ما وصف من العلاج.

ولتعترف بأنك استرحت إليه قليلا بعد ذلك، فقد تقدمت صحتها

يوما بعد آخر، وكاشفته بخوفك عليها فدهش قليلا، ولكنه زام كالعادة،  
وطمأنك بكلمات كاعلانات التليفزيون .. ضخمة ولكنها رخيصة. لم يعد  
فى رأسها شعرة واحدة إلا وأبيض لونها. فهل تذكر متى رأيت بشائر الغزو؟  
كان ذلك فى حجرة المأمور بسجن الأجانب. احتضنت قدها الصغير بشوق  
نصف عام من الغياب، وتنهدت كل خلاياها بين ذراعى. وأنا أقبل مفروق  
شعرها، رأيت أول الشعرات البيض. ساعتها أدار الضابط وجهه عنا،  
وحمدت له هذا الموقف. كانت دائما خجولة، ترفض أن تبتذل عواطفها أو  
تعرضها على الآخرين، فماذا كان إسم ذلك الضابط : «محمد» أو  
«محمود»؟. ربما لم يكن هذا أو ذاك. يؤلمنى العجز عن التذكر. وكم ناشدت  
الأيام لحظة نسيان. بيد أن ملامح الرجل لم تكن سهلة النسيان. تابعت  
أخباره لسنوات فى تنقلات البوليس. ويوما لقبته وحيدا على منصة بار  
هادئ شأن الذى يستخفى. ذكرتى بنفسه، ودعانى لشراب فقبلت، لعل الخمر  
تتسببى ما حملته له من بغض طويل. قال : نسيتنا طبعاً؟.. أتستغرب  
ملايسى المدنية؟ آخر خدمة الغر علفة... استغفوا عنى فى التطهير.

عزيت بكلمات أجهدى الحصول عليها، فأردف :

- مبروك.. باضت لكم فى القفص.. هذه أيامكم، أما نحن فقد  
راحت علينا.

قلت بمشروع ابتسامه.

- على العموم تشكر.

- كيف حال الأصدقاء؟. ستعرضون بالطبع عما لقيتم من إهانات،  
قرأت ذلك فى الصحف.

ومضى، فضحكت بأسى وقلت أنه كان شريرا كالأخرين، وكان فى  
الجيل وحشا بكل معنى الكلمة، ولكن قلبى لا يطاوعنى على التشفى فيه.  
وإذا كانت قد باضت حقا فمن الذى أكل بيضتها؟.

توقف المطر فى الخارج وحركت رأسها. فتحت عينيها وظلت لحظة

صامته ثم قالت :

- لماذا أنت ساهر حتى الآن؟

- أنت بخير؟

- طبعاً.. ولكن عليك أن تنام. تعال هنا.

افسحت لى مكانا بجوارها على السرير، وأحكمت الغطاء حولي،  
وشعرت بدفء جسدها، وكنت بين اليقظة والنوم عندما قال صوتها:

- هل ليست الجورب الصوفى؟!

\*\*\*

رفع الطبيب السماعه، وابتسم ابتسامته المهنيّة وقال :

- عال. دقات القلب منتظمة، والضغط لا بأس به، وفى المرة القادمة  
ستأتين على أقدامك إلى عيادتي.

قال صوتها الضعيف وهى تعيد ترتيب ملابسها :

- حقا يا دكتور، أستطيع أن أمشى؟!

هزّ رأسه بثقة مفتعلة :

- بل أنت فى حاجة إلى التريض.. ولكن رفقا بنفسك.

ساعدتها «أحلام» على الجلوس، ناولته جهاز الضغط فرمقها بنظرة  
ذكرية لم تعجبني. فى انتظار الشاى جلس يكتب تذكّره الطبيّة. يبدو أقل  
من الأربعين، ولكن الصلح التهم ملامح الشباب فى وجهه، تأمل أُنث  
الحجرة القديم، واللعبة الكبيرة التى تتدلى من سقفها قال:

- اطمئن. اجتازت الأزمة بسلام.

ثم ضاحكا :

- أنت تحبها أكثر مما يجب.

- عشرة العمر يادكتور... أربعون عاما تقريبا.

ناولنى التذكرة ، قال :

- كنت أظن أن تقدم العمر وقدم الزواج كفيلان ب... ب.....

وفرت عليه اللجلجة :

- لا.. هذا غير صحيح.

وضعت «أحلام» الشاى على المنضدة. تأملت صباها النظر بنظرة  
مشوقة، أما هو فقد عاد يتحسسها بنظرة ذكرية، قلت أن صلته تحتاج إلى  
«بيريّه» يحميها من البرد كما يفعل «عبد الحميد». قال بفضول :

- ابتك؟

- تقريبا.. ابنة الجيران.. ولكننى فى مكان والدها.

زام مرة ثانية. استلقت عينيه على صورة لى فى إطار أنيق، فتأملها  
لحظة، وبدا متردداً.. ثم هرب إلى جراففون قديم.. ولاحظ بوقه الكبير فسأل  
عنه. وهربت عيناه منى إلى الصورة. قلت أن عينيه لوزتين.. أما لونهما  
فمن الصعب أن أميزه. وهنّ العظم وضعف البصر واشتعل الرأس شيبا.  
ويوم خرج «سعد زغلول» يتوكأ على عصاه، ويلف عنقه بشمّته الصوفية  
حذر البرد، بُع صوتى من الهتاف ولكن الارتعاش شمل كل شىء. لم يعد لنا  
صوت محدود بين الأصوات. ولعلك تذكر أول تجريرة جنسية لاهثة مع  
«إجلال» فى حقل الذرة. كانت سريعة ومتوترة وبلا لذة. ولكن ذكرى آخر  
مرة قد ضاعت من الذاكرة. خدمت جذوة الحياة ولا أمل فى استردادها. ما  
الذى يجذبه فى الصورة؟ لعله الصبا المتفتح فيها. أه. غدا سيقارن  
شيخوخته بصور صباه، فبتفتت القلب حشرات. قال:

- لا تؤاخذنى.. هل كنت تعرف الدكتور «محمود محرم»؟.

لا فائدة، تحتفظ الذاكرة بالكثير، ولكنها تصدأ عند السؤال، ولا  
بأس من مجاملته بمحاولة التذكر. سيدلى طبعاً ببيانات إضافية ليساعدك  
فى محاولتك البائسة. وكم عدد الأشخاص الذين عرفناهم بإسم

«محمود»؟. مطالعة الحياة سبعين عاما متصلة شيء مرهق على كل حال... ورغم كل ما قدم من توضيحات فلا مفر من إعلان اليأس، ورفع الراية البيضاء، اعتذرت بضعف الذاكرة. قال :

- إنه أبى، وقد رأيت صورتك تلك معلقة في صالون منزلنا القديم.  
خفق قلبي للذكرى، وتساءلت بلهفة :

- وهل مازالت كذلك حتى الآن؟

ابتسم بخجل :

- ظلت سنوات بعد وفاته، فقد دافعت أُمى عن الترتيب الذى تركه لأثاث البيت. ولكن زوجتى تزعم أن ديكور المنزل الحديث ينفر من صور الأشخاص، وسألتنى عن علاقتك بأسرتنا فقلت أنك صديق لأبى، فهكذا كنت أظن، وأخيرا اضطرت إلى رفعها، ولا أدري أين هي الآن؟.

ضحكت بأسى وقلت مهونا :

- مع أحد باعة الروبايكيا بلا جدال، ولكنى أشكر للوالدين اهتمامهما.

رشف ثمالة كوية.. وقال :

- ولكنك لم تكن تعرف أبى كما تقول، وأظن أنه قد تحدث عنك مرة ولكن نسيت التفاصيل..

قلت أنه ليس وحده الذى نسى، ولعلنى أنا نفسى قد نسيت، ما قيمة أى شيء، وما أهمية أن تتحقق كل أحلامك فى وقت لم يعد أمامك فيه إلا انتظار الموت. ضحينا بملذات حقيقية فى الحياة.. ولكن الزمن بلا ذاكرة، لذلك كرهتُ كتب التاريخ، كما كرهت الراديو والصحف ، أما التلفزيون فلر توقعت اكتشافه فى الزمن الخالى لالتحقت بسيرك «الحلوة» فضمنت ظهورا ثابتا على شاشته، وها هو شعور بالحجل يلفنى لأننى مضطر لأن أقدم له نفسى، قلت :

- هذه صورة منقولة من غلاف مجلة (اللطف المصورة). ولعل أباك قد بروزها لأسباب قامت لديه.

أجهد نفسه ثم قال :

- بالى من نساء كبير... تذكرت الآن... أظن أنك كنت متهما فى قضية ما.. سياسية فى الغالب.

- فى الغالب؟!

قال بحرج :

- أقصد أنك...

قلت بدفعة :

- أؤكد لك أنتى لم أكن أحد أفراد عصابة «ريا وسكينة»..

اعتذر بكلمات متلاحقة. ندمت على غضبى. وهو يبدو سمينا ومتكورا شأن الذين يتغذون بالحياة، ولعلنى لو اتبعت طريقه لالتقيت به تحت رئاستى فى أى مستشفى.. واستئناف الحوار معه يبدو مشكلة. ولكن السكن فى هذا الحى الأثرى لم يعد مشكلة. لم تعد عليه عوادى الزمن كما عدت على طرقات المدينة. وأحمد الله على أنك وجدت من يذكرك فى هذا العالم. وهو على أى الأحوال معذور. لم يعد أحد يذكركنا... فهل ضاع العمر هدرا؟. ولكننا لم نكن نفكر كذلك فى الزمن الخالى.. فهل شاخ ما فى رؤوسنا كما شاب الشعر وتساقط أكثره.

قلت مُطِيبًا خاطره :

- أكان والدك طبيبا؟.

هز رأسه موافقا.. قلت

- لعلنا أبناء دفعة واحدة، فقد درست الطب ثلاث سنوات حوالى سنة

١٩٣.

قال كأنه حل معضلة

جاءت الحلبة، فألف رحمة لأيام الشاي والقهوة والسجائر والبييرة «الستاوت» الأصلية. ومرة فكرت وأنا في الزنزانة أن أعد قائمة بالمتنوعات فوجدتها أكثر من أن تحصى: المقعد والمرأة والساعة والثقاب والخزام والصحف وآلات الحلاقة.. ويوما طمحت إلى التأليف، فإذا عاودنى الطموح فسأكتب مقالاً عن المتنوعات في حياتي - فكرة طريفة تصلح لصفح هذه الأيام التي يحررها القوادون. وها هي «فوزية» قد عادت إلى حالتها قبل المرض. فلتحمد الله على أنها استردت عافيتها. وهي لا تكف عن تأمل الأطفال في الشوارع. كان الزمان جلفاً: التهم إنكما الأول وهو في السابعة، ولد وغنا، ومات دون أن يعرفك أو تعرفه جيداً. يومها رأيت عينيها عبر الأسلاك باكيتين، وتوسلت للضابط الجبان أن يسمح لك بلقائهما دون أسلاك فأبى واحتج بالتعليمات. رجوت كطفل، ولكن رأسه كانت أصلب من أحجار الجبل. صغيرة القد كما كانت دائماً، ولكن السمنة تراكمت عليها ففقدت رشاقة الصبا والتفاف الأثنى الناضجة. وهذا الاكليل الأبيض على رأسها لم يفقد نعومته ولا استرساله، وتذكر كم دفنت رأسك بين تلابيفه في سود الليالي. وكانت تدبّ بقدمين خفيفتين على أرض شارع «الخليج المصري»، من بيتها في «الحلمية الجديدة» إلى مدرسة «سان فان دي بول». وزيتها المدرسي الخفيف الزرقة، يوحى بأنها تتلفح بقطعة من سماء يوم شتوي بلا غيوم، وتابعتها عينك الشابتان، وكان الزمن ضيقاً والحصار شديداً، ولكنك اكتشفت جبرتكما، وحفزت أمي من طرف خفي إلى دعوتها وأمها في أيام «المقابلة»، واستطاع القلب أن يعرفها ويحفظ كل تفاصيلها، كما استطاعت الأذن أن تسمع إيقاع صوتها الحنون وهي تغني «بمامة.. بيضا».

شهقت لأن طفلاً اندفع وراء كرتة فكادت السيارة أن تدهمه، وتشنجت يدها على حديد الشرفة ثم انحطت على المقعد لاهثة بعد اطمئنانها على الطفل. قلت :

- هذه الانفعالات لاداعي لها. وأخرتها معك؟.

- صح.. كان أبى طبيب امتياز سنة ١٩٣٦ فمتى انهيت دراستك!.

- لم أُنهها حتى اليوم. زج بي «صدقني باشا» في السجن لأنني حاولت اغتياله. فلم أغادره إلا بعد عشر سنوات..

رفع رأسه دهشاً وقال :

- تذكرت الآن كل شيء.. ولكنني لا أصدق أنك اطلقت الرصاص حقاً؟.

تنهدت براحة ولم أرد. تحدث قليلاً.. قلت أنني أبدو شيخاً طبيباً لا يتصور الإنسان أنه فكر في القتل، قال وهو ينصرف :

- يا أستاذ «سليمان». نحن سميان، وأظن أن أبى قد اختار لي إسمك، ولكنه حرص على ألا يكون لي مصيرك..

ابتسمت بمرارة.. وصافحته ببرود.

\*\*\*

ونحن في الشرفة انعكست شمس الضحى على ملامحها الهادئة. خدمت نظراتها وضعف بصرها فيما ضعف من حواس. كانت عيناها تحسنان التكلم فيما مضى من أزمان. وفي ضجيج الزيارة في السجن حيث تختلط الأصوات العالية كانت عيناها تخترقان الأسلاك وتعبيران فوق خطوات الحراس، إذ ذاك كانت شحنت من الأمل تنفذ إلى صدري، ويظل وجهها الأبيض نابضاً في خيالي بحيوته أياما، رغم ثقل السلاسل الحديدية وصلابة أحجار الجبل. وفي الحارة المجاورة مات واحد أمس فحزنت عليه كأنه وليدك، واجتررت اليأس ساعات طويلة. وها هو النواح يهد أعصابك هدأً. ذكرت الطبيب وحكايته، فابتسمت عن طقم أسنان لامع وقالت :

- سيدك ككثيرون، ولعلك لا تذكر أباه؟.

- لا أذكره، ولكن هذا شيء بلا معنى.. وقد تفزرت لأنه يحمل أسمى فهو سمين كالبقعة الجبلى.. ولعله هنأ نفسه لأنه نحاشى مصري..



تتهدت بأسى.. وأطبقت رواية فرنسية كانت تقرأها وقالت :

- الناس يرمون لحمهم فى الطريق، فسدت الدنيا (وبرئة نائحة) لا يعرف غلاوة الأطفال إلا من رزى بالشكل.

كان قلبك يتمزق بساطور جزار، جاء الأولاد تباعاً بعد خروجك من السجن، وما كادوا يُزهرون حتى اختطفتهم الأمراض. وتذكر سنة الكوليرا اللعينة، ضاعت «صفية» و«سعد» فى شهر واحد، وعانيت الاحساس المرّ بالفشل، وقلت أنك صيد سهل لمطارق الزمن، وسألت الإله حائراً: لماذا يترصدك؟! وخيا حماسك الذى لم تزعه مرارة السجن. نسيتنا كثيراً من الأفراح... فمتى تغادر الأحزان الذاكرة؟

لم يغادر المكان شئ سوى الشمس التى توارت فجأة مع رذاذ ماء. رفعت «فوزية» رأسها وردت التحية على صوت فى الشرفة العليا. لم أسمع المتكلم. وهنّ السمع كما وهنّ كل شئ. قالت :

- أحلام تُصَبِّح عليك.

رفعت وجهي فالتقى بوجهها النضر، مشرقة كشمس اليوم، عقصت شعرها فى مندبل رقيق الألوان. كومت الملاءة التى كانت تنشرها قالت :

- كيف أنت يا عمى...؟ لا حل لكى لا أحرمك من الشمس إلا أن أنشر هذه البلوى عندكم.

بعد لحظات كانت واقفة تنشر ملاءتها. تأملتها «فوزية» بعين محبة.. وفتت أنها تحبها بشكل غريب، لو عاشت «صفية» لكانت فى مثل سنّها الآن أو أكبر قليلاً. قالت وهى تتناول مشبكاً :

- هل سمعتم الأبناء؟ قال الراديو الآن أنهم أغاروا على حلوان. أثار كلامها اهتماماً حاداً فى صدرنا. خرج صوتانا فى وقت واحد يسألان عن التفاصيل :

- هربت الطائرات، وسقط منزلان.

مصصتُ فى أسف، ولكنها مضت معلقة على الخبر. قلت أن تفكيرها أكبر من سنّها بكثير، وقد عادت الغارات ولكن أين القوة التى ترد المغيرين. لم تمنعك سنوات السجن من أن تخرج فى سرحات ليلية لاصطياد الجنود الإنجليز فى الطريق. كانت أفضل الليالى محصولاً عندما يعم ظلام الغارات. ولكنك لم تشهد فرحة الجلاء عن القاهرة، لأن الحزن كان يفتت قلبك على «صفية» و«سعد»، أما هذه البنت فهى ثرثرة شأن الصغار وقد عرفت عنك كل شئ، بحكم الجيرة الطويلة، وها هى تشق طريقها فى دراسة الطب بمهارة تحسد عليها. شهدتها طفلة، وعالجتها خبرتى القليلة من المفص والنزلات المعوية، ولكنها ككل الشباب متعائلة وتصدر أحكاماً نهائية على الأشياء وعندما تنفعل بتسلخ صوتها ويصيح كنتيق الضفادع.

ولأن الزمن أصبح هازلاً فليس مستحيلاً على الزمن أن تصبح يوماً من نجوم العمل السياسى فى هذا البلد المنكوب.. ولم لا؟.. أليست اشتراكية متحمسة، بدليل أنها تعرف بعض القشور التى تصلح للثرثرة أو للمباهاة.. أما أنت فقد حكم عليك «صدقى باشا» أن تعيش كالحشرة فى أرشيف وزارة الصحة، ويومها استقبلك صديقك «منصور» بالأحضان والنكات، ولولا العقار الذى تركه الوالد، والتهم الزمن للأبناء لشحننا من اشتراكىي سنة ١٩٧٠ فأغثنا يارب السماوات. قدمت لها «فوزية» الشاى فشربته بلهجة شديدة، واستمرت تتدفق بالكلام :

- لا مفر من الحرب المسألة ليست لعبة!!

هذا كلام يحتاج إلى نكتة بذئية من نكت «منصور» الحريفة، وأطنان منه هى التى ألهمت مرارتى التهاهاً مزمناً، ولا بد من التنفيس حتى لا تنفجر وتودى بى :

- كلام سليم.. ولكن من الذى يلعب؟.. أضعتم البلد بلهوكم.

وتتحدثون كأن المجرم شخص آخر.

تحفزت للجدل، ولتعترف بأنها رغم سطحية الكثير مما تقول تتفجر بالحماس لأشياء مجهولة... ويأبى عقلك أن يتصور حماسها هذا تابع من ذاتها، ولعلها تحب واحدا من ثوريي هذه الأيام السوداء، ذلك أنها تردد الكلمات كأنها تتلقى بين كل كلمة وأخرى قبلة ساخنة، ولتقر بأن شفتيها جميلتين، وينبغي أن أؤنب نفسي لأننى ألهمت خيالها وهى فى بداية الشباب بذكرياتى. بيد أنها أصبحت كأننا مزعجا نتحدث بصوت عال، وثيقة وغرور، كأننا ندين فى حلبة صراع. ولولا حب «فوزية» الشديد لها لعاملتها بالخشونة التى تستحقها، ذلك أنها حشرة مقلقة، وها هى تختم كلامها..

- إن البكاء على الماضى قلة عقل، وقد أودت النكسة بمن سببها وأماننا واجب لا بد أن تؤديه..

أستفزنى غرورها، وأستفزنى أكثر إعجاب «فوزية» الواضح بها..

قلت :

- هذا ضحك على الذقون ياست «أحلام».. وذقنى شابت، ولن تضحك على قارورة مثلك، لم تودي النكسة إلا بضحاياها، وأنتم تكتفون بالكلام.. وإذا هس أحد عليكم بعضا جريتم كالفيران..

أكلمتُ ضاحكا :

- أراهن أنك سنخرجين وتسمنين على دماء الفلاحين الذين تدافعين عنهم، ثم تلهفين واحداً من رؤساء مجالس الإدارات، فيستولذك عددا من البنين والبنات، وكان الله بالسر عليما.

أحمر وجهها الرقيق من الانفعال، واحتجت «فوزية» بهممة غير مفهومة وقالت :

- «سليمان».. لا تغضبها.

انفجرت شفتاها عن ابتسامة صغيرة حائرة.. وقالت..

- سأحاول ألا أكون كذلك.. ولكنى لا أدرى ماذا كنتم تفعلون لو كنتم مكاننا؟

خفٌ توترى، وداخلى إشفاق حاد عليها، وقلت أنتى أصبحت قاسياً دون أن أدرى، فكيف تسللت إلى عبر الزمن كل هذه القسوة الجلفة، آه ما أكثر ما قتل داخلنا من مشاعر، وسيقضى علينا فى النهاية نزيه داخلى من خيبة الآمال التى تنزُ فى القلب.. صبيتُ على حماس الطفلة المشتعل دلوا من الماء المثلج، فيالى من عجوز حاقد..

- لا أدرى.. نحن تُوكر على المعاش.. لا أحد يذكرنا أو يريدنا، ولكننى أذكر أنتى عندما قررت فعلت، ولم أتكلم كثيرا.

غابت عيناها وراء يمامة سارحة فى الجو. وضعت كفها فى مقلة الشمس، لتحميها من الضوء.. شاقنى منظرها، تسلل عبر الزمن إيقاع موسيقى خافت وغنت «فوزية» : «يمامة بيضا» فانتشى القلب مع صوتها الشجى. من الحارة المجاورة تصاعدت صوت الندابة تراثى الميت.. قلت لنفسى :

- إننى عجوز حقا.

٢

مشروع للمنايين ضد غدر الزمان

فى المقهى تبادلنا الفكاهات ورمى الزهر. وقصصت عن الدكتور «سليمان محرم» وعن «أحلام» ولكن أحدا لم ينتبه إلى. وجاءت الشيشة لمنصور، فقبلها بلذة حسية. وتذكرت أنه قال مرة أن شرب الشيشة هو تمرين على أفضل طرق التقبيل التى تفتح الباب أمام عوالم النشوة الأصلية، وقال «عبد الحميد» إن الانتقال إلى «البيتيت إزوازو» سيكون واجبا قومياً بعد

الهزيمة الساحقة التي سببني بها «منصور». كانت دقائق الطاولة كالمطارق النحاسية. أغلقتها رغم عنف الاحتجاجات.

وجاء «التمر هندي» فشربت هنيثا، وجريت بعد أول رشفة خلف بانع العرقسوس في شوارع الحلمية، وكاد يدهسني حصان كان يجر «قَيْتُونَا» بداخله باشا تركي مبروم الشوارب.. وكان الزمن ١٩١٧ أو ١٩١٨، فكم من السنوات مضى على ذلك؟ تهدل شاربي وأصبح خطأ ناحلا ولولا الحياء لمحوته كشيان هذه الأيام. رفض «عبد الحميد» أن يخلع الطربوش تنفيذاً لتعليمات مجلس قيادة الثورة، وظل متمسكاً بموقفه، ولم يستبدله بهذا البيريه إلا عندما هزمته نظرات العابرين الذين اعتبروه من أعاجيب الماضي. وضحك «منصور» يومها وأكد أن اصراره على عدم السير عارى الرأس لا تفسير له إلا أنه يخشى على قدرته الجنسية من أن تتطاير من صلته. ويوم ماتت «أم المصريين» مشيت في جنازتها وبكيت بالدمع الهتون، تذكرت الدنيا في عز شبابها وحيويتها، كانت امرأة قوية وأيضاً جميلة، وكان جمالها جليلاً، لذلك تصدرت صورتها حجرتك. ولم يبق من آثار ذلك الماضي سوى «منصور» صديق القمطر الواحد بخليل أغا الابتدائية والحديوية الثانوية، دفعته صداقة العمر لأن يشاركك مغامرتك الأولى، ولكنه لحجا من عيون الرقباء. وتمر السنون فتلقيان في أرشيف وزارة الصحة، يومها احتضنك وقبلك وكاد يبكي فرحاً، زعق بأعلى صوته :

- ضبعتك السياسة وطالما نصحتك، أما أنا فان عشق البنات البكارى وغير البكارى قد ضيعنى.. ولذلك قضت مقاديره أن يلتقى المتعوس بخائب الرجاء.. أما من منا المتعوس ومن منا خائب الرجاء، فهذا المعنى فى بطن الشاعر، والأرجح أنه فى مؤخرته والله أعلم. والآن فلتسمعوا يا حشرات الأرشيف.. دعونى أقدم لكم هذا الرجل العظيم الذى قضى فى السجون عشر سنوات من أجل من يسميهم بالشعب المصرى. وهو بطل، أقسم على ذلك بأشهى من ضاجعت من نساء.. ولكن الذين أضع عمره من

أجلهم. ونحن منهم، قضوا أعمارهم فى تدخين الحشيش وابتلاع المنزول، ومضاجعة النساء، وأحياناً الغلمان والبهائم لذلك فهو فى الغالب مجنون.. فوق أنه بطل.

ضحك الجميع، وها هو أمامى شاهد على أن ذلك الزمان لم يكن وهماً، ففيه ضحكنا ولعبنا. وقد عاش أعزبا رغم مغامراته العديدة وتذكر أنه قبل المخاطرة بنفسه ليؤمن ظهره يوم المغامرة الكبرى، رغم أنه لم يكن يهتم بشئ.

وذكرت الغارة فمط شفتيه استياءً وقال :

- أنت مصاب بداء السياسة، ويؤدى أن تصاب بداء عضال كالذى عندى.

ضحكت رغم أن القلب كان يعانى إحساساً مريراً بالحياة، وبدت بدانته رمزا لكف الزمن عن صقلنا. أحكم «عبد الحميد» البيريه الذى بدنى صلته وقال :

- هيه.. تحدث بامولانا وأطربنا.

خلع منظاره ذو الإطار الذهبى وقال :

- الظاهر أنتى سأعلن التسليم النهائى. ولا بأس إذ ذاك من الاهتمام بشئ آخره كالامبرالية أو كرة القدم. فى الأسبوع الماضى تلبستنى حالة انتعاض شيطانية، برمت شاربى لها، واهتزت حواجبى على واحدة ونص. وهى خادمة، ولكنها صبية وملفوفة القرام وطماعة وأخلاقها فى الدرك الأسفل. ولكن المسألة إنتهت إلى فشل ذريع بعد كل هذا المجهود. نهج أخوكم، ونام كالرطل، وضحكت بنت الكلب، ونصحنى أن ألبس بنظولنى حفر البرد.

لفتت قهقهاتنا العصبية نظر عدد من الشبان الجالسين حولنا، فحاصرنا نظراتهم الداهشة ممزوجة بابتسامات هازنة. قلت :

- الحمد لله.. أراحنا من وجع الدماغ.

سحب نفسا طويلا من الشيشة، وصفق طالبا تغيير النار، ثم قال :  
- ولكنك خيبة وطول عمرك وجل شرعى، أما أنا فقد ذاعت شهرتى  
فى أرجاء المملكة، ويوماً طاردهتنى إحدى أميرات البيت المالك فقضى الزمن  
ابن الكلب أن تسخر منى خادمة. وعصر اليوم قابلتنى الملعونة على السلم  
فغنت « ما اخدش العجوز أنا ».

تواصل الضحك طاردا كدّر اليوم، وتحدث «عبد الحميد» وكان  
أصبانا نسيبا، عن المقويات، ولكن «منصور» أعلن بأسه من كل  
شئ، وقال:

- أزمى مستحكمة كأزمة الشرق الأوسط، ولكن لا بأس من  
دعوتكم إلى كأس فى «لابيتيت إزوازو».

ذكرتهم بأن الطبيب منعنى من شرب الخمر، فأقسم «عبد الحميد»  
أنها جالبة للنشوات فى سنوات الكدر التى نعيشها، فقلت أن كلامه  
صحيح، ولكن الخوف أصبح كل شئ فى حياتنا. وكأس واحدة من الخمر  
كفيلة بأن تقعدك أسبوعا حبيس الفراش. ذلك أن عشر سنوات من أكل  
العدس والفاصوليا والعسل الأسود قد أصابتك بما لا شفاء منه، والغريب أن  
الرجل قد لحا رغم كثرة المترصدين، والسما لا تسمع الشكوى، فهل ضعف  
سمعها مثلنا.

تحدث «عبد الحميد» بصوت حلقى :

- «سليمان» زعيم قديم، فماذا لو ضبطه، أحد المعجبين بنضاله فى  
حانة من الدرجة الثالثة ك «لابيتيت ازوازو».

هذا أنسب الأوقات للهنر السخيف، لم يعد أحد يذكرنا أو يعرفنا  
وأمس قالت «أحلام» بصوت حاد أن ما كنا نفعله هو مجرد «إرهاب» وأن  
العمل الثورى شئ غير هذا، فتأمل عجائب الدنيا. كانت طفلة فى الثالثة  
عندما رأيتها لأول مرة، وكم حملتها ولاعبتها. وتابعت مع الأيام اندفاعاتها  
إلى عالم الأنوثة، وشاقتنى أنداؤها الرقيقة فاستعدت بالله من الشيطان

الرجيم، وها هى تردد كلمات يلقتها لها من لا تعرفه. خفتت نظرات الإكبار  
والولا، وأصبحت كلماتها سرطانا يمزق البدن. ولتقر أنك تحبها رغم هذا.  
أما هذا الرجل الأصلع الذى لا يكف عن الشكوى من ابنته، فماذا تقول  
له؟.

- المعجبون بنضالى لا يذهبون إلى الحانات.

تناول «منصور» بقية النقود من الجرسون وقال :

- هذا غير حقيقى، ألا تقرأ عن شبّاب هذه الأيام، إنهم يحششون  
ويرقصون، ويضاجعون حبيباتهم فى الحدائق العامة، وبدلا من صيحات  
النشوة التقليدية، يتخلصون من توترهم بالهتاف بسقوط التدخل الأمريكى  
فى فيتنام. ولو كنت أعلم أن الثورة هى هذا، لكنت أعظم ثوار هذا العصر.  
ولكن هذا الرجل الذى حاول قتل «صدقى باشا»، علمنا أن السياسة بهدلة،  
وضياع للمستقبل وفى النهاية لا تجد حتى من يذكرك؟

فى قلبك راحة، فلتقل أنه كائن تافه، ثم أنه حسى إلى درجة القرف،  
ولكنك لن تنسى أنكما ارتبطتما برباط لا تدرى سببه، حَمَى ظهرك وأنت  
تقوم بمحاولتك واختفى بالمسدس، فكادت القضية أن تجهض لولا شهود  
الرؤية الملامين، وهو يشعر بالمصيبة مثلك، وفى القلب محترق الآمال،  
وحصاد مر: ضاع الأبناء والعمر. وتَسَيْنَا الجميع. ويوم سقطت «فوزية» فى  
قبضة المرض، وكاد الرعب من فقدتها يقتلك. ولتتصور الحياة من غيرها.  
آء.. هذا العالم مرير، والزمان غادر حقا، فهل يشهدنا الصباح أحياء.. أم  
يأتى هؤلاء الأصدقاء غدا يعزون فيك.. يقول الجيران : رجل عجوز مات،  
ويعضون إلى حياتهم العادية، ولن تجد من يحزن عليك فى هذا العالم  
العريض سوى «فوزية». فما أقل ما سوف يُذرف عليك من دموع. أما  
«أحلام» فسيجفف صديقتها المجهول دموعها بقبلاته. ستشعر «فوزية»  
بالفراغ القاتل بعد رحيلك وستقول أن الزمان يترصدها كما ترصدها السجن  
وفقد الأبناء والخيبة المتلاحقة. وفيم يثرثر الصديقان الآن؟.



زمن الطفولة الأول ووضع كل منا مبولة بجانب سريره. فمتى ينتهى تفهقنا بالعودة إلى رحم الأم.

أكمل بعد عودته :

- والخلاصة أننى وجدت نفسى كاللوح بينهما. فقد اعترضت البنت على شقق التأمين وقالت أنها قديمة وواسعة وتبتلع أئانا كثيرا. قضت مقاديره، أن يسقط شعرنا ونستبدله بقرون. فأدركونى بكأس من ماركة «تيس» سنة ١٩٧٠.

تصاعدت أصواتنا مهتئين :

- ستصبح جدًا عما قريب، ولتحمد الله على أنك أنجيت، ساموت دون أن بيكينى أحد، أما «سليمان» فقد أضاعت السباسة نصف عمره، والتهمت الكوليرا نصفه الباقى.

- صلُّ شكراً لله، فإن تعش تَبَساً خير من أن تعيش لا شئ.

رفع يديه إلى جانبى وجهه ممتناً وشاكراً. وقال وهو يرفع سبابته إلى جانبى رأسه على هيئة قرنين.

- ولكنى أريد زجاجة ماركة «سفننتى تيس»

سأل المدام فأستغربت الطلب. وضحكت عندما ترجم لها «منصور» طلبه. وقبلت دعوتنا إلى كأس لاحظت أنه مخلوط بالماء المقطر وانتقلت الجلسة إلى البار.

أساد «عبد الحميد» رواية الحكاية على «المدام» فسمعتها باهتمام مبالغ فيه. وقلت أن عمرها يزيد على الخمسين، ولكن المكياج يجعلها تبدو أقل من الأربعين. ولاشك أن السواد الذى يتوج رأسها هو باروكة. وانحنى «منصور» على أذنى فأنبأنى أن الحالة عاودته وبشرنى بأن ليلتنا ستكون فلأ. نصحته بأن يتروى فلعلها حالة كاذبة فشتمنى وقال :

- تعلم ياغبى كيف تصطاد امرأة كندوز. يسعدنى بامدام أن أقدم لك أصدقائى: هذا السفننتى تيس هو الأستاذ «عبد الحميد واصف» موظف

هذه صلعة «عبد الحميد» تبدو فى الضوء الخافت متجمدة حزينة، والمكان هادئ ضيق أشبه بزنازة سجن القناطر الذى نزلت به ضيفا لعدة شهور. وليس هناك أحد سوى بضعة أشخاص على المائدتين المجاورتين، و «المدام» خلف «البار» تتحدث مع شاب طويل. والحديث أغلبه همس، والضوء خافت، ولا بأس بكوب البيرة، فهى مدرة للبول، واحتجازه بعض سخافات الزمن تصيبك بين حين وآخر، وخاصة فى الشتاء. قال «عبد الحميد» مواصلا ما كان يرويه:

- وهكنا وجدت نفسى أمام شاب كالحائط، أحمر الخدين، يضع ذراعه فى ذراع ابنتى، وكنت قد لهثت من محاولة اللحاق بهما.

«منصور»، وهو يضيف الثلج والصودا إلى كأسه :

- موقف محرج. وماذا فعلت؟

- كذبت على البنت طبعاً.. وقالت أنه زميلها فى الكلية.

تساءلت :

- وهل صدقتها؟

«منصور» بدفعه :

- طبعاً... أنه رطل كحضرتك!

«عبد الحميد» :

- لا طبعاً لم أصدقها. والحقيقة أنه لم يترك لى فرصة لذلك. فقد انحنى وقدم لى نفسه باعتباره معيداً بالكلية. وقال بوقاحة مدهشة أنه والبنت حبيبين منذ أربع سنوات، وأنه سعيد بالتعرف على وسألتنى عما إذا كنت استطيع مساعدته فى الحصول على شقة بإحدى عمارات التأمين باعتبارى موظفاً سابقاً بها. ذلك أنهما قررا أن يتزوجا فى الصيف القادم، عقب تخرج البنت.

صمت لحظة، وقام ليدخل دورة المياه فلاحظت أنه يفعل ذلك بكثرة مثلنا جميعاً. وقلت لنفسى أن كل أجهزتنا قد تدمرت تماماً، فتكصنا إلى



- ولماذا تتغير؟ ماذا كان يضيرها لو انتظرت حتى نموت فتغيرت على كيفها؟

«منصور»:

- طول عمرك رجل رجعى، ولذلك تستحق كل ما يجرى لك. اختفى «سيد درويش» ومات «الشيخ زكريا» و «بيرم التونسي» وأصبح «عبد الوهاب» يغنى منولوجات، ولذلك أرى أن نموت.

«عبد الحميد» :

- ونُعى «مكرم عبيد» فى ثلاثة سطور و «مصطفى النحاس» فى ربع عمود لذلك استحقت الصحف ألا تقرأها لأنها غادرة كالزمان.

قلت بحزن : لم أستطع أن أشارك فى توديع النحاس، بسبب جلطة الساق فبكيت فى الشرفة حتى ألتنى عيناي.. ومع ذلك اعتقلت عامين بتهمة المشاركة فى جنازته.. همس «منصور» :

- يا أولاد الكلب، قلبتموها محزنة، والحزن يطفى الشهوة، فكفوا عن هذا النواح.

تسألت المدام ببسمة مدرية :

- ماذا يضايقك يا «منصور بك»؟

- لا شئ يا مدام.. ولكننى تذكرت صديقة أدعوكم لشرب كأس رحمة ونورا على روحها.

ثم هتف رافعا كأسه

- فى صحة المرحومة زينب البكرية!

تسألت عينها فاستمر...

- ألف رحمة عليك يا ست «زينب»، لو عرفت لك قبرا لزرته و مارست فى فنانة الحب مع هذه السيدة الجميلة. ثم حزمت خضري ورقصت عشرة بلدى، وهتفت كشوار هذه الأيام بسقوط الزمن والعدو الصهيونى،

من أوائل الذين وضعوا أسس التأمين على الحياة فى بلادنا ولكنه تعيس الحظ فقد كان شوّما على عملائه.. وعلى شركته. فإذا أمن أحد على حياته بمعرفته يموت، وبهذا يخسر المؤمن روحه، وتخسر الشركة قيمة التأمين، لذلك كرهه الأثنان، أما هذا الرجل العجوز فهو الأستاذ «سليمان البنهاوى» فهو مناضل قديم، حاول قتل «صدقى باشا» ودفع ثمن ذلك عشر سنوات قضاها متنزها بين أبى زعبل وطره.

قطع «عبد الحميد» الحديث محتجا.. واختصتنى المرأة بلفتة اهتمام مفاجئة وقالت:

- السجن شئ سخيف... ولكنك عوّضت عن ذلك طبعا بعد الثورة؟

ضحك «منصور» ضحكة عالية وقال :

- طبعا... أرسلوا له وسألوه : أين أنت يا نور العيون؟.. وأحشتنا يا رجل... لا أوحش الله منك ياسى «بنهاوى». فقال الملعون بتواضع ها أنذا، فقالوا : إذن تفضل ياروح أمك. وأرسلوه إلى المعتقل كنوع من التكريم لبطولته واستمروا بكرمونه عامين كاملين.

ابتسمت المرأة ابتسامة بلا معنى وأشعلت سيجارتها. أثارتنى راحة التبغ، فأستنشقت الدخان المتطاير، وقلت أن «فوزية» ستلومنى لأننى تأخرت، وستشم رائحة البيرة، وتقلق على صحتى.. ومن لى بيوم من أيام ذلك الماضى الذى لن يعود. ويوم تسللت إلى حجرة المقابلة فوضعت صورة كبيرة لى فى مواجهة المقعد الذى تعودت الجلوس عليه. ستعرف لا ريب الوجه الذى يتابعها دائما بعينين متعطشتين ترعيانها فى طريق الذهاب والعودة إلى المدرسة. ومتى يتوقف المطر الذى يسقط بالحارج.. وحكايات «منصور» لا تنتهى.. و «عبد الحميد» يفرض مشكلته على الحديث. قالت المدام:

- لا تحزن يا «عبد الحميد بك» تغيرت الدنيا، وهذه مسألة عادية...

- «البكرية»؟

- لا طبعا زينب عبد الحميد واصف.

شكا «منصور» من البرد، وقفنا ننتظر تاكسى.. وقال «عبد الحميد»

رن مناسبة ظاهرة:

- ستودعون الحياة دون ضجيج، ولو سمعتم كلامى لأمتم على حياتكم بمبلغ محترم، وإذ ذاك لنشرنا صوركم فى الصحف بعد عمر طويل، وتحته بالبنط العريض : هذا الرجل ترك لورثته ألف جنيه (ثم بلهجة إعلانية)... التأمين ضمان وأمان... وسعادة واطمئنان.. مرة ذهبت لأحد كبار الساسة ودعوته لأن يؤمن على حياته، فتركتنى أثرثر أكثر من ساعة حتى ظننت أننى سأخرج بعمولة محترمة عن البوليصا التى سأظفر بها منه، ثم قال لى : أنا لا تهمنى حياتى لأن بوليصتكم لن تدفع المكتوب، ولكن هل تستطيع أن تؤمن على حب زوجتى ووفائها؟ هل تضمن لى ألا يزعم ابنى فى وجهى، أو يجعل امرأته تطردنى من البيت؟ هل تؤمن لى ضد غدر الأصدقاء؟ هل تضمن لى إذا متُ شهيداً ألا يعتبرنى التاريخ مهرجاً؟ هل تضمن لى كل.. أو بعض هذا؟ لو فعلت لتدافع الناس على شركتكم بالملايين. أعجبنى منطقته فقدمت مذكرة إلى مجلس إدارة الشركة بعنوان «مشروع للتأمين ضد غدر الزمان». كانت قطعة من الأدب الرفيع لذلك كافأنى عليها المدير العام بخمسة أيام من مرتبى.

صمت.. شقت أنوار التاكسى طبقات الظلمة الباردة.

٣

جولة بين ابتسامات متقلصة

انتهى المشروع إلى الفشل الذريع. وفى نهاية اليوم تأملت حصاده، فقلت إننا احترقنا وما كان قد كان. لن يكف القلب عن اجترار الأحلام - حتى ولو تكاتف عليه كل بأس العالم. فى الليل تأملت حلمى ورسمته بأدق

وأقمت حضرة ذكرى، وقد تسألون من «زينب البكرية»؟، وهو سؤال يدل على أنكم غدارين كالزمن: بنت أشرف كانت، تعلق قلبها بولد فرناوى فصعدت وراءه إلى القلعة وعاشت معه، وعندما رحل الفرنسيون حزمت متاعها ونزلت إلى «الجودارية»، فأختفت لدى إحدى جارياتها، ولكن الرشاة سلموها للوالى، وسألوا أباهما وكان رجعياً كعبد الحميد واصف، فقال إنى يرى منها، فأخذوها وقطموا رقبتها، أو هكذا يقول «الجبرتى»، وهو مؤرخ بامدام وليس بانع بسطرمة كما قد يتبادر إلى ذهنك، وأراهن أنه كان أيامها شيخاً عجوزاً لا يقدر على النساء، ويبرك كالجمل بين فخدى أى امرأة..

قالت المدام بأسى:

- مسكينة؟

«منصور» بسخط :

- لو ظهرت اليوم لاعتبروها مدافعة عن حقوق المرأة ولعينوها زعيمة للفيمينيست ولذلك، أدعوك إلى جولة بمقابر باب النصر، لنحىي معا ذكرى هذه الإنسانة المسكينة ونؤنس وحدتها، بمضاجعة توظف صرخات نشوتنا - أئناها - الموتى!، فنسألهم عن العلاقة بين النصر والقراقه؟! \*

\*\*\*

وعندما عاد من دورة المياه كان قد أفرغ ما فى مثانته وأبضا ما فى جوفه. وانقطع المطر فى الخارج. سألته ونحن على الباب عن حاله قال : - كانت رغبة كاذبة.. وقد فكرت وأنا بالداخل أن من الأفضل لى أن اتصرف وسوف أنضم إلى السادة البكرية.. إكراما لحبيبتي زينب.

ونحن ندب فى الطريق «سألت» عبد الحميد :

- على فكرة ما إسم ابتك؟

- زينب..

«منصور» بصوت عال :

ما يكون، وكان مبهجا وأنا تائه فيه، فى حجرة النوم الدافئة، والعواصف تزمجر فى الخارج. وكانت مستغرقة فى قراءة رواية فرنسية، ومنظارها يُبعد عنى عينيها، وعندما فتشوا المنزل أول مرة، استولوا على خطاباتنا المتبادلة، وفى المرة الثانية استولوا على ما كنت قد كتبتة لها فى السجن، ولم يبق لأيام الحريف من زاد سوى الحشرات. وتذكر أن «كين بويد» - مفترش الداخلية الإنجليزية - أشعل غبلونه وقال :

- كيف تفكر فى القتل ولديك كل هذه الطاقة الشعرية.

عجبتُ ساعتها لملاحظته، بيد أن طاقة الحب قادرة على الكثير.

قلت:

- غداً عيد زواجنا السابع والثلاثين.

قالت وهى تخلع منظارها وتقبلنى فى وجنتى..

- كل سنة وأنت طيب.

تملكنى إحساس طاع لحظتها بأن هذا قد يكون آخر أعيادنا فطرده بقسوة، وأحطت كتفها بذراعى، وقلت :

- وأنت طيبة، لدى فكرة لعيدنا هذا العام.. أود لو قمنا بجولة كالسائحين.. نتفقد آثار الماضى. نزور مدرستك القديمة حيث رأيتك أول مرة.. والحدوية الثانوية التى قضيت بها أحلى سنوات العمر، وبيوتنا القديمة. وكشك الموسيقى.. أعنى كل ما يذكركنا بما مضى.

غابت نظراتها وراء حلم مستعص طمست السنون معالمة، وقالت :

- قلبك شاب رغم تجاعيد الوجه، ولكن هل تساعد الصحة؟

قلت أن الحلم يستحق كل المشاق، وناقشنا التفاصيل وحددنا اتجاهات السير، وثار اعتراض بأن الكثير من الأشياء قد اندثر، فقلت أن رائحة الماضى تتشع من أرضه وستشمها رغم كل شئ.

صفقت «أحلام»، وقالت أنها ستعد حفل المساء. وشهدنا الصباح ندب على الأرض بقلق، نحتضن الحلم، وأما عند الغروب فقد خيمت الكآبة

على كل شئ قلت هذا لنفسى رغم محاولتى إخفاء شعورى عنها. ولكن الحبيبة فرضت نفسها على ملامحى. فكيف ديست آثار العمر بكل هذه القسوة.. وكنت أعلم من البداية أن الكثير من الأشياء قد تغير، ولكن الزمن وغد حقاً : أهذا هو شارع الخليج الذى شهدك مُحباً متبهاً، والذى كانت تظله الأشجار؟! اقتلعت يد الزمن القاسية أكثر بيوته. اتسع حتى شعرت بنفسى ورقة طائرة فى ضجيجها، اختفت البواكى كما اختفى الخليج وجُف من قبل.

وضجيج الترام مزعج كلعنة أبدية ولم يعد هناك ظل نتقي به الهجير وتسرح فى براحه العيون خلف قامتها النحيلة الرقيقة، وها هو الزحام كيوم الحشر فلا تصطدم العين إلا بأرداف مهتزة سارحة، ورجال قلقين وعيون زاعقة بهم، أما هذا الطلل البالى فهو مدرسة الحدوية القديمة، أصبحت خرابة يسكنها البوم والهوام وكلاب الطريق، وفيها تفجر الضحك من قلب لم يكن قد عاقر الأحزان بعد. الحدوية الجديدة نظيفة ومنسقة ولكنها عاطلة عن الجلال كذلك طليبتها. ولعل خيبة الأمل لا تقود خطواتك إلى «باب النصر» حيث تختط لنفسك قبراً. ولن تعدم غدا صحيفة من هذر هذه الأيام، يطالب قواد من الذين يكتبون فيها بتنظيف القاهرة من آثار الماضى لتمد عنقها للمستقبل، ولولا السياحة لهدموا الهرم الأكبر، وأقاموا مكانه حانات للمضاجعة، فهم يدهسون كل شئ. وأمس عذرت «أحلام» عندما قرأت فى الصحيفة مقالاً يقول كاتبه أننا قتلة محترفين، وأن الالتحام بالجماهير والعمل المنظم، هو طريق العمل الثورى، فقلت أن ابن الكلب كان يبول على نفسه عندما كنا نحن ندفع ثمن وطنيتنا، وهو بلهف مرتب لكتابة هذا الهذر السخيف. فمن بضمن لي أن لا يُعتبر «صدقى» غدا بطلا وطنياً، وندان لأننا خونة؟! وأبين الحقيقة فى هذا الطوفان من الأكاذيب، ولكن هذه الأفكار عكارة تبدد صفو اليوم.

ولننحت بالأظافر علناً نجد من آثار الماضى شيئاً يبعث النشوة فى القلب الحزين، ولكن الكلاب شوهوا شوارع الحلمية فضاع صمتها الجليل

الذى طالما سرح فيه القلب نشوانا.. وقامت عمارات طويلة كزبانية الجحيم، على هذه الأرض كان بيتنا الصغير. فى مكان ما منها التقينا وجها لوجه لأول مرة. أطرقت بعينها السوداوين خجلا، واتقدت خدردها كالجمر، دسست فى يدها ورقة كانت أول ما كتبتة لها من رسائل الحب، فأين يقع هذا المكان الآن من هذه البناية العالية. هل أصبح دورة مياه؟

سألتهما عما إذا كانت تذكر ذلك. فقال صوتها اللاهث: نعم. واختلفنا فى تحديد المكان. قلت أنتى سلمتها إياها فى الحديقة. وقالت بل كان ذلك فى حجرة الصالون. استغرقت المناقشة وقتا إلتهم بهجة الذكري. أهى الذاكرة الخزون التى تزيف التاريخ؟ ومن المؤسف أن رسائلك قد ضاعت بفضل كلاب الحراسة الذين أطلقهم وراءك «كين بويد»... فهل يكتشفها أحد المؤرخين فيما بعد؟! وقيم تلوم مهرجى سنة ١٩٧٠ وأنت نفسك قد نسيت. وأمس أعلنت الأصدقاء بمشروعى ودعوتهم لحضور الاحتفال فى المساء. ضحك «منصور» وقال:

- فكرة طريفة. وسأدعوكم بدورى إلى حضرة ذكر فى ساحة شهيدة العشق الدينوى «زينب البكرية».

انتهت ضحكته بسعال متتابع تصدع له صدره، قال أن الزمن الغادر ابن الكلب أصبح يلزمه بيته أطول مما يحتمله وأضاف:

- وأن تكون عجوزاً ووحيداً فى شتاء قاس، ذلك شئ لا يطاق، وليس العدو الرئيسى لنا هو الامبريالية كما تزعم أبواق الحكومة، ولكنه الروماتيزم والسعال والربو وآلام الكلى..

قهقه «عبد الحميد» قائلاً:

- فى صيف هذا العام ستزف ابنتى، وأدعوكم لأن تحضروا حفل تتويجى بالقرون، وبذلك يكون عمركم الطويل قد شهد تتويج خمسة ملوك، الملك فؤاد والملك جورج الخامس وفاروق الأول والأخير واليزابيث والعبد لله.

لم استطع اكتشاف لون البييره الذى يلبسه، أهو أزرق أم أسود. وتذكرت أنه قادم خلع الطربوش بضراوة يحسد عليها.. أردف «منصور» - يتحدثون عن عقارات لتجديد الشباب، ولكننا نعيش فى عالم غير عالمنا بحق.

«عبد الحميد».

- قُضِكَ من هذه السيرة، شخنا وانتهى الأمر، فلماذا المقاومة؟

قارمت رغبتي فى الكلام لحظة ثم قلت:

- تقدمت الدنيا، وينبغى أن نُسرَ لذلك.

«منصور» صانحا:

- هذه أكذوبة تقولها من وراء قلبك. كان رطل اللحم بخمسة قروش فأصبح بسبعين. وكانت النسوان العشرة بقرش، فأصبحت أقبح امرأة توجع قلبك بالحديث عن الحب قبل أن تخلع ما تقضى الأقدار بخلعه من ملابسها.

ضحكتُ أسبانا وقلت أنتى صريع مثله. وها هو الشعب يسرح فى الطرقات لاه عنك، ضعيف الذاكرة، ولم يعن أحد بأن يحفظ لك آثار الماضى العظيم...

قلت..

- نحن لا نفكر إلا فى أنفسنا، ومن الحق أن ننكر أن الدنيا تقدمت للأمام.

«عبد الحميد»:

- وآية ذلك أن أولادنا يصرون على تتويجنا بالقرون قبل أن نغادر الحياة.

«منصور» زاعقا:

- وآيته أن الحكومة كرمت بطولتك بطريقتها، ونحن فى زمن حرب فأخشى أن يقودك لسانك إلى المعتقل مرة أخرى فتخرج منه إلى القبر.



ضحكت مغلوبا على أمرى، ها هي النتيجة أمامى، بدأ الهدم فى بواكى شارع محمد على. أه، كم سرخ الخيال خلف فكرة مستعصية أو نشوة دانية، وبين لحظة وأخرى أشعر بالآلام الروماتيزم فى مفاصلى، وبدا أنه من المستحيل أن نكمل السير إلى كشك الموسيقى على الأقدام، فدعوت التاكسى... فىيا لضجيج العالم. كان «القيتون» رقيقا حانياً، فهل تطوف بنا فى هدوء الكشك ذكرى لهفة القلب، فتنتشى الروح كما حدث فى زماننا الذى مضى، طارت عينى إلى مكانه فقصر بصرى الذى ضعف عن التقاط صورته، وتقدمنا بخطواتنا البطيئة. واستندتُ إلى ذراعى فلاحظت أن قامتها قد انحنت قليلا : آخر مرة رأيته فيها كان بعد هدم سور الحديقة بقليل، مزقوا جلالها وفتتوا بهجتها، شقها ذلك الطريق الملعون، وانتهت خضرتها إلى لاشئ.

وها هو الكشك مجرد «برجولا» ضمن كازينو مزدحم ومرهق، جلسنا إلى إحدى الموائد. إزداد ألم المفاصل بمجرد أن ارتقيت على المقعد، جاءت جلستنا بجوار عاشقين عصريين تقاربت رأسهما، وغابا فى حديث هامس :

قالت «فوزية» :

- أرهقنى المشى. وأشعر أن قلبى يكاد ينفجر من الخفقان.  
- وأنا أيضا.. مفاصلى تؤلمنى.

شرينا المرطبات، واجتذب حديث العاشقين سمعى الثقيل، فأدريت أذنى منهما دون أن أشعر. وعندما قاما فجأة إلى منضدة فى الطرف الآخر، خجلت لتطفلى، سيقولان لاشك أنتى عجوز سمج ومتطفل.

وعندما وصلنا إلى المنزل، عجبت لأننى طوال جلستى فى البرجولا لم أذكر لقائنا فى كشك الموسيقى.

أطفأنا الشمع نحن الثلاثة. قبلتنى «أحلام» على وجنتى وقبلت «فوزية». ارتعشت يدى وأنا أقطع التورته فأكملت «أحلام» تقطيعها ووزعتها علينا، وقالت :

- صنعتها بنفسى، فما رأيكم؟.

تصاعدت التهانى من كل الحجا.

احتضنتها «فوزية» بامتنان، وقلت أنها طفلة رقيقة، وضحك «منصور» ضحكته العالية، وهمس فى أذنى قائلا:

- هل تسمح لى أن أقبلها قبلة أبوية.

زجرته، فأكد لى أنه أعلن الإفلاس الكامل، ولا ضرر من القبلة. وانهمكت «زينب» و «أحلام» فى حديث جاد، حبك «عبد الحميد» البيريه، ونظر إلى ابنته، وهمس محاذراً أن يسمعه خطيبها الذى كان يقف بجوارنا :

- يتحدثان عن منظمة فتح كأنهما من عتاة الساسة، لذلك استحققتنا القرون.

وأعلنت «أحلام» أن لها صديقا من المهتمين بالتاريخ يطلب لقائى لاستجلاء بعض النقاط فى بحث بعده، عن جذور النضال الشعبى الذى مهد لثورة ٢٣ يوليو! أبهجنى الخبر. وطلبت تفاصيل عن الصديق المذكور. فتحدثت عنه بوجد واضح، فقلت لنفسى أنتى سأعرف حبيبها أخيرا.. قال «عبد الحميد» :

- حذار أن يكون من المتعاونين مع المخابرات!

ردت «أحلام» بجفا، واضح :

- أنا أعرف كيف اختار أصدقائى. ولا ميرر للتداول على الناس.

تكهرب الجرح لحظة، ولكن «منصور» قال :

- يبدو أن هذا الرجل الطيب سيدخل التاريخ، شأنه شأن كبار الناس المهتمين من أمثال «سعد زغلول» و«النحاس» و «شفيقة القبطية» و«بديعة مصابنى»، وبما أن الدار أمان، فقد قررت أن أنال نصيبى من المجد المنتظر. فمن المعروف أن هذا الكتكوت المفترس باعتبار ما كان، قد قبض عليه بعد إطلاق النار مباشرة على «صدقى باشا» واستغرب الناس لأن البوليس لم يجد معه المسدس ساعة القبض عليه، وبحث مدير الأمن العام أيامها المرحوم «غزالى باشا» عن شريك للمتهم، ولكن تنقيبه لم يفض إلى شئ. ويسعدنى أن أعلن أن العبد الفقير لله، كان ذلك الشريك المجهول، وأثناء الهرج والمرج



الذي أعقب الحادثة حصلت على المسدس، وقد يقول بعض من يعرف سيرتى ما شأنى وهذه الأمور؟. والحقيقة أنه لا شأن لى بها. ساعدته لأننا أصدقاء طفولة، ورغم أنني كنت أكره «صدقى باشا» جداً فأننى كنت أحب الخمر والنسوان أكثر من أى شئ فى الحياة، لذلك ترددت فى القبول أياما ولكننى من باب الجذعنه لا غير، قبلت. ولا أنكر أن مفاصلى سابت عقب الحادثة ولكن الله سلم. وقد احتفظت بالمسدس كنوع من التكريم لشخصى الضعيف. ولكننى قررت فى هذه المناسبة السعيدة، أن أعيده إليه هدية، بمناسبة العيد السابع والثلاثين لزواجه السعيد.

صفتى الحاضرون. وفضضت الأوراق عن المسدس لتتفحصه العيون : مسدس «ساقية» قديم. خزان الرصاص فيه كبير، ويبدأ أن يبدأ قد أعادت صقله حديثا.. بقايا الصدا مازالت تحيط بماسورته، ولكنه يعمل. أدرته. وتأكدت من ذلك. صفتى الحاضرون. ارتجفت يدى وأنا أمسكه. اجتذب بصر «أحلام» وفحصته عينها الواسعتان الجميلتان. تصاعد اهتمامها به إلى الذروة. سألت عن ماركته وأى نوع من الرصاص يمكن استخدامه فيه. لماذا هو ضخّم هكذا؟. هل يمكن التصويب به بالتوجيه، أم أن وضع الهدف فى منتصف الدبابة شرط للإصابة.. وأخيرا قالت :

- هل استطيع أن احتفظ به؟.

قلت بدون تفكير تقريبا.

- طبعاً.. اعتبريه هدية منى!.

قالت : قصدت أن احتفظ به بعض الوقت؟

ضحكت، وأحطت كتفها بذراعى قانلا :

- لن أورثك شيننا سواء، فسوف أموت فقيرا.

وكان المطر يغسل النواقد والشوارع والبيوت.

## ثلاث مشانق

## متينة الصنح

« .. ما من أحد من الذين يجلسون حولك .. إلا سكير ابن حشاش .. فلا تكن حنبليا ».

١

إحالة الأوراق إلى فضيلة المفتى:

من تلك اللحظة بدأ مقتلنا. كان ذلك فى شحوب الغروب. ونحن نغادر المدرج. فكّرت أن أسمعها أفحش الكلمات. قاومت رغبتي بعنف، حُفّت بعد قليل مخلّفةً رماداً فى تجويف رأسى.

رفعت رأسها فاهتز ذيل الحصان الأسود فى مؤخرته. سألت :

- ما رأيك فيما قاله «الدكتور كمال»؟.

كانت بعض الحيرت الخاصة قد علّمتنى أن أردّ على السؤال بسؤال، طلبت رأيها:

- تعلم أنّ فهمى لهذه المسائل قليل.. ولكن الفكرة باهرة حقاً.

كان ذلك رأى عدلت عنه فى صدى رنة الثقة التى تكلمت بها .

- ليست جديدة على أى حال..

علقتُ بضحكة مقتضبة. عرجنا فى المشى متجهين إلى باب الجامعة الرئيسى. دقت الساعة.. لم أعن بمراجعة دقائقها... فى المقدمة أشباح تغادر المكان. دقائق الأقدام تأتي من خلفنا. مقبِراً الجوّ قلت :  
- الفساتين الشتوية تزيدكَ فتنة.

ابتسمت. ضغط كفها على ذراعى ضغطة رقيقة ممتنة. مس مرفقى جانب ثديها. هزّتنى رعشة دف..  
وأنا أقرأ ساعتى :

- مازال لدينا وقت نتعشى فيه بمنزلى... موافقة؟

تركتُ ذراعى برد فعل لم تحسن التحكم فيه..

- ... لدينا كمية من اللحوم والفاكهة سنؤرخ بها للأيام التالية.

- و«رياض»؟..

- لا شأن لك به.. ليس بالشقة، فقد تغيّب عن المحاضرة.

أوقفنا إشارة المرور أمام باب الجامعة. انعكست أشعتها الحمراء

على وجهها...

- «رياض» كائن غريب؟

وأنا أتناول يدها لتعبير الطريق.

- هذا ما يقوله «المقدس سمعان»، وعنده أنه من السهل أن ينفذ الجمل من سمّ الخياط، أما المستحيل فهو أن ينفذ ابنه «رياض» إلى ملكوت السماء، ولكن هذا ليس موضوعنا. حول «المقدس سمعان» إيراد ماكينه الطحين إلى دجاج وفواكه ولحوم، أدعوك لالتهام بعضها، ويمكنك اعتبارى بعض هذا البعض.

تنهدت ببطء.. تأملتُ عينيها، كانتا غائبتين :

- لا أستطيع أن أتأخر.. نؤجلها ليوم آخر.

- التاكسى يقرب المسافات. لم نذهب منذ أسبوع.

تحصنت فى آخر مواقعها :

- لدى أسباب أخرى غير الوقت.. ربما بعد يومين أو ثلاثة.  
هزّزت رأسى بابتسامة وصفتها بأنها وقحة. سألتها والأتوبيس يهل من بعيد عما إذا كانت مصابة بمغص.  
- هل أدركتك الإكس؟

ضربتنى ضربة خفيفة على صدرى. قفزت إلى السيارة فى لهجة شديدة. غابت فى الفراغ.

\*\*\*

«عزيزى عادل»

«تأكيداً لرسالتى رقم ٣٨ السابقة، وقياماً بمسئوليتى تجاهك أكرر لك النصيحة «سحر» ليست مخلصاً لك. تأمل صدرها ستجد شامة فوق النهدي الأيسر وأخرى فى أعلى السرة، وثالثة فوق مهبط البطن بقليل. وفى أعلى الفخذ آثار عملية جراحية قديمة. ألا تستغرب معرفتى لهذه الحقائق؟!». «ناصح أمين».

فتحت درج المكتب بهدوء.. أخرجت ملفاً ضخماً عنوانه «سحر ٧ / ١٢ / ١٩٤٣» وأرقت الورقة به. أعدته إلى مكانه.. أشعلت سيجارتى.  
قال «رياض»:

- هل من جديد؟

ابتسمت.. قلت

- لاشئ... خطاب من مكتب الأمن.

\*\*\*

عند العشاء أشعل «رياض» موقد الكيروسين.. فى ضجته خفّ الزحام فى رأسى. التهمت النيران جونلتها القصيرة التى انحسرت عن فخذ أبيض نابض بحبيوية دافقة. اختفت الصورة كلها. عادت الضجة تملأ كل

تجويف الرأس.. الصالة زمهريرة البرد والموقد ينشر ضجته دون مقاومة. فتح  
«رياض» فمه ليتكلم أزعجني منظر الطعام في تجويفه.  
- ما أخبار محاضرة «الدكتور كمال»؟..  
- لا بأس بها.

مستطلعا بعينيه بينما أنياه تمزق فخذ الدجاجة. قلت :  
- شرح تجربة جديدة للعلاج الجماعي تقوم على اختبار جماعة  
تتخلص من حساسيتها تجاه خطاياها بأن يعترف كل فرد بأثامه بصراحة  
تامة أمام الجميع.  
- وهل نجحت التجربة؟  
- ربما.... قال أيضا أننا في النهاية سنجد أنفسنا أربيا. تماما فما  
نتصوره خطايا... هو بالفعل ما يفعله الآخرون.  
- والفائدة؟

- سنعدل عن تأنيب أنفسنا بلا مبرر.  
أضف السكر إلى الشاي.  
- تجربة مثيرة على أي حال لبثني حضرت. أخذني «المقدس»  
لانتظار ظهور العذراء فوق قبة كنيسة الزيتون. لم أطق الزحام. قلت له أنتي  
أرغب حقا في الانتحار ولكن ليس تحت الأقدام. غضب عمك المقدس،  
وأذرنى بأنني سأنفى من الملكوت، فشلت في كتم ضحكتي وهرت منه  
لكي انتحر في مكان هادئ، ولكن محاولتي ورقمها ٣٨ فشلت.  
- لماذا؟

- كان ظلام الشاطئ يخفي عاشقين أفزعهما ظهوري. فلنا أني أريد  
بهما سويا وقد تحول المشهد إلى تراجيكوميدي من اللون المبتذل، وحاول  
الولد رشوتي خيل إليه أنني شرطي، وفي النهاية فقدت حماسي للموضوع  
كله.

وأنا أرفض سيجارته المنتفخة ذات الأريج النفاذ :

- بودى أن أعرف سببا مقنعا لتفكيرك الهزلي في الانتحار؟  
سحب نفسا عميقا من سيجارته. تأمل الرماد المتراكم في قمتها  
محافظا عليه، قال:  
- سمعت أن المنتحر لا يدخل ملكوت السماء..

\*\*\*

في دفء الضحى بدا «التابير» الأخضر أنيقا على جسدها. أما  
مشارف فخذها فناعمة بيضاء. وحيدان كنا في البرجول. عدد قليل من  
العشاق حولنا. قالت :

- هنأني «الدكتور كمال» أمس على بحث أعمال السنة.  
- عظيم.  
- بابتسامة زهر :

- المهم أنه قال : عدلتُ عن الظن بأن الفتيات الجميلات دائما  
تافهات.

فجر زهوها صديد الضيق في صدري. هرت بأصابعي زهرة كانت  
قد أهدتها لي قبل دقائق. لم أعلق.

التفت أهدابها بوجهي لكي تصطادا عيني. أملت وجهي فأصابت  
القذيفة سحلية صغيرة كانت تصعد فوق جذع الشجرة. سألتني عما إذا كان  
هذا بضايقتي؟. نفيت ذلك.

- أنت لا تفار علي.  
- الغيرة إحساس بدائي... ثم أنني أثق فيك

غنى راديو عابر في المشى المجاور.  
- تشاجرت جارتنا مع امرأة البواب... آه... كانت معركة حامية.

.....  
- شغل عبال.  
العمارة، وارتفعت الأص

سرعان ما دقت النار في  
والسابع عبر بئر السلم.

بفيظ خائف :

- عيادة الدكتور مصطفى.

صعدت كالحاربة. وقفت لحظة متعمدا حتى اختفت دقات أقدامها في الدور الثالث. أنهيت مسرعا حديثا ملفقا بدأته مع زوجة البواب. لاحقتني كلماتها في السلمة السابعة عشر :

- جاءت «فردوس» الفسالة... وستعود يوم الأحد.

ثم بصوت خافت :

- رينا يهدى العاصي.

\*\*\*

من الحمام جاء صوت المياه وهي تتساقط. أشعلتُ سيجارتي. قضت رائحة الدخان على عبير تركته في الغرفة. فتحتُ باب الشرفة. واجهت ضوء الشمس. قالت ساعتى أن «رياض» سيعود بعد ساعتين. «سحر» - ككل مرة - تيكى الآن في الحمام وتمسح دموعها بظاهر كنها. كالعادة ستعود بعينين ذابلتين غاب عنهما وهج الشهوة، كسيرتين وذليلتين.. لا داعى لليأس، أمامنا وقت لجولة أخرى. إذا غلبتها الشهوة تحيلها كأننا آخر.

تعلقت عيني السارحة بعصافير جاءت من المزارع القريبة. متى أطير في الفضاء كهذه العصافير؟

عينا بواب عمارتنا تطاردان العصافير، شاريه فضي، يجلس كحكيم أفلست بضاعته. رجل منكسر أما زوجته فحشرة كوحش. قالت «سحر» : نظرتها ترعيني.. يخيل إلي أنها لا تصدقني. المزارع رحبة ومتسعة فلماذا لم تكن عصافيرا؟. اصطدمت يدي بالخطاب.

«عزى عادل»

أنت إلى الآن لم تصدقني طبعاً. ولكن هل يكفيك أن تعلم أن

.....

- قالت امرأة البواب أنها تحبه وزوجها قواد... وأولادها كلهم

سفايح.

- هذا سب علنى لو طبق قانون العقوبات

علا صوت الراديو خلفنا

- هل ما قالته عنها صحيح؟

- ليس هناك دخان بلا نار. جارتى لن تنام لعدة ليال.

يدها في يدي ضغطتها. اخنق صوتى برغبة طارئة :

- أما نحن فنستطيع أن «ننام» الآن.

- فى عز الضحى؟

- ما يحدد وقت النوم ليست الساعة، بل الرغبة.

كل شئ كان معروفا من قبل.. ونحن نتجه إلى التاكسى طلبتُ منى أن أكف عن الوقاحة، باخ حماسى للأغنية التى كان الراديو يذيعها. يكرر المطرب المذهب بالحاح سمج. فى الشارع السابق لشارعنا سبقتها - كالعادة - بخطوات سريعة حتى لا يرانا أحد معا. دخلت باب المنزل كالحارب. خطواتها تدق الأرض خلفى فى ابقاع رتيب، يقلل التعود من سخف كل شئ. اعترضت زوجة البواب طريقى:

- خطاب لك يا أستاذ عادل.

عادت «مريم» من كوخها فى بئر السلم، الخطاب فى يدها. أحد أطفالها يجذب جلبابها. عرفت الخط على مطروف الخطاب. ما أنشط مكتب الأمن، وما أكسل قانون العقوبات.

قبل أن أصدع كانت «سحر» قد وضعت قدمها اليمنى على أول درجات السلم :

قالت «مريم» :

- أين تصدين يا شابة؟

«سحر» عندما تغلبها النشوة تصبح قائلة «رائع».. «مدهش»... أيكفيك هذا لكي تتأكد أنى سبتك إليها.

«مخلص أمين»

كان رقمه ٤. وضعته فى الملف

المشفقة الأولى: مقتل صورة عارية فى المرأة

٢

ليلة العيد التقينا. انتهوا من صلاة العشاء وبدأوا يصلون التراويح. تصاعد تكبيرهم يقتحم صمت مخدعنا. كانت متشبثة بحمالة صدرها تمنع فى خلعتها. لم تنس فى آخر لحظات الممانعة أن تمد يدها المرتعشة بالرغبة فتظلم الحجر. وأنا منهمك فى عملى طرأت على ذهنى فكرة: هناك لاشك رجل يعانى سكرات الموت الآن فى نفس اللحظة. طردت الفكرة فى موجة تقبيل حادة. طاردتنى بالحاح، خمد حماسى لما كنت أفعله. انقلبت راقداً إلى جوارها. كانت تلهث ذائبة. يدها تتحسس رقبتى. أدت وجهى إليها. شفتاى باردتان. لفظتهما. ظل وجهها على صدرى. أشعلت عود ثقاب... صرخت منزعجة.. سحبت الملاة بسرعة. غطت نفسها. عاودتنى الرغبة أن أسمعها أفحش الكلمات، أتعامل معها كبغى. خفت أن أفقدها. تراجعت. الرجل الذى يعانى سكرات الموت دخل الآن فى مجال الغيبوبة. عاد فخذها العارى يلقي نفسه فوق فخذى.. البرودة تنتقل إلى جسدى عبر أنفاسها الساخنة. وجه الرجل الميت شق الظلام. احتجت إلى كل قدرتى على الإبصار لكى اكتشف ملامحه. تأكدت أنه خالى. عيناه جاحظتان، بشرته مليئة بالتجاعيد. ملامحه تتجمع فى تشكيل متسول راجح، تعلق بوجهى المهق.. أما أمى فكانت تخفى بأسها وحزنها فى نظرة صابرة. قال :

- كأس واحد.. واحد فقط..

بدت لى الرغبة مشروعة تماما.. أما أمى فقالت لهجتها الصابرة.

- لا.. الدكتور قال : لا

خارج الحجر دَمَعَت عينا أمى.. بكيت مثلها. توقفت دموعها، لم تتوقف دموعى. دقت النظر. لم يكن الرجل خالى كما تصورت. على النضد المجاور للفراش اصطدمت يدي الممدودة بتمثال برونزى للمسيح مصلوبا، ارتجفت لبرودته : هدية «المقدس سمعان» ولا يمكن رفضها. فى غرفة واحدة أعيش مع إنسان مصلوب مسمر الأطراف. عيناه حزنتان عاتبتان، تكذبان لسمى بأنى برئ من دمه. شعرت أن لحظة إندماجنا قد أفلتت. ابتعدت عنى قليلا، لحمها غريب عن لحمى تبينت خطوطه رغم الظلمة. قال صوت فى الخارج: جزاء.. الضحية.. كل عيد وأنتم بخير. تحسست رقبتى بأصابعها. فى جموح الرغبة تنسى كل شئ. من المسجد المجاور تصاعدت تكبيرات العيد وضجة أطفال الشارع.

- لم نلتق منذ شهر.

ثم وهى تنتقل بأصابعها من صدرى إلى بطنى :

- رغم هذا فأنت غير متحمس.

- .....

- أفكر ألا أجن... هذه المرأة تتعبنى بعينين مجرمتين، وكلما رأتنى قالت: ربنا بهدى العاصى، وكل مرة تسألنى إلى أين أنا ذاهبة. أوف..

«المرأة حبيبة مزعجة ولكن اهتمامها بها يبعث على السأم، ومن هو هذا المخلص الأمين؟ هل أضعها بالملف وكافة المستندات. ستنكر بلاشك. الأدلة صاعقة. داعرة من الدرجة الأولى فما هذه الحساسية المرضية.. ومتى يطبقون قانون العقوبات».

- سعدت خلفى مرة إلى عيادة الدكتور مصطفى، فوجدتنى فى غرفة



الانتظار وانتحت بالتمرجى ركنا وتهاست معه، وطبعاً أكد لها أنني  
زبونة معروفة.

- رتبت كل شيء... ذكائك فوق مستوى الشبهات.

..... -

- ما أخبار جارتكم؟

وضعت رأسها على كتفى. ثديها العارى أمام عيني.. شممت  
أريجها... كفها الآخر يتحسس بيضاء فخذي:

- لاشئ... وأمس زارتنا وأعادت على سمع أخى كل الكلام البذي  
الذى قالته لها امرأة البواب.

شددت عليها.. اختنقت لهجتها برغبة حادة. شفتاى تدنوان من  
شفتيها.

- ماذا قالت؟

قبلتنى ولم تجب. حششتها:

- أظن أنها تعيد هذا الكلام على أخى لعله يصدقه، تريد أن تفتح  
له الطريق.... وقحة.....

أزاحت الكلمة الأخيرة وجه خالى. كفها تتحسس أدق مراكز  
الاحساس فى. كنت خامد الرغبة تماماً. استفزنى شئ للضحك. قاومت.  
استسلمت له فى النهاية. انفجرت ضاحكا. مددت يدي. أضأت النور فجأة.  
عكست مرآة الزينة أمامنا تفاصيل الموقف. لمت نفسها بسرعة. اختلقت  
ضحكاتى الهيستيرية بتكبيرات العيد.

- سحبت الملاة لتتغطى. منعتها. انتزعت الملاة. ألقيتها بعيداً.  
تملكها غضب جنونى. سبتنى بأقذع الألفاظ. لم أتوقف عن الضحك،  
مشهدنا ونحن عاريين مضحك فعلاً. أشرت إلى صورتها فى المرآة واصفا  
كل مساحة فى جسدها.

صاحت

- أسكت يامجنون يا ابن الكلب.

لم أسكت. مدت يدها إلى التمثال البرونزى.. رفعته إلى أعلى.

صاحت:

- سأقتلك.

ترددت قليلاً خفتت ضحكى. ارتعشت طاقة أنفها. قذفت التمثال  
بقوة فاصطدم بصورتنا فى المرآة. تحطمت إلى مزق صغيرة. سقطت فوق  
السريز تبكى فى تشنج عصبى. عريها الباكى أمامى. لم تمن بتغطيته.  
كففت عن الضحك. خرجت تاركا الغرفة فى خطوات بطيئة.

٣

المسفة الثانية: سقوط المدعى العام

اخترقت عيناها ظهري كرصايتين مكتومتين. تعثرت أقدامى فى  
درجة السلم. لا بد أن أنفيها تماماً من حياتى. قبوعها فى بئر السلم يعطيها  
مبزة المراقب الدائم. عيناها الثابتان تريان كل شئ.

قالت «سحر»:

- نظرتها تقول أنها لن تسكت. وأنا نازلة هزت رأسها وتصعبت  
بشفتيها، وسألت ربهامتى يهدى العاصى، فهرب الدم من جسدى.

تفتعل المناسبات لتكلمنى كلما رأتنى صاعداً. تؤكد وجودها.  
استندت على «درايزين» السلم. رفعت رأسها منادية. توقفت عن الصعود.

- الإيصال جاهز. هل أصعد به؟

- سأغير هدى وأنزل فوراً.. الغسالة فوق؟

مدت يدها تلم الفستان فوق فتحة صدرها. لا تأمن لعينى. هربت

بهما بعيدا. وقعتا في شرك عينيهما. مسحتُ بهما مسطح صدرها. أكل الزمن بعض اللحم، لكن ما بقي كان صالحا لوليمة على أى حال.

- «فردوس»؟ .. لا.. لم تأت ولن تأت!

عيناي تسقطان في شرك عينيهما. عن سؤال لم أسأله أجابت :  
- هي الآن بالتخشيبية. هاجموا منزلها أمس..

دق الباب. وجدتها أمامي. جريت فارتديت الروب على ملابسى الداخلية جلستُ على مقعدٍ بمنتصف الصلاة. رائحة صابون زخيف تنتشر من وجهها الذى كان نظرا كما ينبغي لبشرة خرجت لتوها من تحت الماء. مدت يدها بالابصال، وسألت عن «رياض». وبدون مناسبة قالت :

- مسكينة «فردوس» أخذوها من الدار للنار.

- مخدرات؟

- لا.. رينا أمر بالستر، ولكن الحجر الدائر لا بد من لطف.

ابتسامتها لزجة. صفعها خيالى. تركتها تنظف الشقة وخرجتُ إلى الشرفة. على الطوار المقابل يجلس زوجها يتمتع بالشمس. عيناه سابحتان فى الفضاء. تركتها خلفى تعيد ترتيب الملاة فوق السرير. سيكون عملا شيطانيا لو افتترستها وحارسها ينتظر الوحى. عجوز ضعيف فكيف استولدها كل هؤلاء الأبناء؟. اسمه الذى يناديه به الجميع فى الشارع دون أن يحتج: «زوج مريم».

- ... وكانت تروح وتجي وقضاؤها فى إثرها... أعنى «فردوس».

لم تمنع عيني، نى أن تواصل روايتها :

- .. سألوا عنها مرارا... ومرة استجوبونى فى النقطة : ألا تصطحب أحدا معها إلى شقتكم؟

تمهد لشيءٍ مربع ولا بد من سير غورها حتى النهاية. وهى تنظف التسريحة وجدت بعض الأوراق المالية الصغيرة ملقاة فى اهامال. ناولتنى إياها، قائلة :

- فلوسكم كثيرة، لذلك تضيع فيما لا فائدة فيه.

أطبقت أصابعى على كفها بالنقود. ضغطت الكف لأتقلب على بمانعتها. أصرت بلا حماس على الرفض، تكلمت كفى مع كفها. على أن أقدّر لقدمى قبل الخطر موضعها. لانت كفها. فتحت ثوبها. وضعت النقود بين الصدر وحمالته. طاردت عيناي النقود، اصطدمتا بعينيهما المتجاهلتين. تركت الغرفة. جلست أدخن فى الصلاة. جأنى صوتها بغيرى: «باللى زرعتوا البرتقال». وشت بحته بعث ساخر. أقعدنى التردد. خاضت رحلة طويلة من دروب قريتها إلى شوارع المدينة وأزقتها، فماذا لقيت فيها؟. قطعت الغناء. قالت دون تمهيد :

- رينا يسامحنى، أضرتُ فردوس دون أن أقصد. مرة تشاجرت معها فأسمعتها وسخ الأذان، أعمانى الغضب فقلت كل شىء، ولا بد أن ابن الحرام سمع، فقد كانت مراقبة.

متأمرة من نوع شديد الحيث. فضحت المرأة على ملاء متعمدة فهل استكتبت أحد العرضحالية شكوى ضدها، حتى أودت بها!

- هذه آخرة السير البطال... أخذت جزأها.

مصصت شفيتها معلنة أنها لم تصدق وعظى :

- حگم .. ولكنها تجرى على ولايا ... وفتحت بيوت الكشبرات .....

انفجرت فى صدرى آمال خبيثة. تحصنت فى موقع مكين حتى لا تستدرجنى ثم تصرخ وتجمع على السكان، فتكون فضيحة من نوع يصعب غفرانه. لسانها سلبط يشهد بذلك تاريخها الحافل فى المعارك. وليس لها كبير. هل وعدا أحد بمنحة ضخمة إذا أخلت الشقة. ما أسهل أن تفضحنى فتجعل الإقامة بها عذاباً لا يطاق. لنمسك المسبحة هونا ما، فهى تبدو طبيعة بعكس نظراتها الباردة القاتلة.

- رينا يهدى العاصى، وعلى فكرة نريد غسالة أخرى.

تجمدت يدها على المكتسة، قالت نظراتها: كف عن وعظك السخيف.  
لسانها قال غاضبا:  
- أنتم كالقرع لا تمدون إلا إلى الخارج.. هل دعوتنى لأغسل لك  
ورفضت؟!

خنقت الحدة كلماتها الأخيرة. عكّت ملامحها نظرة غضب سطحية. لم  
أتحكم فى ذراعى الذى مد كفى ليربت على خدّها. لانت..  
- لا تغضبى.. نحن لا نستغنى عنك، ولكنك هل يمكنك حقا..  
أن...؟

انفجرت:  
- لست عمياء ولا كتعاء... فى رقبتي كوم عبال.  
أضعف مما تصور الخيال. روح استهانة باهرة.. بوقاحة قلت:  
- «فردوس» كانت تغسل وتطبخ وتكنس و...  
- ماذا....؟

رفضت عيناها أن تفهما.. أشارت بدى - اهتززت قليلا:  
- و... تدعك لنا ظهورنا فى الحمام؟. نحن عزاب وأنت أدرى طبعاً  
بالمشاكل.  
بسخرية:

- إلا هذه... النسوان لا تكف عن التسلل إليكم، أنا لا تجوز على  
الحيل: عيادة الدكتور.. المصوراتى، هذه حركات مفهومة..  
برح الحفاء، تعرف عنا الكثير. تبدو مستعدة للتنازل، لن ترتعب مرة  
أخرى تحت وهج عينها، لن أرضى إلا بالرضوخ النهائى.  
- ولكن الأمر لا يسلم.. والبحر بحب الزيادة، ثم أنك تعجبينتى...  
- سأكفيك.. لسانى..  
سمنتُ المناقشة، لا علاقة بين شئ وشئ. يقول اللسان، ما لا تفعله

أفخاذ. شدتها إلى. استسلمت كخرقة: أنفاسها بخرا.. فقدت حماسى.  
اصلت. لا بد من الانتصار النهائى. سأصنع من إحدى قطع ملابسها  
الداخلية علما أرفعه على سارية الشرفة. لذلك أحمل ثقل أنفاسها، وترهل  
جسدها.

فى اللحظة المناسبة قالت:  
- لا.. كله إلا هذا.. لا أرفع ذيلى لأحد مهما حدث.  
حائرا وأنا أتأمل عرسى:  
- ولكن ما الفرق، لقد قبلتك واحتضنتك.. و.. و..  
- ولو، هذا شئ آخر، ولكنى لا أرفع ذيلى إلا لزوجى...  
وأنا البس ملابسى:  
- متى يهدى الله العاصى؟.  
تناولت النقود. أعادتها إلى صدرها.

#### المشقة الثالثة: مسيرة ضد الموت فوق قمة جبل

٤

بين رفوف الكتب لامست ذوائب شعرها وجهى، قبلتها قبلة خفيفة.  
زجرتنى نظرتها. جلست إلى المنضدة، أدنيتُ مقعدها من مقعدى. نفخت  
عائبة، أعادت مقعدها إلى مكانه. غاب وجهها فى صفحة الكتاب. تأملت  
جديتها بنظرة هائلة. أجلسها خيالى عارية تقرأ كتابات العالمات. مصحفها  
الذهبى يتدلى بين نهدين مترعين. فتحت صفحة منه، قرأت «وقيل لها  
أدخلى الصرح فلما دخلته حسيته لجة، وكشفت عن ساقبها. صدق الله  
العظيم». ترفض الملابس القصيرة. تقاطع الديكولتية بكل درجاته. وبعد  
أجازة العبد واجهتنى ملامحها بنذر القطيعة. تنسحب من كل مجتمع أكون  
فيه. إنفردت بها أخيرا فى البوفيه. بكت بعد أول كلمة، لولا أن المكان

قليل الرواد لكانت فضيحة يعبش على أصدانها الهواة. حاولت أن أفسر موقفي. فشلت. تحبها ولكن الشك دمر كل شيء.

فى أيام القطبعة كاد الهجر أن يقتلك. عز على القلب أن تواجهه العيون التى طالما اشتتهه وكأنها لم تعرفه أبداً. أليس هذا اللسان المخاصم هو الذى تغنى بك فى لحظة النشوة، ووصفك بأنك «رائع» و «مدهش» فكيف أصبحنا غرباء؟

فى اللقاء التالى عرفت أن الخيوط لم تنقطع بعد، قالت «لست عابثة ولن أكون». عال وبالكذب تستقيم الأمور. لعنة الله على التعود. ما العلاقة بين تهتكها وبين أى شيء. ماذا أغرائى بما فعلت؟ قانون العقوبات. «سلمتك نفسى لأننى أحبك، ولكنك لا تستحق». تجاهلت رغبته الطاغية. ستقودها أقدامها إليك مهما حدث. لا تزد الحرق على الراتق. رقم الخطاب الأخير ٤٢. «أه.. أنت تظننى.. م..م..م.. أستطيع الاستغناء عنك.. وعن أى رجل آخر.. حوار لذيذ على أى حال. طبقوا قانون العقوبات يا أولاد الكلب. «كل مرة أبكى وأقرر أنها الأخيرة، وأنا أغتسل أتقى وأقسم ألا أعود.. وكفرت عن ذلك مراراً بالصيام والصلاة». كانت تعود من الحمام منهوكة شاحبة تتصرف بسرعة. «أمى لا تفارق السجادة، وأبى رجل محترم.. لو عرف أخى لقتلنا». لماذا تأخر مجلس الشعب فى نظر قانون العقوبات الجديد؟

- أكرهك وأكره نفسى ويودى أن أقتلك.

لم يحدث. قادتها قدماها إلى الشقة. عريها كان نابضا بشهوة أسابيع القطبعة. دق الجرس. توقف كل شيء. باردة الجثة كميّت. قامت مرتعبة تبحث عن ملابسها. إنهارت باكبة. صرخت فيها. قالت : انفضحنا وانقضى الأمر. لعنتها فى سرى...

قالت بوحشية :

- قلت أن «رياض» لن يأتى، وها هو قد جاء. سينقب فى كل الغرف، وقد يسعدك أن تعرف أن نظراته لى غير طبيعية.

صحت :

- إهدنى «رياض» معه مفتاح ولن يحضر قبل العاشرة.

- هى امرأة البواب... انفضحنا.

انخرطت فى نشيج هستيرى قلت بهمس غاضب: اسكتى. اغلقت الباب عليها بالمفتاح.

شممت رائحة مؤامرة فى الجو.. على الباب رأيت «مريم» :

- عجائب، لماذا تقف هكذا كاخفبر؟ أريد أن أدخل.

بيرود. قلت :

- أيقظتنى من النوم ماذا تريدن...؟..

- عينى على النوم الأفرنجى.. أنا عارفه وشابفة.

تدبر لفضيحة من النوع الساخن..

- إفرضى.. لا أحب المطاردة. وأكره أن يتجسس على أحد...

- وأنا يا روى لا أحب أن يأكل أحد عرقى..

- عرقك!..

استندت برفقها على الباب. هزت رأسها هزة مغناجة :

- طبعاً يا عينى.. منعت لسانى من الكلام وهذا يعرقنى.

مددت يدى بالنقود. ترددت لحظة. سحبتها من يدها إلى الداخل،

دست النقود بيدي بين نهدبها. خلصت شفيتها من شفتى، أبعدت يدي

التي كانت تعبت بجنون فى مهبط بطنها:

- ما هذا؟ أدميت شفتى.. أنت مجنون.

- سأنتظر بعد انصرافها..

هزت رأسها هزة لم أفهمها. سألت «سحر»

- من؟!

وأنا أسحبها للفرش

- مريم المجدلية.

\*\*\*

دخل «رياض» إلى المكتبة. ألقى بحقيبتة المنتفخة :  
- كيف حالكم أيها المحبون الأغيباء؟.

ابتسمت «سحر».

- أنبهك إلى أن أي هجوم سيرد عليه بمثله.

- هذا ليس هجوما، ولكنه حقيقة علمية، الأفضل أن اترككما جلسة  
بها كمية من الغبارة المعتبرة.. ولكن لعن الله الدكتور كمال.. وبحوث  
أعمال السنة وعلم النفس والذين وضعوا تقاويه.

مهدنا :

- هنا مكتبة فأعقل أحسن لك.

- غبي ككل المحبين. الحب نشاط غير جدوى ومضيفة للوقت، كيف  
ينتحر جحش مثلك، وورا عيون جميلة كهذه العيون، وشفاه بوقظ الشوق  
إليها موتى قدما المصريين.

- حاسب

- تسالمت :

- أهذا غزل.

- أنكر باستهانة. قال :

- الليلة عيد ميلادى، وأنا أنوى أن انتحر ولكى يكون وداعاً حافلا  
فأننى أدعوكما إلى جلسة تبدأ من المغرب بـ «مونت بيلا» المقطم...

سحر :

- لا استطيع أن أتأخر، أبى يعتبر المرأة عورة ولاهد أن تختفى بعد  
المغرب.

ساخرا :

- تتسكمين مع المحروس حتى العاشرة، وهناك أعذار سخيفة مثل  
محااضرة مسائية. حفل تكريم أستاذ، مذاكرة مع صديقة... ..  
إلخ.

حسنت المناقشة :

- قبلنا الدعوة فأرحنا من إلحاحك ولكن «مونت بيلا» مكان غير  
مناسب.

- النقود موجودة. طبّ أبى وأرسل مبلغاً لا بأس به. لن نسكر أو  
نشاهد الرقص. فى التراس المطل على الجبل سنظفئ الشموع، وسأودعكم  
وصيتى قبل أن انتحر جادا.

\*\*\*

رغم كل المحاذير شربنا. وحدنا تقريبا مع هضاب الجبل وضوء القمر  
الضنين. أطفأنا الشموع بضجة ابتلعها الفضاء. قاومت «سحر» إغرائنا أن  
تشرب. شربت عدة كؤوس من النبيذ قدمها «رياض» مؤكداً أنها من دمه.

رغم قلتها كفت لوضع ابتسامة بلها على شفيتها.

- لا أطمئن إلا للبيرة، فهي مشروب نظيف.

تصاعدت رائحة المخدر من سيجارة «رياض» قال :

- ولكن «الويسكى» رائع.. أما الحشيش فـ «مدهش».

ناظراً إلى سيجارته المشتعلة.

- نحن فى مكان عام، أتريد أن تبيت فى التخشبية؟

الحلاء هو كل ما يحيط بنا.. لم يبد عليها أنها تهتم بشئ... ..

باستهانة رد :

- نحن نخاف من أشباح، أولاد الكلب لا يطبقون قانون العقوبات،

وما من أحد ممن يجلسون حولك، إلا وهو سكير إبن حشاش أو العكس، فلا

تكن حنبلياً. وصباح اليوم فكرت فى طريقة حديثة للانتحار، فقلت

للعسكرى: يا شرطى، معى نصف قرش حشيش فما قولك؟. سألتنى: غبارة

أم كبس؟. قلت : كَبْس. سألتنى عن ماركته قلت: أمل حياتى. قال: ماركة

ممتازة، ولكننى أنصحك بـ «للصبر حدود» فهي أعظم ماركات الكبس.

تركته ومضيت فعلام تخاف؟. أما أنا فقياماً بمسئوليتى تجاهك أقول لك أن

الويسكى «رائع» أما الحشيش «مدهش».

«سحر» بابتسامة بلها :



- فعلا هو «رائع» و «مدهش» ولكنى أكره المناهضة وأبى منهم.  
فى عينيها نظرة ذائبة أعرفها من طول ما خبرتها، ترد على نظرتى  
الذاهلة :

- ما الخطأ فيما يقول.... إنه «رائع» و «مدهش» وهو كذلك فعلا.  
تنبتهت إلى ما تريد أن تقول. فهقه «رياض» قال :  
- الساعة الآن التاسعة والنصف. بقت على الرحيل ساعة، أما و  
أنتما تشريان على حسابى، ومحتفلان بعيد ميلادى السادس والعشرين، فمن  
حتى أن ألقى خطبة!

ناولته السيجارة. لم أتذكر متى أخذتها.. وقف خطيبيا:  
- المسألة يا أنساتى وسادتى. أننى قررت أن انتحر بطريقة مستحدثة  
ذلك أن كل الطرق أصبحت قديمة ومستهلكة: النيل - القطار - المجمع -  
البرج، ولأن بعض الأصدقاء يتصورون أننى جبان أنشر إشاعة انتحارى على  
سبيل الدعاية لشخصى الضعيف. فإنى أعلنهم أننى أبحث بجديّة مفرطة،  
وأنهم إذا أشاروا علىّ بطريقة حديثة، فسوف أنفذها فوراً. ولا بأس من  
استعراض معلوماتكم التاريخية حول أشهر وسائل الانتحار.

سحر : كليوباترا والأفعى!  
- كانت عابثة، ولن تتحكم فى أفعى مع العلم أننى أكره  
«الأفاعى».

- الأرشيدوق.. ولّى عهد النمسا وعشيقته..  
- جميل ولكن أبين لى عشيقته الجميلة.  
بإشارة من يده رفض الانتحار الهتلري.

- إننى ضحيته فكيف أقلد طريقته.. هل غلب حماركم؟ بحثت فى  
تاريخ الرهبان البوذيين فى فيتنام. إنها طريقة مثيرة، ولكن لماذا أحرقت  
نفسى.. و علام احتج؟ فى البداية قررت أن أحرقت نفسى أمام أبى فقد  
صفعتنى بكفه الضخمة لأنه وجدنى وأنا طفل أعيت بأعضائى الجنسية، ورغم  
أننى كنت سعيدا لحظتها فقد انهال على ضربا.

سحابة صحو، قلت :  
- «رياض» كفى.

السيجارة بين شفتى «سحر» لا أدرى كيف وصلت إليها. بابتسامة  
سارحة أكمل :

- فى الصيف الماضى، أردت أن استعرض أمامه اعجابى بـ «إيمانويل  
كانط» وفلسفة الشك، فبصق فى وجهى، لذلك أردت أن أحرقت نفسى  
أمامه.....

- .....  
- فكرت أن يكون لانتحارى سببا سياسيا، فوجدتها جميعا تدعو  
للانتحار واحترت فى تفضيل أحدها على الآخر.

سحر :  
- لماذا لا تبحث عن سبب غرامى. هذا بكسبك عظفا كبيرا على  
المستوى الشعبى؟..

- حبيبتى لا تستحق الانتحار من أجلها فهى خائنة.  
- المجرمة.

- بالعكس أنها «رائعة» و «مدهشة».  
وبصرى المرتاب يتنقل بينهما :

- لماذا تكرر هذين اللفظين.. كأنهما كل قاموسك.  
سحر بضحكة ذات ذيل عابث :

- لا تناقض بين هذه كليهما. أعرف انسانا «رائعا» و «مدهشا»،  
ولكنه فى نفس الوقت مجرم.

- خفت أن أترف لها بحبى فيظننى أبى عدت للعبث بأعضائى  
التناسلية.

- أخذت الشر وراحت..

- نعم.. لكنها راحت به إلى غرفة نوم رجل آخر..  
ناولتها السيجارة الثانية دون أن أشعر.

## الغربة فى شارع كثيف الزحام

« .. إلى طاهر البدرى »

١  
ضلال شاحبة فى مطبعة سيئة السمعة

ما أطول الطريق. ما أخنق زحامه. أن تبدأ رحلة بلا سبب أو هدف، ذلك هو العذاب. تبحث العين عن لحظة فراغ تسرح فيها فلا تجد. كتل البشر جدران صماء. وتحلم مرة أخرى بالفراغ السعيد، فمتى يكف القلب عن الحلم؟ كفانا ما حصدنا من هشيم. تأمل هؤلاء الناس: كم كان السير وسط مواكبهم يوماً نشوة القلب والروح، أحب من الحياة، أشهى من القبل. ويقول إنسان قديم يحتضر داخلك: ذاك كان زمن ومضى. ويقول رأسك التائه أبداً بخدر المنوم: حتام تعود قدماك المنهكتان بقبض الريح؟ نُكَب العمر بالأحلام. وليكن لنا فى راحة اليأس ملجأ فى زمن عزت فيه الملاجئ.

بيد أن القلب يخون رغبتك فى راحة اليأس. ويقود الأقدام المنهكة مع هذا الصديق القديم. إلى أين؟ لا تدري. فلنسر دون سؤال. ويوما قرأت أن عذاب الإنسان قد بدأ بسؤال. وعشت تعشق علامات الاستفهام. والرحلة بدأت مغربة، وها هى تتحول إلى عذاب. وهو يستحث أشواقك الخاملة

-المجرمة.  
- ولكنها فاتنة وذات ثلاث شامات: واحدة فوق النهدي الأيسر، وأخرى فى أعلى السرة، وثالثة فوق مهبط البطن بقليل.

صحت  
- «رياض»... أن لنا أن نعود

٥  
تنفيذ الحكم

ونحن ننحدر فى شوارع المدينة الجبلية شعرت بدوار. تقيأت «سحر». معدتى كانت عاتمة. هاجنى قينها. أفرغت ما فى بطنى. نظر «رياض» إلى إفرزاتنا. قال:

- تغذيتما بقدونس، وهو مضر للقلب والمعدة كالأسبرين. هددنى أبى بالنفى من ملكوت السماء، ولكننى ضبطته يدب على خادمتنا الطفلة ذات لبلة. ويصلى فى الصباح.

ضحك وغنى «ليه عزيز دمعى تذله كل ساعة بين ايديك». كان أحسننا حالاً رغم سُكْره البين. مضينا نبحث عن تاكسى يقودنا إلى المدينة. وقف فى منتصف الطريق وواجهنا قائلاً:

- يا صديقى إننى محصور تماماً. ساعة وأنا أقاوم مشاة تكاد تنفجر، وذلك تطهر لا يلبق، وتزمت لا معنى له، وما أمتع أن يتبول الإنسان على هذه المدينة من ارتفاع شاقق كهذا.  
ومضى فى الظلام.

للمجهول. لنصير قليلا، فرما جاد الزمن بلحظة مسرة تعوض القلب ما يعانیه من خيبة.

كنت قد حفظت صديقي كما أحفظ جدول الضرب، ونشيد بلادي بلادي... ولون عيني زوجتي :  $9 \times 7 = 63$  ،  $8 \times 8 = 64$  ،  $4 \times 4 = 16$  . بلادي. بلادي. لك حبي وفؤادي. مصر يا أم البلاد. أنت غايتي والمراد. وعلى كل العباد. كم لنيلك من أيادي. عينا زوجتي واسعتان. سنجابيتا اللون. انسانها أزرق كسطح بحر في مقلة شمس. بياضها ناصع.. في لحظات الكدر تشويه عكارة كالرماد. صديقي «صابر سعيد عبد السلام الكرداني»، أحفظه منذ خمسة عشر عاما. عمر عذراء صغيرة كالبنيت الساكنة أمامي. عرفته «باحكا وعابسا. عاشقا وزوجا. سجيناً وطليقا. مريضاً يمزق السعال صدره. مندبله الأبيض يعود مبرقعا ببتع دم أحمر قان. حكي قصة غرامه. قصيرة كالقزم كانت قصته: نظرة فابتسامه فكلام فغرام فزواج فسجن فطلاق ففراق. مررنا معا بين صفين من العساكر. تتحرك عصيهم الغليظة فتتهوى علينا. ضخما كان. طويلاً عريضاً. وجهه طفولي. كذلك قلبه. يوم ماتت أمه بكى. أكره البكاء في الزحام. أحبه في سكون الوحدة. انحنيت بومها عليه. قلت:

- تتهمني بما تعرف، وها أنت متلبس بلحظة ميتافيزيقية.

ابتسم ابتسامه محزون قديم. قال :

- ولكن العين تدمع.. والقلب يحزن..

وتلا القاري، في ركن من رأسى «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة» قلت : نحن عراة تماما فأين زمن البروج المشيدة؟. حائط واحد نستند إليه يا أولاد الكلب. الرصاص ينطلق وما من ساتر، والصواعق تتوالى وما من مانع. السيارات سارحة مسرعة. تدهننا. تقضى علينا. لحظة أمان واحدة، ذهب زمن النوم المريح. ومن الذى نبهك إلى أن كلمة «قرير العين» لم تعد تستخدم؟. صديق فى المجمع اللغوى؟. أظن ذلك. فكرت أن أقوم.. أمشى فى الشارع. أسمى نفسى «عمر قرير العين

الدهشان». أحمل جردل بوية بيضاء. فرشاة ضخمة. على أرض الشارع أكتب. على حائط السينما أكتب: «أريد أن أنام قرير العين»، «عاش النوم بلا كوابيس» «يسقط بعوض الأنوفليس وذباب التسي تسي». قرأ القارئ «والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا. وأولئك هم المتقون». أغمضت عيني. قلت أنتى فى حاجة إلى حبة من منومى المفضل. رؤوس مليئة بالهم، وعيون أذبلها السهد. شهوات منطلقة بلا رقيب. جرائم تدبر وما من مراقب. ومخير يسرح وراء فكرة خيرة. لافتات مرهقة. كوفى. رقعى. فارسى. نسخ. فلتكن لى لافتة. يد تخبط ردفا سارحا كقبة ولى. ومرفق يحتك بنهد لم يعرف عبث العابثين بعد. خبز فوق دراجة بقودها بهلوان يخترق الزحام. أفواه زاعقة تعرض بضاعة. ومن من مشتر. اتفاق على ليلة غرام فى ركن. شيخ يبحث عن مسجد نذر أن يصلى به. صديقى يعايب فكرته الغريبة. يوما سألتى وها هو يعبد السؤال :

- هل طبعت لنفسك بطاقة زيارة؟

نفيت ذلك دهشا. قال:

- هذا خطأ جسيم.. يجب أن تكون لك بطاقة.. «كارد فيزيت».

ضحكت. شقنا الزحام نصفين. اختفى عن عيني.

البنيت الساكنة أمامى فى خطر. لو أملك الشجاعة كى أحذرها من اللعب بالنار ولكن ما شأنى. ليلة قلقة. فشل النوم فى أن ينيمنى غشه الغشاشون كما غشوا كل شىء. وقفة حائرة بالشرفة: أه طفلة صغيرة تقفز إلى شرفة رجل فى ظلام الليل. اختفيا فى الداخل. ظللت واقفا حتى عادت. ذلك النهذ الطفل الذى لم يتعد عامه الثالث. كيف تعصره فى الظلمة كف سفاحة؟. هل تملك الجنون لتصرخ محتجا؟.

فجأة وجدت «صابر» إلى جوارى. قال :

- لا أحد من هؤلاء له بطاقة.

فكرت فى أن المنوم الذى آخذه فقد مفعوله. (بدأنا بالليبريوم ١.

ملليغرام، ثم الليبيريوم ٢٠ ملليغرام. حبة صفراء صغيرة. تحت اللسان تدور. يد رحيمة تتسلل تحت الجلد. تمسح الأعصاب. تهددها. يبدو النوم قريبا. يختفى ذباب التسي - تسي. تموت على سطح الزجاج بعوضة أنوفليس حقيرة. أثناب. أضع رأسى تحت الوسادة. أنام، انتهينا بالفاليوم. حبة بيضاء سمبكة. وكوب لبن ساخن فى اثرها. ضحك فى الحجاب الحاجز تكسل الحنجرة عن النطق به. ابتسامة بلهاء. ليذهب كل شئ إلى الجحيم: الماضى والحاضر والمستقبل. ملعون فى كل كتاب : الحزن والقلق والخوف. بدأنا بالليبيريوم ١٠ ملليغرام فى سجن القناطر سنة ١٩٤٩، وانتهينا بالفاليوم وكوب اللبن الساخن «ونوال جلال الدين» فى ١٠ ديسمبر ١٩٦٦. تصفيق حاد).

عاد «صابر» من كثافة الزحام :

- أين أنت يا رجل.. ما رأيك فى موضوع البطاقة ؟.

- معى بطاقة عائلية فيها اسم زوجتى وابنتى. فكرت فى إلغائها. خفت أن ينقص مقرنا من السكر والزيت.

ضحك. ضحكته عالية كطفل يكره الأصول. وضع ذراعه فى ذراعى. (أمس عاتبتنى زوجتى، لأننى عندما نسير معا لا أضع ذراعى فى ذراعها. عجبت لأنها تهتم بذلك. قالت: أنت ما عدت تحبى. قلت : لسنا أطفالا صغاراً. عاتبتنى بسمتها. سرح الكدر رماديا فى بياض عيونها الناصع. قالت : لم تكن يوماً صغاراً، وكنت لا تترك يدى، ولا يخف ضغطك عليها بل يزداد، فعماذا حدث ؟. عذابنا بدأ بعلامة استفهام. نشوتنا بدأت بها أيضا. كاسفا قلت : الدنيا حر أخشى أن تعرق كفى على ذراعك).

ها هو ظلى يسير إلى جوارى. ترحل الشمس الآن وتولد فى الصباح. نحن نرحل دون أن نولد. ذلك الظل من لى بتحديد مثل تحديده ؟ وكيف يتأتى أن تكون له هذه الخطوط الحادة ؟. خلاياى لا يجمعها شئ. قال :

- ولكنك لا تستطيع أن تلغى بطاقتك العائلية ؟.

ضربنى واحد بكتفه وهو سائر. دهشت لأن لى كتفا. تحمسته فرحا بوجوده. قلت:

- ما معنى أن تكون لك بطاقة، فيها اسمك وتاريخ ميلادك وبصمتك ؟. هذا شئ سخيف جدا.

سعل سعلة أطول من المعتاد فعاردنى القلق القديم. قلت إن رحمة أدركته قبل أن يقضى عليه الذاء. وإلى متى يحتمل صدره العليل معاناة الحياة؟. ها هو يبدو قويا يدب فوق الأرض بعنف. كأن الموت لم يسكن صدره شهورا طويلة. شاهد على أن الحياة قاهرة الفناء منذ القدم. لكن محكمتك لا تؤمن إلا بشهود الزور.

\*\*\*

(بالقرب من القلب الطبيب اختبأت يوما متفجرات الموت. سهر أكثر من طبيب يتعهد الخالة بقلق. يومها شممت رائحة الموت. ما أتعبس أن تموت غربياً دون أن تنوح عليك امرأة، يتفجر قلبها بصراخ الاحتياج: يا سبعمي.. يا سبعمي... يا حارق مهجتى. فى الغربة تموت. لست سبعا ولا ضيعا. تبتل فرحا صدور الكلاب. يصيحون : مبروك، انتهينا من واحد منهم.. العقبى لمن بقى. فى فناء السجن عقدت اجتماعات سريعة. تحت نظر الحراس، تبادلنا الكلام همسا. ونحن فى الجبل يوماً. قال واحد بجوارى:

- سنكون كلابا حقاً إذا صمتنا. لا يد من نقله إلى المصححة.

تحدث واحد عن العقل. قال آخر ضاحكا: وقعنا فى يد من لا يخافه ولا يرحمنا. ثبت «حلمى» نظارته الطبية بعد أن انزلت بالعرق. قال :

- كطبيب أصرح أنني لا أضمن حياته إذا لم ينقل إلى المصححة.

عاد يمسح نظارته من تراب الجبل. رفع «الأزمنة» هوى بها على الحجر الصلد. حملت «المقطف» على ظهري لأعود بالحجارة المتكسرة. قال :

- أمس منعونى من الدخول إليه. يريدون إخفاء حقيقة المرض عنا.



قلت : تناقش الأمر فى المساء وما يتفق عليه بنفذ.

فى الظهيرة خرجت لأعود بالغذاء. الأرض رمال ساخنة. قدمى العارية تدوس حصى كالجمر. لا نسمة هواء. قطعة برية تنهش لحم عصفور نتن الرائحة أمام باب المشرحة. ذباب دانخ بالجو الخائق يطير فى سرعة هستيرية. نظرت داخل المشرحة عبر خصاص نافذتها. كانت مظلمة مليتم بأسرة قديمة. أرعجف جسدى فجأة برعب خانق. سكن القلب هم مقيم. تركت الدلو أمام باب المستشفى. قال «الشاويش متولى»:

- إلى أين ؟

- عندى إسهال.

مستريباً، قال :

- إمش عدل، إلى الأجزخانة طوالى...

وضعت السبجارية فى يده. ابتسم ابتسامه لص محترف. قلت إننى لن أدخل حتى المساء. لم بيد ذلك مهما لحظتها. لمحت تدهوره السريع قبل أن أصل إليه. خطا ناحلا قد كان. ساقاه رفيفتين كعصوين من البوص. عينا غائرتان كأنهما لا شىء. شاربه الكث يلتهم نصف وجه. عروق الرقية بارزة. ما أشره المرض. وكنت تبحر دائما عن «أمننا الغولة» كما صورتها حكايات الصبا. فتأمل ما يمكن أن تفعل باللحم الحى. ما كاد يتكلم حتى دهمته نوبة سعال متصل. انتفخت عروق الرقية، كادت تنفجر. قلت:

- لا تتكلم.

دهمتنى رائحة «الدبتول». كرهتها من يومها. أصبحت رمزا للفناء

قال:

- لا أمل.. أتسع ثقب الرئة اليمنى.. ولبلة أمس لم أنم لحظ

واحدة...

عاد لهاثة يتزايد. محاولا الابتسام قلت :

- لا تكن ثقيل الظل. دور ثلاثة يسلم عليك. وقد طمأننى «حلمى» أمس. فلماذا اليأس؟

- بصاقى كله دم أحمر، والحالة أوشكت على الانتقال للدرجة الثالثة..

خفق القلب مُوجعاً. صداقة العمر توشك على الانقصاص. لا أمل فى أن تسمع أذن صرختنا فى هذا المكان الموحش. وسط الكلاب نعيش. من ينجدنا فى ظلمات الليالى؟ لن يبدو هزلاً أن تحمل مصباحاً وتذهب إلى إدارة السجن فى عز الظهيرة. تتشمم وتبحث. فإذا سئلت فلتجيب بأنك تبحث عن إنسان. ستبدو نكتة. لكننا فى زمن ضحكه كالبكاء. ابتسم ابتسامة قصيرة. قال :

- أكره أن أعذبكم معى.

تزايد الهمس فى المساء. جاء واحد من دور ثلاثة يسأل:

- الزملاء فوق يسألون عما ستفعلون.

قال «حلمى» متجهماً :

- فى الصباح ستقول لهم.

تأملت وجهه الصلب بأمل. قلت إنه يستطيع أن يفعل الكثير.

كان عقلاً محضاً حتى ليخيل إلى إنه لم يعرف البكاء أبداً. وعيناه رغم الزجاج تبدوان كاشفتين، فى وهجهما يستحيل الكذب. قلبوا الأمر بحثاً وشرحاً. كنت منهكاً. حملت مائة «مقطف» من الحجارة. كتفى تؤلمنى. تابعت المناقشة ساكناً. تحدث «حلمى» عن تطورات المرض. سأل واحد: أكان مريضاً قبل السجن؟. لعن أكثر من صوت الأسفلت البارد والنوافذ المفتوحة وزمهير الشتاء. قال آخر: والغطاء المهلهل والغذاء السيئ. وتساءل عاشر: ومستشفى السجن؟. «حلمى» بصوت حاسم : زقت وقطران. مستشفى بدائى لا يصلح لعلاج الدوسنتاريا فكيف بالدرن؟. الاسم مرعب. سرحت أثناء المناقشة. إلى قريتنا طرت. أكلت فطيراً وعسلاً أبيض



مع أمي. لبست زوجتي ملسا ريفيا فبدت فائنة فيه. خرجت إلى الشارع تزور بعض القربيات. عدت من قرنتى محملا بالغبار وكومة من الهموم. كان القرار بصاغ. قال «حلمي»:

- سأبلغ الأمور غدا أننا سنضرب عن الطعام إذا لم ينقل «صابر» إلى المصحة خلال أسبوع..

وافق الجميع. تساءل أكثر من صوت: وترتيبات الاضراب؟ .. قال: سيقوم بها «عمر الدهشان». صمت لحظة قال:

- أريد تفويضا بأن أتعامل معه حسب الموقف..

طلبوا توضيحا، اهتز شاربه الكث:

- يعني.. إذا قلّ أده أو طالت يده عاملته بالمثل..

وافقوا بعد مناقشة مرهقة.

\*\*\*

انشق الزحام عن لافتات متشابهة: «حاتى الحرية». «فطاطرى المشهد الحسينى». «مكتبة محمد على صبيح وأولاده». «الستر». «الجامعة الأزهرية». قال صابر:

- أيها الرجل الفاليومى.. إلى أين ذهبت؟

- آه.. كنت أفكر فى «حلمى».. ستحضر استقبال «نوال» فى

المطار غدا؟

- طبعاً.. لا شئ ورائنا. ولكن قبل ذلك يجب أن تكون معنا بطاقات.

وقفنا نشرب عصير قصبه. كان غريب الرائحة. ذكرتنى لذعته بالحمر الذى كنا نصنعه فى السجن. كادت معدتى تنقلب. ما أبشع كل هذا.. قلت:

- تتكلم كلاما غير مفهوم، أرهقتنى متابعتك.

- أنت رجل فاليومى وهذا يكفى.  
نفخت ضائقا..

- لم أعد استجيب له. وأمس سألت «حلمى» أن يجد لى بديلا عنه. صاح ساخطا أنتى أستغله استغلالا سيئا.

ضحك ضحكته الجمهورية العالية. نظرت إلينا بنت بلد بدهشة. علقت عينى بعينيهما. شأقتنى حيوتها ودعوة عبث برىء فى نظرتها. قال:

- ولكن زوجته، باعتبار ما سيكون، هى المسؤولة عن تحويلك إلى الحالة الفاليومية..

أطولها المنسجم، نطقها للفظة «البوستبش»، واللدغة وهى تقول «البيروك». حكمت زوجتى بأنها مدعية وتافهة. التقيت بها أول مرة فى عيادته. قدمها قائلًا:

- مدام «نوال جلال الدين». صاحبة معمل لرسم القلب، وتحتكر رسم القلب لمرضانا.

التفت إليها قائلًا:

- وهذا يا ستى «عمر الدهشان» الذى حدثتك عنه.

ابتسمت ابتسامة واسعة. قالت:

- روى عنك «حلمى» الكثير.

- خيرا؟

- إلى حد ما.. وهو يقول أنك أظرف من يسكر فى العالم.

ضحكت قائلًا:

- غيبة وغيمة لا تصدران إلا عن وغد مثله..

- سمعت أنك كنت تسكر بعسل أسود مخمر، فما رأيك فى

الويسكى؟

- أموت فيه.

يوما فى الهاوية التى تغفر فاها لتبتلعه وتبتلعنا.. وقلت يوما أن عمل زوجها معروف. فكيف غاب ذلك عن «حلمى». سألته. قال:

- هذا شئ قديم.. وقد انفصلت عنه، نحن أبناء اليوم.

لم تقنعنى الإجابة. ليلة غاب الويسكى بوعينا. ضحكتُ كما لم أضحك طول عمرى. كدت ألعب لهم الوسطى لولا لحظة صحو طارئة. ألقيت شعرا حزينا. تحدثت عن فلسفة الحزن، وعن أمى التى علمتنى أن أبكى وأنا بعد طفل. كانت فى قميص نوم شفاف تتفجر أنوثة وحبوية. صاح «حلمى» هاتفا بحياة الشعب.. ضببت مسكرانا بكذب لأول مرة فى حياتى. قالت:

- أنا حزينة.. أشعر أن «صابر» يكرهنى. لا يقبل على سهراتنا.

- «صابر» إنسان جاد أكثر من اللازم.

- .. عملت ضدكم سنوات.. لكنى لم أكن أعرفكم..

كانت الليلة تشجع على البوح. تحدثت كثيرا عما فعلت. استبشعت أمعائى ذلك كله. قلت أننا نحضن جلادينا بكل غياب. فماذا حدث؟ ولماذا فقدنا قدرتنا على المقاومة تماما. وعدت من الحمام: بعد أن تقيأت كل ما فى جوفى وغسلت رأسى. قطعت عودتى مشروع قبله. نحيت وجهى متجاهلا. قالت حزينة:

- ومرة علمت أن واحدا من الذين عملت ضدهم قد مات فى السجن، فبدأ عذابى..

حطّ علينا الصمت، يده تحييط بشعرها، تعابثه، استمرت:

- وظللت أسبوعا لا أنام.. وأصبت بانهييار عصبى كامل.

طلب منها أن تصمت.. استمرت:

- ولولا «القاليوم» ما استطعت أن أنام..

من تلك الليلة عرفت «القاليوم» لأول مرة.. فيا للفظاعة!

\*\*\*

قالت وهى تنصرف:

- عال.. سأنتظرك مع «حلمى» غدا..

قال «حلمى» مصافحا:

- ها أنت ترين أنه خجول، والواقع أننا لا نعرف شخصا اسمه «عمر».. نعرفه بإسم «عمر حورية» نسبة إلى زوجته التى لا يسير أحدهما بدون الآخر..

وجهت الدعوة إليها.. مضت تاركة عبيرا طازجا فى الغرفة.. قلت ضاحكا:

- يا ابن اللثيمة.. ولماذا لا تشخذ دعوة لزوجتك!؟

بضحكة عالية.. قال:

- دعوت «حورية» لكى أضمن ألا تنافسنى أنت!.

هكذا دخلت دنيايا.. ذلك الوجه الآخر من الحياة، كيف غاب عنا؟ ها أنت تكتشف جهلك بالكثير من الأشياء.. وحتى فى عالم النساء تبدو غيبياً وأحمق. فلنتعلم مرة أخرى كيف نعيش!

بنبرة ساخرة قال «صابر»:

- سيكون زواجنا رانعا.. تعود «نوال» من بيروت غدا، بعد أن حصلت على الطلاق من زوجها.

- وفى الشهر الماضى طلق زوجته..

- شئ جميل جدا.. ألم تفكر فى زيارة مطلقتة؟

نفخت بغيظ قائلا:

- «حورية» معها باستمرار.. وعندما رأتنى أسمعتنى كلاما قارصا.. ما ذنبى!؟

(تعلم أنك كاذب.. كان يتدهور يوما بعد يوم وأنا معه. لم أفكر

اشعلتُ سيجارة. اقتريت محتما به من سيارة مسرعة. قال :  
- زرت مطلقته هذا الأسبوع.. رتبت لها شؤونها المالية.. صديقنا  
يتصرف بنذالة حبقبية.

دافعت عنه دفاعا ضعيفا.. قال :

- إنه طبيب معروف، ومكسبه كما تعلم.. لكنه يريد أن يجوع  
أولاده ومطلقته ناسبا ما تحمّلته من أجله ومن أجلنا.

- لا داعى لأن تشتبك مسائل خاصة بمسائل أكبر منها وأهم بمراحل.  
ضحك بشدة، وجرنى فدخلنا «كفر الطماعين». قال :

- هذا ما قلته لها. وقد وافقتنى، وقالت أنها لم تنتظره، ولم تكن  
تضحى من أجله فقط، لكنها فعلت ذلك من أجل أشياء أهم.

شعرت براحة مفاجئة. قلت أن هذا يوفر علينا الكثير. ومنذ متى  
نسبنا هذه الشوارع الضيقة المزدحمة بالجوع والفقير والمرض: فى هذا الحى  
يقطن الشعب الذى تعذبنا به كثيرا، فكيف تنكر أنفك رائحة حياته القذرة.  
هنا يموت رجال من نقص الزاد وهجوم الداء. ويقتل الرجل أخاه من أجل قرش  
واحد كما تروى الصحف أحيانا. لكن ذلك أصبح مجرد كلام كموضوعات  
الإثشاء التى كنت تأخذ فيها الدرجة النهائية. فذقت امرأة بما قدر جاء تحت  
أقدامنا. تأملت خلقتها المشوهة والقذارة فى أقدامها. قلت : لا مسرة لأحد  
هنا. والنوم مع هذه المرأة لا يمكن أن يكون نشوة، ولكنه عذاب. قال:

- .. ولكنها، (أعنى مطلقة «حلمى») قالت أن الموافقة على الجرائم  
الصغرى، يعنى الموافقة على الجرائم الكبرى...

تدبرت الجملة مركت. وقلت إن شيئا لم يعد يهمنا.

\*\*\*

(وفى كل مرة تنتقل البنت الساكنة أمامى عبر الشرفة إلى حجرة نوم  
جارها. أظل أنتظر عودتها بقلق. وفى الصباح أتأمل صباحها النضر. وأعجب  
كيف اتركها تنحدر. ومرة حدثتني النفس الأمارة بالسوء، أن أقاسم صاحب

الشرفة مكاسبه. شرفتها وسط شرفتيها. والذى ينتقل إلى شرفة اليمين.  
ينتقل إلى شرفة اليسار. وقلت أننى استحق عن جدارة لقب الوغد).

تهنا فى الشوارع الضيقة. المنفصلة المتصلة، كبيت جحا. وهو يسأل  
عن عنوان. قال:

- وأنا أناقشه مزحت معه مزاحا ثقيلًا.. اقترحت عليه صياغة  
مبتكرة لبطاقة الدعوة، ولكنه زعل.

- أعرف أن مزاحك قاس.. ماذا حدث؟

- قرفان.. ومع ذلك فهى مجرد نكتة. لم نعرف الزواج التقليدى:  
أحبك يا زميلة. وأنا أيضا. ما رأيك فى أن نتزوج؟ لا مانع. حتى يدهمنا  
أولاد الكلب ويلقوا بنا فى السجن. وفى نفس اليوم نذهب للمأذون. وبعد  
شهر تكون أنت فى سجن أبو زعيل، وهى فى سجن القناطر. ونبحث عن  
شاووش جوعه أهم من وظيفته فتتصل المودة برسائل غرامية. ألم يتزوج  
«حلمى» أول مرة بهذه الطريقة.. فلماذا يطبع بطاقات دعوة مذهبة.. وهو  
يتزوج من امرأة سكند هاند؟!.

ضحكت قائلا :

- أنت أقسى مما ظننت.

- أنا لم أقل له شيئا. اقترحت عليه أن يكتب على غلاف البطاقة  
«زواج زليخة وعاشور». فأثار مشكلة كيف يكتب مهنة «نوال» فى  
البطاقة. هل يزعم أنها دكتورة كما يفعل؟. أما أن النقابة قد تعلن أنها  
ليست كذلك، فاقترحت عليه أن يكتب تحت اسمها: من أحدث بيوت الطبقة  
الجديدة. فلوى بوزه..

تقدمنا . غنى : زليخة بتحب «عاشور» .. و«عاشور» بيحب  
«زليخة»

- أين نحن ذاهبان !!.

- أعرف مطبعة هنا.. أريد أن أطبع بطاقة باسمي..

دهشا :

- ما السبب ؟

- لا بد أن يحدد كل منا بالضبط من هو ؟

قلت أنه قاس. ولكن قسوته تعتمد على حقيقة ما أنحدر إليه حالنا لكن من الذى يستطيع مقاومة لحظات الضعف إلى الأبد.

\*\*\*

اشاجر «حلمى» مع المأمور بسببه. تبادلنا سُبَابًا مقذعا. ضربه العساكر بالأحزمة الجلدية السميقة. عاد دامى الوجه. شُقَّت شفته السفلى. لم تنزل آثار الجرح واضحة. بدأ الإضراب. فى اليوم التاسع منه، قال المأمور: سننقل زميلكم إلى المصلحة فتناولوا طعامكم. صمتنا ولم نرد. كان فمى ملهى ساعتها. بَلَّلت لسانى بالماء. أشحت بوجهى عنه. فى اليوم العشرين جاءت عربة الإسعاف. تحاملنا على أنفسنا. شاهدتهم وهم ينقلونه على نقالة مستطيلة. كنت ضعيفا لا أكاد أقدر على المشى. سرت بجواره و«حلمى» معى. قال «حلمى»:

- شدْ حيلك.. لا تستسلم للأوهام. حالتك عادية. وبالرعاية تسترد صحتك. غامت عيناه. انقلب لونهما بيضا كله. هز رأسه باهتسامة شاحبة. قال:

- إسمع.. عندى عشرون قيراطا فى البلد.. إذا مت.. ف..

وضعت يدى على فمه. منعته من الكلام. شوحت بيدي مودعا. كان الغروب بهيظ وانبا على فناء السجن، والشمس قانية. عصافير كثيرة تتقاذف هناك. أخفيت وجهى فى حائط.. وبكيت.

\*\*\*

لافتة ناحلة. فقد سوادها لمعته. كتابتها البيضاء باهتة. قرأت بصعوبة «مطبعة العدالة الكبرى لصاحبها محمود المهدي». الرجل أثر من

-١٣٤-

عهد باند. على صندوق الحروف انحنى. عيناه الضعفتان محاطتان بنظارة سميقة. عندما قام اكتشفت انحناءة غير يسيره فى قامته. والمكان رطب ومُظلم وموحش. ماكينة القص فى الركن الأيسر. عاد إلى ركنه متسانلا عما نريد. قال «صابر»:

- أريد أن أطبع «كرتا» باسمي.

- حرف أم أكلشبه ؟

- حرف.. ١٨ رقعة أبيض..

لم يتحرك من مكانه. عاد للمقاطه مواصلا التقاط الحروف. قال :

- العلبة ١٥ قرشا. وكل مائة زيادة بعشرة قروش. عندك قلم. أكتب

الكرت..

انحنى صابر على منضدة صغيرة بجانب ماكينة القص. كتب

صابر الكردانى

ثائر سابق - حاليا شيطان أخرس

١٨ شارع مراد - الجيزة

ابهتست مذهولا. قلت إن الجنون يدهمنا. ناوله الورقة. لم يمد يده،

قال:

- اقرأ وسأحفظ..

سمع بهدوء. استرجع الكلمات. قال :

- نحن نأكل عيش يا أستاذ. هناك «خمارة» بجوارنا إذا أردت

الفرشة.

-١٣٥-

ذلك الجنون كيف يتساقط علينا ؟. وقديما قالوا إن رؤوسنا أخطر ما  
فيها. فيا للكارثة التي تأكلنا.

سعل «صابر» . قال :

- ولكنى لا أمزح يا «أسطى محمود»..

ترك الرجل ما فى يده. التفت إلينا. قال وهو يلف يده حول رأسه فى  
حركة دائرية :

- هل حضرته... ؟

قلت ضاحكا :

- لا .. ومع ذلك ما شأنك أنت.. أطيع له ما يريد.. وخذ نقودك..

دعانا للجلوس على دكة خشبية بجواره. قال :

- كيف يا أستاذ ؟. لا بد أن أفهم. ما معنى «ثائر سابق». هل

حضرتك وفدى؟

- لا !.

- أنت أصغر منى بكثير، ولا أذكر أنى رأيتك بين عمال العنابر

أبدا..

شاقنى الحوار. قلت :

- ألا يوجد ثوريون غير هؤلاء يا عم «محمود» ؟.

ضحك الرجل وقال :

- هذا عن أماننا.. أما أيامكم.. القصد.. حضراتكم إيه ؟.

همست فى أذنه.. ابتسم قائلا :

- آه.. أنتم يتروع الحيز والحرية.. أهلا (ثم بعد لحظة) ولكنى آسف..

لن أطيع الكرت.

- لماذا ؟

- مطبعتى سيئة السمعة.. تدهمها الشرطة فى كل وقت.. والكرت

مريب..

تسامت عما أساء سمعة المطبعة.. قال :

- طبعنا بها زمان منشورات «اليد السوداء».. و «جماعة

الانتقام».. وكان «أولاد عنایت» يجلسون عندى قبل أن يقتلوا السردار..

ألف رحمة ونور على الجميع..

- ولكن هذا تاريخ قديم.. فلماذا يلاحقونك ؟.

- ذاك شأنهم.. والأدهى من ذلك أننى عندما كبرت وأصبح نظرى

على قدى جئت بمن يعيننى على العمل فزاد الطين بلة..

تسامت عيناى. انحنى فأخرج نصف سيجارة. أشعلها. قال :

- طبع بدون علمى كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه ووصفات لتقوية

الباه» وأخذ يوزعه. فكبس بوليس الآداب المطبعة..

جلجلت ضحكات «صابر». نظر إليه الرجل دهشا. قال :

- لا تزعل يا عم «محمود»، تضحكنى أحيانا النهايات الهازلة

للأشياء المجادة.. ولكن لعلها لا تكون نفس الحروف التى طبعت بها

منشورات اليد السوداء.

قال الرجل مبتسما كأنه أدرك النكتة :

- لا .. الأخرى راحت.. عرفت واحدا منكم أيام الحرب.. طبعت له

ما جاء به. وطلب صندوق حروف ليشتريه فأهديته صندوقى القديم..

تزايد صيحات «صابر». قال :

- أيها الرجل العجوز.. كيف لا تعرف «صابر الكردانى».. هل أذكر

لك علامة. حرف العين كان ناقصا سيع قطع. وَعَدَّت بتدبيرها ولكنى لم

أعد مرة ثانية..

رفع الرجل رأسه. بانث على ملامحه معاناة التذكر. صاح :

- أهو أنت ؟..... يا مرحب..

احتضن كل منهما الآخر فى شوق. ووقفت أنظر إليهما حائرا.

\*\*\*

إلى الزحام عدنا. أقبل المساء على استحياء. الزحام عتمة متحركة.

-١٣٧-

-١٣٦-



صمته طويل أطول من المعتاد. أشرت إلى محطة الأتوبيس. قال : بل نمشى. ستنفخ زوجتى عابسة وتقول : لك بيت فكف عن التصعلك. غبت بالليالى دون أن تنفخ. ذكرتها بذلك قالت: كان وراءكم ما تفعلونه. أما الآن فالتصعلك مريب. شغلنى أنها بدأت تغار. بدا الأمر مبهجا فى البداية. أصبح بعد ذلك مزعجا. أخبار الانهيارات تتوالى. البيوت التى صمدت لعواصف الزمن فاحت منها رائحة العفونة. قالت مرة : فقدتم الكثير حقا. ولكنكم ناكرون للجميل. قلت: «حورية». لا تبالغى.. حوادث فردية، والطلاق يحدث كل يوم. هَمَّهَمَت: أنتم تطلقون كل شىء. بعد الانتظار الطويل ؟ ففيم كان العناء. لماذا يطلق «حلمى» زوجته من أجل هذا الشىء المسمى «نوال»؟.. نفخت وقلت : التغيير قانون الحياة فلا تزيدى تعاسى. وضعت الكريم على وجنتيها ودارت بمقدمة كفها تنشره فى حركة دائرية. قالت: ولكن النذالة ليست قانونها. تابعت اهتمامها بتجميل وجهها رائبا. التفكير أصبح عملية مرهقة. ماذا حدث لنا حقيقة. لن تنتهى علامات الاستفهام حتى تصيبك بتصلب الشرايين. وغدا سنقف فى صالة المطار تنتظر عودة «نوال» بعد حصولها على الطلاق. وسنجتمع بعد غد فى حفل الخطوبة. سيكون طريفا أن أدعو أمى للتعرف بها. فكيف تتصرف العجوز الريفية مع امرأة مثل هذه؟ أوف. صدمنى رجل مار. قال «صابر»:

- قررت أن أعود للعمل.

- أى عمل ؟!

بضحكة ساخرة قال :

- لم يكن لنا عمل سواه.

تنهدت. قلت :

- لا تجهل المخاطر طبعاً.

- وهل جهلتها يوماً ؟

بعد لحظة صمت :

- ما رأيك.. أنبحث الأمر معا ؟  
متهربا من عينيه قلت :  
- أفكر ثم نتناقش ..

٢

أما احذكما فيسقى ربه خمرا.. وأما الآخر فيصلب

انزلت قدمى على الرخام اللامع. قلت : ها نحن نفشل فى أول اختبار لنا. سنطرد من هذا الفردوس بتهمة الجهل بأدابه العظيمة.. ومن السهل أن تسأل. ولكن كشف الجهل يبدو معرة. ولنزوخ لهذه الليلة، ففيها دخل سليل كفور المنوفية «الهيبتون» لأول مرة. والذي اختار اسم قاعة «ألف ليلة وليلة» ذواقة خبير. أما كفتنا أمى فقد دبهتتها خضرة لا تزول. عشرة أعوام تعجن فيها روث الماشية. فمن يقول هذه الحقيقة الآن؟ ولتستدع قدرتك السابقة على التحدى والاستهانة. إذ ذاك تستطيع أن تبصق على هذا المكان. تحتقره. هل تستطيع أن تفعل هذا حقا؟ كان ذلك ممكنا فى الزمان الخالى. فى الداخل كانت قوة تحد كبيرة، فمن يعبد ما فقد ؟ قدرنا أن ندخله لا غازين ولكن مبهورين. ملتحقون جدد. لن تستطيع بعد ذلك أن تزعم أن هذا المكان لا يدخله إلا اللصوص ومصاصو الدماء، فهذا كلام يبدو كالكذوية. وهل تسعفك الذاكرة الآن باسم ذلك الرفيق المتحمس الذى اقترح مرة أن نحوله إلى مستشفى للشعب ؟. ستكون نكتة رائعة لو انتهى التفتيش بأنه «حلمى» نفسه.

أبوم عودتها سهرنا فى «ستريو المطار». انحنى على ترد تهنتتى بحصولها على الطلاق.. ثم سألت :

- كيف حال زوجتك ؟.

أشعل «حلمى» سيجارتها. قالت :

- كيف تخاطر امرأة بجمالها فى عملية سخيفة كالحمل ؟.

انفلتت ضحكة «صابر» الريفية لفتت البنا الأنتظار. قال :

- لهذا تتزوج النساء. ولعل لديك وظيفة أخرى لنفسك.

«حلمى» بجفا. لم يفلح فى إخفائه :

- للضحك هنا أصول يا سيد «صابر»..

ابتسم كيانه الضخم بسمة ساخرة:

- طبعاً.. تزيد الأصول دائماً فى المستوقدات ومجمعات القمامة.

صمت كلاهما. قالت «نوال» مغيرة الجو :

- هناك فرصة سانحة لعمل مريح لك. ما رأيك ؟

تسألتُ بلهفة :

- أين ؟

- شركة بترول أمريكية تعمل فى «الكويت».

سألتُ عن التفاصيل باهتمام. أجر مجز حقا وعمل قليل. أبغير

السفر ما يملأ القلب من حيرة ؟! أتستطيع هناك أن تجد النوم المريح ؟ قالت:

- أمامك وقت لتفكر.. ولو لم يمانح «صابر» بوسعى أن أدبر له

فرصة أخرى!

تناول رشفة من كوب الماء. نظر إلى الراقصين فى «البيست». قال :

- فكرة طريفة.. وأمس لعن «عمك محمود» الزمان الذى جعل

مطبعته تبدأ باليد السوداء. وتنتهى برجوع الشيخ..

أشحت بوجهى. لم ترد. تظاهرت أنها لم تفهم. أستاذن «حلمى»

وقاما يرقصان. تأملت جسدها الفارع ملتصقا بجسده. قلت إن مقاومة ذلك

كله ليست مستحيلة. ولكن أين القوة ؟ قال «صابر» ساخرا :

- أهنئك بالوظيفة الجديدة.. ستذوق أموال الاحتكارات الأمريكية

قبل أن تموت!

فى زحام القاعة تبدو الحياة أكثر مرحا.. وتأمل هذه الكوكبة من

الحِسَان. غابت عن العين كثير من المسرات. وهذا العطر الفواح كيف غاب

عن معطسبك، ولا تلمح العين إلا عددا قليلا من زملاء الزمان الماضى. فهل  
تجاهل «حلمى» دعوتهم أم أقعدتهم رهبة المكان. ولو كان هنا.. أكان  
يدعوه؟ أه كنا ضحكنا حتى طفرت الدموع.

\*\*\*

(ويوم اختفى كان يوما كابوسيا فمتى تزول مرارته. بلا مقدمات على  
الإطلاق. بيد أننى راجعت الشواهد بعد ذلك فأبقت أننى كنت غيبا إلى  
درجة الحماقة.. أبين اختفى حذر الزمان الماضى. كنا نشم الخطر على بُعد  
أميال.. ولكننا نعيش عصر «الغالسيوم» فلعنة الله على كل شىء. ضغطت  
على الجرس متأملا اللافطة التى تحمل اسمه. باهتة لطول ما مر عليها من  
أزمان. وضعت لأول مرة فى عهد الطلب بالجامعة. ويوما كانت الشقة مقرا  
لمطبعة مَرعبة برقت فى حناياها عيوننا ونحن نقرأ ما نطبع فيتفجر حماسنا.  
طال الضغط وما من يفتح. أخيرا أطل وجه الجارة. قالت :

- أستاذ عمر.. الحمد لله.. هاك المفتاح..

قلت :

- ألم يقل متى يعود ؟

بوجه كاسف قالت :

- الله أعلم.. جاؤا فجر أول أمس وأخذوه.. أصرُّ قبل أن يمضى

على إيقاظى وترك لك المفتاح معى.

جلست قليلا فى صالة شقتها. دحنتُ بشراتها. سألتنى:

- ماذا حدث يا أستاذ ؟ ألم تقولوا أن هذا العهد قد انقضى ؟!

ابتسمت محزونا ولم أرد. سألت حوائط الشقة الناحلة أن تحدثنى

فاستعصى عليها الكلام فبا للقسوة. فتشَّت الأوراق بدقة. حرقت بعضها.

قبل أن أمضى تذكرت درجا سريا فى الدولار. عدت إليه. يا لى من غيبى .

كدت أنساه. قرأت الورق بانتباه. مزقت كل شىء. قالت الجارة :

- لا مؤاخذة يا «سى عمر».. كلمنى الأستاذ عن الإيجار..

- سيصلك فى موعده..

ها قد مضى أكثر من عام على غيابه.. ففى أى أرض يستقر الآن. وماذا تغير من صور الماضى؟ فى أى سجون هذا العالم يستقر «الشاوريش متولى». وعنبر ٣ من يسكنه الآن؟ لصوص أم قوادون؟ وها نحن فى ليلة هيلتونية فاخرة. ما أطرف أن تصرخ الآن بما حدث. تلقى «حلمى» الخبر بثبات غير عادى. قال :

- نصحته فلم ينتصح. الظروف تغيرت..

تأملت الكلام الذى قاله بذهول. أهى نفس شفاه الزمان الماضى؟

قلت :

- لم يكن يفعل ما يضر. والمسألة أبسط مما يصورونها. وحتى لو لم تكن كذلك.. فهل تظن أنه كان..

نفخ بضيق.. قال :

- إنه مغامر ومتطرف.. وساريتة طفولية..

هذا عصر البخار والعفونة.. إغلقوا أفواهكم قبل أن تقولوا الذئبة. ويوما قبل أن يغيب قال : «لن يحكموا علينا أن نظل كالأغوات والبلد فى حالة حرب». أما يوم ماتم أمه فإن المقرئ قرأ «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين. ودخل معه السجن فتيان». قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمرا. وقال الآخر: إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه. نبشنا بتأويله إنا نراك من المحسنين». ساعتها قلت إن الحلم قديم وكذلك القهر. فمتى يرتاح القلب؟ ها هى أقدامنا تنزلق إلى مستنقع لا ندرى قراره. كذلك الجب الذى ألقى فيه يوسف. فمن لنا بمن يتجدنا. وهل نملك حقا قوة نرد بها أغراء التى تقول لك : هيت لك. حفل زفافهما شاهد على ما انتهينا إليه.

اقتربا منى. فاح عطرها على البعد. لمعت الأضواء على فستان الزفاف المرصع بأسلاك من الذهب :

- لماذا غابت حورية؟

- اعتذرت بالمرض.. ولعل زهورها أعجبتك؟

ضحكت قائلة :

- أرسلت لى زهورا صفراء.. أنت تفهم لغة الألوان طبعاً.  
«أجل : الموت. هذا رأيها فيها. وأمس صاحت : لن أحضر.. فهى مشنقتكم أنتم، قبلوها كما تشامون».  
قلت مَهْوَنًا :

- لا تخضعنى للأوهام.. «حورية» تحترمك..

- أشكرك على مجاملتك.. الحقيقة أنها لا تحبى.. وكثيرون منكم كذلك.. دعونا الجميع.. وهاك النتيجة.

- مشاغل الحياة ( ثم ضاحكا ) ونحن مستجدون فى هذا العالم الهيلتونى..

«حلمى» مبتسما :

- البعض يقول إننى تبرزت، وهذه مجرد شعارات فارغة..

أصبح كل الكلام فارغا.. فلتقهه كل شياطين الجحيم. ولو صدق ما يقول، إذن فحياتنا ضاعت فى لعبة هازلة. وملعون أب من يصدق الأحلام بعد ذلك. تأمل الراقصة التى أمامك. ما أمتع جسدها. وقيل أعوام لم تكن العين ترى إلا «حورية». كان عناقها متعة القلب والروح. ثم أضحت العين تزوغ أحيانا وراء ردف سارج أو نهد مُطل. بيد أنها ظلت مرفأ الجسد المرهق. وها نحن نفكر فى الحيانة. وفى لحظات الحب كنت اندمج إلى حد لا أميز لنفسى أعضاء. ومن طوارىء الزمن الجديد أن تشعر بكل شئ حولك. تحولت لحظات نشوتنا إلى عذاب. كالذباة المقلقة أصبحت. حول زواجهما اختلفنا. صاحت. سببت. دافعت ما استطعت. قالت : عندما يبدأ الجبل فى الانهيار لا يتوقف. لاحظت أسيان أنها بدأت تهتم بتجميل نفسها. عرفت منضدة التسريحة أدوات التجميل. وأول مرة رأتها «نوال» قالت :

- زوجتك جميلة ولكنها لا تعرف كيف تكون أنثى. دعها لى.

رفضتُ يومها. سخرتُ منها «حورية» إلى حد التجريح. لكن القلق بدأ ينتابها تدريجيا. تزايد. قلت إن هذا طبيعي. ذُبل شبابها فى سنوات السجن الطويلة، ولعلها تظن أننى قد أطلقها. فهل خطر هذا على القلب. ما أقساها من تصورات.. صاحت:

- لم يعد هناك مستحيل.

- «حورية».. لا تحملى حياتنا جعيما..

تنمرت عيونها الجميلة.. سرح الكدر فيهما.. قالت:

- ذهب كل شئ فلماذا أبقى أنا.. هه.. أصبح شعاركم الوحيد:

أنكحوا ما طاب لكم من النساء.

صحت غاضبا:

- هذا تجريح لا أقبله، وشخصى لا يهمنى.. لكنك تتعدى الحدود

إلى أشياء أخرى..

ضحكت ساخرة.. قالت:

- الله يرحم الجميع.. ستعود من الكويت بسيارة وتصيح هيلتونيا

كصديقك الطبيب، فهل تبقى على؟؟

أصبحنا نقتات بالكدر. شكوكها تزداد.. ولتقر بأنه رغم تأكيداتك

فإن النفس لا تبرأ من الغرض ولا من المرض..

انصرفت «نوال» لضيوفها. نظر «حلمى» إلى كوكبة صغيرة من

زملاء السجن يجلسون فى ركن المكان قال:

- قاطع الزملاء حفل زفانى.

- هذه أوهاهم.. مجرد مشاغل..

تناول كأسين من خادم كان يعبر المكان. قال:

- لا تعزنى.. يأخذون موقفا منى وأنت تفهم (ثم بعد لحظة) ماذا يريدون؟ انتهى كل شئ. سأعيش حياتى كما أريد.

- لا تشغل بالك.. أنت تفهم السبب.

باستهانة قال:

- هذا تاريخ قديم وانتهى.. المسألة متعلقة بزوجها السابق. وهى

ضحية وليست جانية. لقد اضطرها للعمل معه ضدنا. ثم أننا قد ابتسنا

فى وجوه الجميع وانتهى الأمر. هل هى وحدها التى وقعت من قعر القفة!!!

أبئثل هذا المنطق كنا نعالج المسائل؟ أغلقوا أفواهكم قبل أن تقولوا

الذنية..

انحنى يسلم على واحدة من المدعوات. قدمها لى. تأملت اكتظاظ

أنوثتها منبهرا. كانت جميلة كزهرة رغم شحوب وجهها. تابعت جلالها

مشرقا. تحدثنا قليلا. أستاذت لتهنىء «نوال». غمز بعينه فى إثرها.

قال:

- لاحظت أنها تأملتك باهتمام. أنت مدين لى بالشكر. أثرت

اهتمامها بتاريخك العظيم!

آه.. تأمل المهزلة.. لتضحك حتى الموت.. المثل هذا كنا نصنع

التاريخ؟

- أشكرك.. ولكن من هى؟

ضربنى على كتفى ضاحكا. قال:

- لا تخش شيئا.. وهى فى ظروف تنعدم معها المقاومة..

- يعنى؟

- أسر زوجها فى عملية حربية منذ عام. والوحدة مرار كما تعلم!

ماعت نفسى. تقلص حجابى الحاجز. تعللت بالحمام. بعدت عنه. قال

ملاحقا:

- لا تشغل بالك.. بوسع «نوال» أن تسهل الطريق..

عند الباب التحقت بكوكبة الرفاق. لم يقطع وصولي حديثهم. في البداية بدأ كأحداث الزمان الماضي.. ثم انتشرت العفونة. تحدثت واحد عن «سام ٣» وغارات العمق. وروى مطلع بعض الأسرار الفكهة. وقال ثالث إنه يكتب مسرحية عن بحر البقر وفيلما عن مصنع أبي زعبل.. قهقهت أعماقي بالبحر الزاعقة فيها. قلت : عال .. صفقة رابحة لا تقل عن ألفين من الجنيهات. عليه «الثاليوم» كاملة لا تفيد. وفي الأسبوع الماضي قال «حلمي»: كطبيب وكصديق أحذرك من إدمان «الثاليوم»، ستصاب بإنهيار عصبي مفاجئ. فحذار. مر شبح المرأة الفارعة الطول بجوارنا. أغضيت خجلا. هل يشير «حلمي» يوما لزوجتي ويقول إن الوحدة مرار:

سحبني واحد إلى ركن . قال :

- ألدبك أخبار عن «صابر» ؟

- مضى أكثر من عام على غيابه.. في البداية صدوني عندما سألت إلى حد التهديد. ثم انقطعت الأخبار.

- أخطرني رسول منه أنه في ظروف سيئة.

سألت ملهوفاً عن التفاصيل. قال :

- عاملوه بشراسة فأضرب عن الطعام وعاوده الداء القديم. بدت

التفاصيل مرعبة.. حكى طويلاً ثم قال :

- معلوماتي أن المسألة خطيرة فعلا. ثقب في الرئة اليمنى بمساحة

أربعة سنتيمترات مربعة.

توقف الحديث.. أفتتح البوفيه.. أكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً وضحكة

أكثر مما ينبغي. قلت إنى مريض.. مريض.. عدت في الهزيع الأخير من

الليل مرهقاً.. فتحت «حورية» عينيها. غطت طفلتنا. قالت :

- نحن في الفجر.. لماذا تفلتنا ؟

- كنت في حفل زفاف..

ساخرة قالت :

- العقبى لك في المسرات !

لم أرد.

عندما أخبرت «حلمي» قال :

- خير سيئ.

- لا بد من التصرف.

- آه.. طبعاً.. ولكن ليس في يدنا شيء..

طالعه نظرتي المذهولة. قال :

- اسمع .. «نوال» تعرف بعض الناس.. أصدقاء زوجها الأول.

صحت بهجزع :

- هؤلا ؟

- نعم.

- ولكنهم...

نفخ ساخطاً :

- لا تزعجني.. ما فات مات. سنسافر غداً إلى بيروت. بعد عودتنا

من شهر العسل نرتب لذلك..

ضحكت. قهقهت. نظر إلى دهشا. قال :

- عمر. أعصابك مرهقة جداً.. حذرتك من إدمان الثاليوم وأكرر

التحذير).

\*\*\*

قالت حورية :

- لماذا لا تنام ؟

ذلك الحلم المستعصى متى يتحقق ؟

- آه.. ناوليني المنوم.. وأغلى كوب اللبن.

قامت برمة.. اختفت في اتجاه المطبخ. فتحت الشرفة. كانت الفتاة



تعود من جولتها الليلية. تأملت قفزها من الشرفة كيهلوان صغير. أذن الفجر من بعيد. قال المنشد بصوت مغسول بالندى : «يا نائما بين الأنام.. قُمْ وأذكر الحى الذى لا ينام. مولاك يدعوك إلى ذكره. وأنت مشغول بطبيب المنام». ما أنتعس أن تكون حيا ولا تنام. سرى المنوم فى الأعصاب. ولكن أين النوم؟ تربع القارىء فى الثلث الأخير من رأسى. قرأ : «يا صاحبي السجن. أما أحذكما فيسقى ربه خمرا. وأما الآخر فيُصلب. فتأكل الطير من رأسه. قضى الأمر الذى فيه تستفتيان».

٣

النوم

ما أطول الطريق. ما أخفق زحامه. برودة مطلع الليل. وتساءل إلى أين؟ وما من مجيب. هل تعود ليالى النوم حقا؟ ثلاث ليال كاملة وأنت يقظ تماما. الزعيق المفاجئ لأتفه سبب. الرجفة الطارئة. اهتزاز الشفاء. وتقول «حورية»: عيناك مفتوحتان على الآخر. نظراتك مخيفة فهل أنت بخير؟ نعم أعصابك مشدودة كحبل مركب يشدونه بأقصى ما فيهم من قوة. المركب ثقيلة. والحبل مشدود. مشدود. وتذكر يوم عرض عليك العمل فجننت وتعللت بما تعللت. رفع أكثر من صديق كتفيه بانسا. بصقت ألف مرة على عتبة بيوتهم. تحمس آخرون. وصدرت البرقيات ساخنة ومحتجة. استدعاك الرجل. ألقى البرقيات فى وجهك. صاحت ملامحه المنتفخة :

- سبق أن حذرتك من التدخل فيما لا يعنيتك.

- لكن هذا يعنينى.

زاعقا : لست بقية أهله..

- لا أهل له وأنا صديقه.

- أضرت بكما الصداقة قديما... فاهتم بشؤونك..

- هذه شؤونى.. أخص شؤونى..

ابتسم ابتسامة صفراء. قال :

- الظاهر أننى سأرسلك لمؤانسته.

نظرت إليه بشراسة. ها هم زبانيته يتبعونك. كالظل يمسون وراءك.

بمظاهرة مربية يمارسون عملهم. كأنهم يقولون : نحن خلفك فلا تفعل شيئا.

وقد نجحوا، أصبحت أسيرا فى أيديهم. لا تفعل شيئا. لا تتصل بأحد.

وأمس فى الفجر. خبط الباب. قمت مذعورا. وجدت وجهها غريبا.

عانيت حتى تذكرت. قال بهلقة:

- أستاذ «عمر» ألا تتذكرنى؟.. أنا «الشاريش متولى»..

- أهلا.. تفضل.

وهو يلتقط أنفاسه. قال :

- لا تؤاخذنى.. حاولت أن أجيء نهارا لكن الاحتياط واجب..

- خير يا «عم متولى».

- الأستاذ «صابر» فى خطر.. وهم يصرون على إهمال علاجه..

استطرد بروى التفاصيل المرعبة.. قام، طلبت منه أن ينتظر. عدت

بنقود دستتها فى كفة. رفض باباء. قال :

- الله يسامحك يا أستاذ.. صحيح نحن نأخذ أحيانا، لكن الآن..

عيب!

بكت «حورية» عندما سمعت التفاصيل. ليلة باكية حزينة بلا نوم.

عاشتنى عند العصر فكرة شيطانية. سأقودهم فى رحلة طويلة على الأقدام.

أطول رحلة فى التاريخ. رجل بلا نوم يقود تابعيه فى رحلة طويلة.. طويلة

وحزينة. من الجيزة بدانا. وها نحن فى مطلع شارع الأزهر. كيف تأتى لك أن

تمشى كل هذا بلا نوم؟ وقفت أشرب كوبا من عصير القصب أسرع الرجل

يتحدث فى التليفون. قلت أنه لا بد وقد تعب ويريد بدبلا. تركت كوب

والحسين.. قفوا.. الى يحب المدعان يصفق. كمان تصفيقة. هذا الرجل مخبر، وأنا أسأله أمامكم لماذا تمشى ورائي؟ أجب يا روح أمك..

واحد : هل أنت مخبر بجد ؟! آخر : تكلم. الرجل خائفا : إتركنى. إبعد عني. هذا رجل مجنون.

آخر : إسكت يا ابن الكلب.. بطاقتك.

- ليس معى بطاقة..

- هو مخبر ألم أقل لكم ؟

واحد : لماذا تمشى وراءه ؟. آخر: مخدرات ؟. ثالث : دعارة ؟.

- لأ جاسوس.

- اسمعوا يا عالم.. يا هوه.. أنا جاسوس. يا ندل يا خادم الأندال.

خذوا هذه الجاكتة. والكرافتة. والقميص والفانلة. هذه التندبة السوداء.

وهذه. وهذه. أربع رصاصات أصابتنى فى بورسعيد سنة ١٩٥٦. إسألوا

«ويليامز» ضابط المخابرات الإنجليزية. كم كيلو من لحمى نهشته كلابه..

إمسكه يا معلم قبل أن يهرب.

- «تعال هنا يا ابن الزانية. ماشى وراءه ليه؟»

- «يا عالم مظلوم ليس لى به شأن دا راجل مجنون.»

- سامع يا معلم .. أنا مجنون.. ثلاثة أيام بلا نوم أولاد الكلب..

- يا معلم لا تصدقه.. هذا رجل كافر، من اللى بيشتماو رينا..

رافضى يعنى!

- وأنت مالك.. يعنى رينا حارقك قوى.. ولا يعنى تلاكيك..

- بدمتك يا معلم.. واحد صاحبك، أخوك، حبيبك، أكلت معه عيش

وملح . فمتوا سوى على البُرش، فى الندى والظل. فى المطر والحرق. وعيَّان.

سل درجة تالته اللهم إحفظنا ويشفى كل عيَّان. فى صدره. هنا يا معلم.

ثقب أربعة سنتى. قد الريال الفضة القديم. ومع ذلك يحبسوه. كفرت اللى

العصير فجأة. وخرجت مُسرعا. لمحته يجرى خلفى ملهوقا. قصرت خطواتى

حتى يلحقنى. الزحام يزداد. يتكاثف. أين كان كل هؤلاء الناس فى الأيام

الخوالى. كيف عَمَّيت العين عنهم؟ الدنيا برد.. برد. لو معطف أو حتى

جاكتة. قال صوت : مولد الحسين كل سنة وأنتم طبيون. غبت وسط الزحام.

تبعنى بمشقة. ثلاثة أيام بلا نوم. حبة «الغاليوم» فقدت مفعولها والقلق

يحطم الأعصاب. لحظة ارتخاء واحدة. لحظة نوم. ترتخى جفونى ترتاح

عيونى المرهقة التى تنز ألما لا يطاق.. أمشى. أمشى. أمشى.. أمشى. رأسك

عار فهل تخطف عمامة أم طربوشا؟ اللبدة هى أنسب الأشياء. جلابيب ويدل

ويلاطى. فساتين وجونلات وملابيات لف. ناس. ناس. ناس. يزعقون فلم لا

تزعق. يضحكون فلم لا تواجههم بالحقيقة المرّة. رائحة العرق الشتوى

خافتة. لكنها دافئة. أنا أمشى. الرجل يمشى. أنا أمشى. فى هذا الشارع

قال: لا بد أن نعود إلى العمل. أى عمل؟ لم يكن لنا عمل سواه. لا تجهل

المخاطر طبعاً. لم أكن أجهلها يوما. أفكر ثم نتناقش. عند المناقشة جَبُنْتُ.

لدينا قدرة على الكلام تحمّل الباطل حقا، والحق باطلا. أمشى. يمشى. إلى

أين؟ لا يهمنى ماذا يحدث بعد ذلك. سيعود لرئيسه متعبا مهدودا، يتفخ

بأكيه : حَطَمَ أقدامى يا بيه.. دشدشها.. يا لها من نهاية مضحكة. إضحك

عليها. لماذا لا تضحك. تخجل؟ لا أحد يسمعك.. وسط كل هذا الضجيج:

فلتضحك مرة. تبتسم. البسمة بلهاء. لا أحد يلاحظ شيئا. إضحك بصوت

أعلى. ها. ها. ها. ها. برافو. قهقهة. قهقهة. لماذا ينظر إلى هذا الرجل:

إسأله. مش معقول. ماذا حدث هل هو الاتهيار الذى تنبأ به «حلمى»؟.

اتهيار ماذا؟ «حلمى» كلب بولدوج ضخم وتافه. إنسان يبيع كل شىء

بفخذى امرأة. سفخص. إسأله.

- يا سيد. يا مواطن.. لماذا تبتسم؟ أنا أكلمك. نعم أنت. أنا

أكلمك؟ لا .. إنتظر. قف. حلفتك بالحسين.. سأقول لك سرا. هذا الرجل

الذى يمشى ورائى مخبر.. تعال هنا يا ابن اللثيمة. قل لهم أنك مخبر؟.

قفوا يا عالم.. يا هوه.. يا مواطنين.. يا أهل الغورية والتربيعة والجماليا

قلت حرام، عيب، ما يصحش. قلت لهم بالذوق بالإنسانية.. رجيتهم.  
سرحوا ورائى ميت كلب مسعور، ده واحد منهم..

- عذاك العيب يا أستاذ.. بظلموا افترا بقى على العالم!

- يا معلم أنا غلبان.. أكل عيش.

- أبحث لك عن شغلة نظيفة.. أوسخها شغلة أشرف من شغلتك.

سرح نسوان. بيع مخدرات. لكن أذية الجدعان لأ..

- يا معلم.. دول كفره.. دا رافضى وابن رافضى..

- برضه بيقول لى رينا.. أنت هاتستغفلى.. هاتسرح بى. طب

ودبنى وما أعبد ما أنا سايبك إلا بضرب المركوب. يا جدعان. يا رجاله.

إقلع يا جدع انت وهوه اللامؤاخذه. اللي يحب رينا يضرب. اللي يحب النبى

يضرب. اللي يحب الحسين يضرب. كرامة لك يا سيدى يا حسين يا ميت

مظلوم فى بلاد الغربية. كرامة للحسين. اضربوا. اضربوا المفترى ابن المفترى.

بالمركوب يا سيد. إيدك لا. ما توسخهاش... بالمركوب.

ضربوا. ضربت. تزايد الزحام. فى قلبه رأيت. كانت قامته المحنية قد

استقامت. يرى جيدا بلا نظارة. يحمل هذا القديم. يضرب بقوة كشاب

عفى. قلت:

- يا عم «محمود».. يا عم «محمود يا مهدي».. أنا «عمر»..

«عمر الدهشان»..

نظر إلى.. برقت عيناه بنظرة قوية:

- مش مهم.. إضرب.. اللي يحب «الحسين» يضرب. كرامة لك يا

سيدى يا «حسين»، يا ميت مظلوم فى بلاد الغربية.. اللي يحب الشعب

يضرب.. اللي يحب مصر يضرب..

تدافعت موجات الزحام. كتل كثيفة. كثيفة. كقاع نهر دافى..

فصلت بيننا. أين أنا؟ أين هو؟ أين أى إنسان؟ بلا حذاء ونصفى الأعلى

عار. أين برودة مقتبل الليل؟ وسط الزحام دافى.. أجساد طرية وأخرى

خشنة. زغاريد نسائية. أرداد وأثداء.. أذرع خشنة مفتولة.. كرامة لك يا

(١٩٧.)

## ضحكات من زمن

### القتل غيلة ...

« ..إلى ذكرى شهدي عطية الشافعي : المناضل  
الشبيوعي الذي قتل غيلة فسي معتقل أوردى  
أهوزعبل فسي ١٥ يونيو ١٩٦٠ »

### النبش في جراح قديمة .. ولكن طرية

احتضنت قدها بين ذراعي.. ضغطتها بقسوة خانقة.. شممت في  
ديمومة الاحتضان عطرها. استنشقت في شهيق طويل كأول أنفاس الغريق.  
تطايرت في نفس اللحظة فكرة دامعة كانت تطاردني بالراح منذ أيام. في  
الشرقة انعكست ألوان الشفق على وجهها. اختنقت الشمس هناك عند حد  
الأفق. ابتلعها النهر. ودعناها معا صامتين. أحاط ذراعي خصرها. دسست  
كفي في شعرها الطويل. قذفت المشبك المعدني بعيدا، انسدل شلاكه فأحاط  
ملامحها. صاحت محتجة. قبلتها قبلة طويلة.

قالت : تعلمت الشقاوة.

أدرت «الفرامفون». تسللت شهر زاد كورساكوف. جلست على  
«الشيزلونج». أسندت رأسي إلى فخذيها. في خفوت الضوء امتصت نظراتها  
المشوقة ملامحي. انحنيت. لثمت عيني. بهرني عمق عينيها وصفازهما.  
غابت في دسامة صدرها أكدار قديمة.

(فى تلك الظهيرة حكى عن حبيبته. كنا حفاة نضرب الغؤوس فى أرض رملية. جاء صوت خلفنا يقول: سنزوع متفانا خضرة. حكى عن عينيهما فقال إنهما حنونتان كصدر الأم. اختنق صوته فى النهاية، كأنه يوشك على الهكاء. كنت صغيراً لم أكابد مرة ضعف الرجال الكبار. خفق قلبي حزناً. ها أنت تلهو الآن فى جنة الحب. فأين ذهب؟. لو بقى لك من الإيمان بالخلود ذرة لقلت إنه يلهو الآن وسط جنات تجرى من تحتها الأنهار. ولكن ذلك عزاء القلب المحزون).

أشعلت سيجارة. قذفت بحذائنها بعيداً.

(كذلك اليوم فى أتوبيس رأس البر. وكنا غريبين تماماً. سألتها عما إذا كان التدخين يضايقها. ابتسمت. أخرجت سيجارة من حقيبتها. خلعت منظرها الأسود).

تناولت السيجارة سألتنى عما فعلته فى غيببتها:

لا شىء، قرأت، ومزقت قصة كتبته.

- أنت تمزق كثيراً.

- قرآن.

عدت بالبيرة والأكواب.

- لن أشرب.

باخ حماسى.

- ألا تستطيع أن تجلس معى صاحبياً؟.

- لا أتعمد هذا.

زامت. خرجت إلى شرفة العوامة. هبط الليل ثقبلاً. محاقاً كان القمر. وسوست ضحكة فى قارب يعبر النهر. استندت بمرفقيها إلى حافة الشرفة. تأملت وجهها فى الضوء المتسرب من الداخل.

- فى الليالى المحاقية بكشر الحب فى النهر.

لم ترد. قلت إن الظلام كالحزن يبعث على طلب العزاء. فى الأسبوع الذى ماتت فيه شقيقتها جاءت بسواد الحداد. بكى على صدرى. حكى عن شقيقتها طويلاً. عندما مسحت دموعها بشفتى، ارتجفت شفتها السفلى. كان العزاء ليلتها ضرباً من الجنون الكامل. بيد أن شينا كان يدفعنا للفناء المشترك. عرفت ليلتها أن رأسى المثقل بحزين الذكريات هو صليبي الذى أحمله.

- هل تحببى حقيقة؟

- لا أدرى.

نفخت سيجارتها فى الهواء. دندنت لحناً كم دندنت به فوق لسان رأس البر. ضربت موجة عاصفة مقدمة اللسان. تفتت إلى رذاذ متطاير. ها هو صوتها حزين القرار. مشروخ البحة. أما شعرها فأسود غميق. تطاير مع نسيم الخريف فلتمته بيدها. خضراء كعينيهما كانت بلوزتها. انشقت عن مجرى نهدين متماسكين. أشم على البعد عبيرهما كما شمته أول مرة ليلة العزاء تلك.

(بدأت شفتاى جولتهما من وجنتيهما. انحدرتا إلى رقبتها وصدرها. عندما وصلنا إلى النهدي دارتا حول كل مساحة فيه. استقرتا فوق قمته. لحظتها فقدتا رقتيهما العذبة. كان المريد قد تبثل فى محراب الإله ساعة. ساكناً كالصمت كان. هزه الوجد فجأة. مال نشوان كطفل أبهجه ظهور أسنانه. صرخت صرخة خفيفة. بين الألم والنشوة. كانت ليلة عزاء).

توقفت عن الدندنة:

- لماذا لا تتزوج؟.

- أظن أننى كبيرت.

ضحكت. استدارت إلى:

- بوسعى أن أشهد بكفاءة تك.

تبدو لغزاً مستعصياً على الفهم ككل شىء حولنا. هذا النهر المظلم كم



ابتلع من آمال يانسة.. ووسوسة الأصوات على سطحه تبعث على الحير  
وأمس كان «سليم» يجلس على هذا المقعد الأسيوطى يحكى عن الخطر.

- ألم تفكر أبداً فى الزواج منى ؟

نفيت. سألت بكلمات مدغمة عن السبب.

- لا يمكن أن أتزوج لغزا.

- ولكنك تعرفنى منذ سنوات.

[ذلك الصباح المشحون بالقلق كم مضى عليه. وكنا يومها غريبين  
التقيا فى أوتوييس. وها هى أقرب ما تكون. لا تخجل أن تفعل أى شئ  
أمامها. تفكر وتضحك، تخلع ملابسك، تمشى عاريا إن أردت].

- أعرف أن اسمك «ربرى»، وهذه معلومات وافية جدا !!

عادت إلى الدندنة.

- ... وربما كان اسما مستعارا. وهو على أى الأحوال اسم تدليل.

عادت من الحجرة الداخلية فى روب بنفسجى شفاف :

- هل نام أحد عندك ؟

دقيقة الملاحظة، وذكاؤها خطر :

- «سليم» ابن عمى. كان فى إجازة.. وعاد اليوم إلى

«الإسماعيلية».

- والأحوال هناك..؟.

- كالعادة.. غارات واشتباكات وقتلى..

غابت عن المكان بفكرها لحظات..

- شئ مزعج..

- نعم.. ولكن لا بد منه..

ثبَّتت عينيها فى عينى. قالت :

- أعرف فيما تفكر..

- يعجبنى ذكاؤك أحيانا..

- أنت تلوم نفسك لأنك تجلس معى.. فى حين أنه يجب أن تكون

هناك..

- ولكنه، أعنى ذكاؤك، يخونك فى أحيان كثيرة.

- لا تنكر، أنا أحفظك، وهذا هو سبب كرهك لى..

.... [وكان يتحدث فى الصحراء عن الحب ليلة، ووصف حبيبته  
فتغرَّزَ فيها شعراً رقيقاً، قاستعدته مبهوراً، وطالبتة باطلاعى على رسائلها،  
فغضب، ولقنتى درساً فى احترام ذلك الجزء الخاص من حياتنا، وأثرت  
مشكلة : أيقن لمثلنا أن يحب. قال بل يجب أن نفعل. قلت : أفنى حاجه  
نحن لمزيد من المشانق؟.. أقدامنا مثقلة بالقيود، وأفخاخ الطريق أكثر من  
أن نحصى. ضحك وقال: أنت ككل مراهق تحلم كثيراً. قلت: السجن  
يترصدنا وربما الموت.

سألنى : لماذا أنت سوداوي؟ وكان السوط الذى قتله يخرج من  
مدبغة مجهولة فى تلك اللحظة.. فيا للمهزلة.].

احتست البيرة.. نست سابق رفضها..

- ضحيت بالكثير قبلاً.. ومن حقلك أن تستريح..

- مجرد كلام!

بحرح متكلف قالت :

- يوماً ستحقق أحلامك.. وستأمن آنذاك تماما..

- سأوصى ورثتى بابلاغى النبأ فى قرافة الغفير..

... [كبير العمر حقاً، وإلا فأين رجفة الإحساس بالنشوة عند ذكر  
أحلام الزمان الذى مضى. قتلها التكرار.. كما قتله السوط، ولم يكن  
كمثلته أحد فى الطواف بالأحلام فى كتيبات الليالى..

وفى اليوم التالى لمحتها فى كازينو يطل على النهر.. حنيت رأسى

مُجيباً من بعيد. ابتسمت ابتسامة داعية. وحيدة كانت كنبته برية جميلة،  
وتحدثنا عن الوحدة في العالم.

فقلت : أشع شيء أن يكون حولك زحام لكنه بلا قلب. عذاب. قلت  
أن أشع شيء هو أن تطاردك الوحدة في حقل ذرة كثيف في ليلة محاقبة..  
قالت: الاستسلام موقف ثوري أحيانا. قلت : أكره أن أدبر ظهري للحياة  
ولو فعلت. ابتسمت. قالت إنها درست الفلسفة ثلاثة أعوام في الجامعة، ثم  
نسيتهما في شهرين قضتهما في المطبخ تطهو المكرونة «بالشامل». وتتفنن  
في صنع «البيتزا». ضحكت بصوت عال. سمع النيل حديثنا الطويل فبدا له  
من مستودع أحزان بلا قرار. وفي المساء ركبت المعديّة عائداً إلى «عزبة  
البرج»، فتح «سليم» الباب. لعن جدي السابع عشر - وكان يكرهه دون كل  
أسرتنا - وقال:

- نام عمك الحاج منذ زمن، وإيقاظه في هذه الساعة جريمة كفيفة  
بإعادتك إلى المعتقل لتتربى بما فيه الكفاية.  
ضحكت نصف ضحكة. لم يكن في القلب متسع لكوامل  
الضحكات).

- هل تندم لأنك عرفتني ؟

قذفت بالسبجارة إلى عمق النهر.

- أكره علامات الاستفهام.

- ولكنني لست نادمة.

- معرفتك على حقيقتك مشكلة، ولن أرهق نفسي بعد الآن

بالمشاكل

- أنت تخلق مشاكل وهمية.. وهذا رأي «سليم» أيضا.

{ماذا يفعل الآن وسط النيران والبارود والموت، وفي أي لحظة من

الزمن يترصده قضاؤه}.

- «سليم» يكره جدنا السابع عشر، وكنت قد عثرت بتاريخه في

مخطوطة قديمة. تصدى غفر الله له للسلطان العثماني سليم أيام الغزو،  
وأثار عليه «دمياط» كلها، غضب عليه السلطان، وشنقه على باب زويلة  
وصادر أمواله، ولولا هذا لكنا من كبار الأغنياء.

- أنت مشاكس كجدك السابع عشر، وأنا أحبك، وهذا يكفي.

{يبدو هذا كافيا على الأقل من وجهة نظرها، وهي مثلى تبحث عن  
عزاء، ولعل خيبة الآمال ترصدتها كما ترصدتني. ذهب كل شيء بأبخس  
الاثمان: السجن والعذاب والموت والمستقبل المهدر، وبالمرتب أثنا هذه  
العومة، واشترينا بدلا. ونعلم أحيانا بسيارة فهل هذا ثمن مجز لحياة الرجل  
الذي قتلته السياط ذات يوم؟. ولحظة الفناء المشترك لا يبدو شيئا مهما  
على الإطلاق. حتى مشهدهم وهم يحملونه إلى المشرحة، بمزق الجسد داميه،  
على وجهه لحظة قهر مات بها. وكان المأمور فضى الشارب، أزرق العينين،  
بيد أن أحمرار وجهه أصفر تماما}.

- ولكن لا بد أن أعرف شيئا عنك !

- أنت تعرف كل شيء.

- كذب.

نهضت واقفة. قلت إن المدينة مظلمة وكثيبة فمتى يعود الضوء.  
وصوت «عم عبده» - بواب عوامتنا - يأتي مع هواء الليل. ذلك العجوز  
الغريب، حزين غناؤه. ضاحك وجهه. أدت اللبنة إلى الداخل لأقلل الضوء  
المتسرب.

قلت :

- نبيّ رجال الدفاع المدني «عم عبده» أمس إلى الالتزام بقيود  
الإضاءة.

بدا أنها لم تسمع. بعد لحظة :

- تعرف. أحيانا أخجل من بعض ما أقوله في فراشنا. بيد أنني  
أنسى خجلي في المرة التالية.

تهدج صوتها مع الكلمات الأخيرة. قلت إن حزينات الليالي تتطلب العزاء. وسوست ضحكة عبر ظلام النهر..

.....  
.....

في صمت الظلام، أحاطت ذراعها العارية رأسي. قبلت أناملها قالت بصوت يقطر براحة عميقة:

- تذكرتك وأنا بالبحر.. وسألت نفسي عما تفعل.

- نعم.

- ولاحظ المحيطون بي أنني سأهمة فحاصروني بالسؤال.

- مشكلة.

- تعللت بالحزن على أختي، واحتضنت أطفالها، فهاج ذلك أحراني

وبكيت.

- قلت أنها ماتت منتحرة.

- نعم من عوامة كنتك.. وتذكرت صديقك الذي حكيت عنه.

- «سليم»؟

- لا الآخر.

- «لويس»؟

- لا.. الذي قتل في السجن..

أشعلت سيجارة فتناولتها مني.

- كثيرون ماتوا في السجن، ومات الآخرون في الزحام.

في وهج السيجارة المشتعلة بدت صورتها في المرأة. شعرها مبدد على الوسادة حولها.

[أعرف عن تريد أن أتحدث. ولكن فلتطلب ذلك بنفسها].

- لا أذكر.. حكيت لك كثيراً.

- «شريف»..

- آه.. «شريف عطية».

كررت الاسم. قلت إنها تنفق به في لذة، فما السبب يا ترى؟ وكنت أحب اسمه دائماً. كان شاربه غزيراً كشارب فلاح لم يغادر الحقل أبداً. لكنه كان رهيف القلب. ومن المؤسف أنني لا أعرف أين حبيبتة في هذا العالم الواسع الزحام. فمن يسمع مختزن الذكريات؟... ومن يهمله سواها حين عاشق سجين؟

- أحك لي عنه..؟

- حكيت لك كل شيء ونحن في «رأس البر».

- في كل مرة تحكي.... تذكر جديداً.

- تهتمين به كثيراً.

- قتلوه؟

- نعم.. ضرباً بالسياط.

- كان صغيراً؟

- في حدود الثلاثين.

- كلاب.

- نعم.. ولكن الزمن تغير..

- أحك لي عن هناك.

تسللت أنغام كورساكوف عبر الصالة. كان حفيف النسيم يداعب سطح النهر. كحة «عم عبده» تتصاعد من بعيد.

\*\*\*

[قلقاً كان الصباح. شمس يوليو قانضة. جاءت جلستى بجوارها في الأوتوييس الضخم. في منحني حاد وهو يغادر بنا حدود المدينة، اهتزت. سندتها. اعتذرت. شكرت. لم يكن معي سوى حقيبة صغيرة بها بعض الملابس. مجموعة الكتب في يدي. سألتني مرة أن أسدل الستار

المد. هدهد كلامه الحائى رأسى المثلث. تذكرت جدى السابع عشر. قبل أن  
أنام تصاعد صوت من الغرفة المقابلة يغمى بصوت شجى. صعد من فوق  
حائط الدورة. صاح طالبا من المغنى أن يرفع صوته. مر سجان المساء فى  
الممر. صاح:

- نام أنت وهو.. عنبر ٣.. ممنوع الغناء..

قلت إننا نحلم كثيرا بالغد. تشتاق أنوفنا للعطر. وها هو كل شىء  
ممنوع، حتى حزين الغناء..

\*\*\*

فى صف الشماسى الطويل تاهت نظرات عيونى. زحام البشر لاه  
وعابث كمياء البحر. ها هى العشة فأين الشمسية الخضراء؟. تصاعد  
صوت من خلفى مناديا:

- «طارق». أستاذ «طارق».

كانت مبللة بماء البحر. فى مايوه مشجر بأوراق توت زاهية. جففت  
جسدها. نشرت شمس الأصيل دفتها علينا. قالت إنها تحب مياء الأصيل.  
يكون البحر دافئا وخاليا. قلت إن ذلك كله جميل. لكنى أكره الغروب.  
بتعسنى رحيل الشمس. يتقبض قلبى عندما ينقض الظلام على الحركة  
والحياة والوضوح.

- مشاعرك غريبة. الفلسفة مجرد رداء تلتف به. أظن أن الفلاسفة  
باردو العقول.

ضحكت قائلا:

- لا تبالغى. ليس كل قارىء لكتاب فى الفلسفة فيلسوفا.

- أظن أنك شاعر. ألم تكتب الشعر أبدا؟!

- ذلك النيش فى طرى الجراح، متى يكف؟.

- أعمل بالصحافة. كان لى يوما صديق من أرق الشعراء..

- وأين ذهب؟

على النافذة. وأخرى أن أفتح زجاجها العلوى علها تجرد بنسمة هواء  
جسدها كان رشيقا ولينا. كدسامة النهر كان صدرها. سألتها عما إذا  
كان التدخين يزعجها. نفت بابتسامة. أخرجت علبة سجائرها، قالت:  
جنبتنى المرح، كنت أخشى أن أفلها وحدى. أستاذت فى تصفيع  
الكتب. تركت لها. قالت بعد لحظة:

- أدرس الفلسفة؟.

- مجرد اهتمام.

- ولكنه لا يناسب يوليوى ولا «رأس البر».

ابتسمت. لم أعلق.

٢

كل شىء ممنوع.. حتى حزين الغناء

[أغلق الشاويش «عبيد» باب الغرفة فى أول المساء. ارتقيت على  
حشيتى مرهقا. كنت قد عزقت ثلاثة قراريط، وقلت أنها ستبذر غدا.  
استلقى بجوارى على فراشه. أشعل نصف سيجارة ناوونى إياها. أخذت  
نفسا طويلا وأعدتها إليه. قلت:

- تعبنا اليوم.. تحويل رمال صفراء إلى مزرعة يبدو مستحيلا.

- ولكنه سيحدث.

بدت بسمته رقيقة. كانت جزا من وجهه الطفولى المرح. وقلت أنه  
يبدو وسيما، ترى بماذا تتغزل فيه حبيبته المجهولة. وهذا الزحام حول دورة  
المياه فى نهاية الغرفة يوحى بأن الزملاء يخططون للغد. أنوفنا تعطش  
للعطر فمتى تنتهى المهزلة من العالم؟. انتهت السيجارة. لم أكن قد أرتويت  
بعد. قلت:

- يذهلنى تفاؤلك.

هز رأسه وتأمل سلك الكهرباء المتدلى من السقف. تحدث طويلا

- مات.

حانت منها التفاتة إلى وجهي. غام في عينيها شيء. قالت:

- يا خسارة.. لعله كان عجوزاً.

- نعم في الثلاثين.

تحدثت عن الموت فضحكت لعمق سذاجتها. سألت : هل غدرت به حبيبة ؟ قلت : بل غدر بهما معا الموت. كانت رغبتى فى البوح تفتت باخضرار عينيها وذلك الحنين المرهف فى ملامحها. تحدثت يومها عن الصحراء طويلاً. تلك السنوات المعذبة كيف مرت. وفى أى مستقر بالقلب والنفس ترقد الآن بقاياها، أليس من واجب الرفاء أن تزور يوماً ضريحها. نلوا الصلوات وندعو بالرحمة لسنوات العذاب.

- أنت منهم ؟

- نعم.

- خمنت هذا من البداية.. عناوين ما كنت تحمله من كتب فضّاح..

(ثم بعد لحظة صمت) عرفت بعضكم أيام الجامعة.

- من ؟

- نسبت الأسماء. أذكر أن بعضهم غاب فى أواسط الشتاء. وغاب

الباقى فى مقتبل الربيع.

ارتجف جسدها. كانت الشمس تغطس هناك عند حد الأفق.

\*\*\*

فى ذلك المساء بكت. كنا لحظتها نمشى على اللسان شبه وحيدين. أمواج البحر تنطح الصخر فى جنون. تأملت سفينة هناك فى عمق البحر. حكيت عن انتظار السفن المجهولة. كان منقانا بلا شاطئ. مجرداً مساحات مرعبة من الرمال والقيظ لذلك لم نفكر فى الهرب. وما أتعب إلا نجد مفراً سوى وادى التيه. ورغم هذا فقد حملنا دائماً بالسفائر المجهولة. تأتى محملة بالطعام والملابس وأطنان من السجائر. ترسو علم

-١٦٦-

طنى المنفى. تمضى فى داخلها. نغنى : سالمة يا سالمة.. رحنا وجينا لسلامة. نلعب ونضحك. نطفىء أشواقنا للعطور. وتصفر. توت. توت. وتقلع عائدة إلى عالم الألوان.

- وكان صديقى الشاعر قد كتب مرة قصيدة كذلك.

تابعت عينها حركة السفينة، وكانت الشمس تغرب خلفها تماماً.

قالت:

- .. ولم تأت طبعياً !؟

- كلا.. وكان هذا قبل أن يقتل بأسبوع.

نطحت موجة صاخبة مقدمة اللسان. تلقاها صامداً. تصاعد رذاذها فأدرك وجهها. صعدت إلى حافة الكورنيش مستندة إلى كفى. جلست. أشعلت سيجارة.

- ... قلت إنها كانت ليلة جمعة !؟

[ نعم.. وكان الشاويش «عبيد» سجان المساء. فتح الغرفة وقال : الدنيا حر، جنهم، سأفتح لكم خلسة لكى تشموا الهواء. ولكن لا أريد ضجة. جلس على حافة الباب. حكى عن أولاده. قال إنه لم يره منذ خمسة شهور. دعا أن يرد الله غريتنا، كل واحد يروح لحاله، يشوف عياله. صاح «شريف»: ليس عندي أولاد يا شاويش «عبيد». قال: ترجع للعروسة إن شاء الله. صمت لحظة. كان وجهه الصعبدى جامداً. رققه تدهور العمر والصحة. دعا بعد لحظة : ربنا يسترها معكم. لكن لماذا لا تعيشون كبقية خلق الله فى حالكم، مالكم أنتم والحكومة ووجع الدماغ؟ قال شريف : والغلاية يا شاويشنا !؟ حك الرجل قفاه ولم يرد. قال فجأة: عاوز اتعشى. جتناه بقليل من العسل وبقايا خبز. أكل وتجشأ. شارك شريف نصف سيجارته الأخير. غنى صوت من الغرفة المقابلة «أنا من دموعى أرتوت عزية بزيتها». قال:

- يا عم يا بتاع عنبر ٣ ممنوع الغناء. الضابط النويتجى سيمر بعد شوية.



كنت أجلس خلف «شريف» مباشرة. قلت:  
- لا تكن حنبلياً يا عم «عبيد». ألا تحب الغناء؟  
غابت عيناه عند الباب الحديدى المغلق فى آخر العمر. قال:  
- فى بلدنا صبييت، إنما ولد. عندما يغنى تغف الناحية كلها على  
رجل واحدة.

تضاحك وحكى عن قريته. جاء زميلان من نواحي سوهاج. هبت  
نسمة هواء خفيفة. ذهبت لأشرب فوجدت الماء فى الدلو مثلجا على غير  
العادة. عندما عدت كان يتحدث عن قراربط ثلاثة يملكها فى البلد.  
- أطلع على المعاش السنة القادمة إن أذن المولى. سأزرع الأرض.  
- «شريف» باشمهندس فى الزراعة. يستطيع أن يفيدك.  
فى تلك الليلة خطط له «شريف» المزرعة على علبة سجانر فارغة.  
هنا حظائر الدجاج. وبنية الحمام هنا.

سرح «عم عبيد» مع الخلم.  
- وحوض السمك يا شاوشنا؟  
ضحك برح خجولاً.

\*\*\*

- هيه.. وماذا حدث بعد ذلك؟  
كان فراشنا لينا، ولكنى قلقت.  
- رويته لك مراراً.  
- «طارق» لا تكن سخيفاً؟  
- أكره التبش فى طرى الجراح.  
- ولكنى أحبك وأنت تروى عن صديقك الشاعر.  
- قلت أنهم قتلوه.  
- ضرباً بالسياط.. أليس كذلك؟  
- نعم.  
- كلاب.

- طبعاً كلاب. ولكن تغير كل شىء.  
- أكمل.  
- حكيت لك فى ليلة «رأس البر» تلك كل شىء؟  
- وكنت حزينا.. وأحببت حزنك ليلتها.  
- ويكيت.. فمسحت الدموع عن وجنتيك بكفى.  
- فقبلت أناملك فى لحظة لم أدركها.  
- وقبلت شفتيك فى عمق الليل. والبحر شاهدنا الوحيد.  
- وعند الأفق سفينة كتلك التى حلم بها.  
أحاطت عنقى بذراعها العارى.. كطفلة تأبى أن تنام قبل أن تسمع  
حدوته المساء.. بتوسل قالت:  
- طارق.. أحسك.

\*\*\*

فى الصباح فتح الباب بضجة هائلة. فتحت عينى على أقدام  
غليظة تدق الأرض فى غطرسة، قلت: تفتيش. مددت يدي. أخفيت شفرة  
حلاقة.. كنت أضعها تحت رأسى. قال الضابط:  
- كل واحد أمام فرشته. فتش يا عسكرى.  
استيقظ الزملاء مكدودين. تشاب واحد أو اثنان. وقف «شريف»  
بجوارى. همس:

- حملة عسكرية فى هذا الصباح المبكر.  
قلت هامساً:

- هذا جزاء الذين يحلمون دون إذن.

وقف الضابط وقف عتريّة. قلت لنفسى إنه دخل كلية البوليس  
بالواسطة. وها هو يحاول أن يطيل بوقفته المشدودة قامته، ليثبت أنه لم  
يلتحق بها زوراً. يمارس علينا فحولته المكبوتة فى هذا المنفى. سيرى كثيراً  
ويسمع كثيراً سيعود لزوجته فى المساء. يروى لها قصة الحملة الشجاعة

غلاق الباب. لفنا صمت ثقيل و دقات الأحذية العسكرية تعكر صمت  
عباج.

\*\*\*

قادوه إلى الفناء. صعدنا إلى نوافذ الغرفة المطلة عليه. كان مبتسما  
رغم ارتعاشة خفيفة كانت تعترى ساقبه. جاءت «العروسة» : صليب جلدي  
متجهم. مربع الشكل ثبتوها في الأرض. وضعوا رقبتهم في تجويفها. مدوا  
ذراعيه على الجانبين. ثَبَتُوا الكفين. والقدمين وقف المأمور أمامه. اهتز  
شاربه الأصفر. إحمرت خدوده المنتفخة:

- تظن نفسك رجلا يا ابن القحية؟! -

لم أر نظرتهم. لكن رأسه المحنى جاهد في الارتفاع. رفض كلمات  
السباب في إنفه. قال :

- أنا رجل غصبا عنك وعن أمثالك من الكلاب.

وبصق في وجهه.

- الكرياح يا عسكري.

جاء السوط. طويل. مجدول في نهايته بسلك صلب. عقد طرفه عدة  
مرات صغيرة همس صوت بجوارى :

- عدد العقد مخالف للاتحة.

ابتسمت حزينا. تهدل شعره الطويل على وجهه. كانت لحيته طويلة  
كثه - هبط السوط على ظهره. التف حول صدره. جزَّ على أسنانه رافضا أن  
يشن. صاح المأمور:

- لن أتركك حتى تقول أنك امرأة .

صمت ولم يرد. تتالت الضربات وهو ساكن. شاقنى أن أرى ملامح  
وجهه. تهدل شاربه الرفي الكث. جزت أسنانه على شفته السفلى. تفسد  
العرق غزيرا من كل ثنايا جسده. فك المأمور أزرار سترته العسكرية. لهث

التي قادها. تحولت مراقبنا إلى أشلاء ممزقة في وسط الغرفة. حاول واحد أو  
اثنان إعادة تنظيم فراشهما. انتهى السجان من تفتيشي. ابتسمت. لم يعثر  
على شفرة الحلاقة. انتقل إلى «شريف». مر بيده على ملابسه. اصطدمتنا  
بخرفشة ورق. أخرج ورقة كان يخفيها في وسطه. تناولها الضابط.. طبقت  
يد «شريف» على الاثنتين محاولا انتزاع الورقة منهما. جذب سجان ثان  
للخلف. طوقه بذراعيه. التففنا جميعا حولهما. قال الضابط وهو يفتح  
الورقة :

- منشور أم محضر اجتماع ؟

قرأ فيها قليلا، ثم قال :

- شعر...؟ عيناها؟ وتحلم بالسفائن المجهولة؟!.

توترت شفتا «شريف». استمر ببسمة سُمِيَّة هازلة:

- ولن كتبت هذا؟! لن تخرج من هنا، والشبان كالأرز بالخارج

زام أكثر من واحد محتجا، تصاعدت همهمات من هنا وهناك «لا

داعى لكثرة الكلام». «حاسب على ألفاظك».

قال «شريف» ساخرا :

- أهنتك على انتصارك في هذه المعركة، ولكن لا داعى للكلام  
خارج الموضوع.

هز الآخر رأسه قائلا :

- خمسة أيام حبس انفرادى على الأقل.

وهو خارج، قال :

- طالما دعوتكم لشيوعية النساء، وستحقيق دعوتكم بنسائكم.

اندفعت الاحتجاجات من كل جانب. صاح «شريف» :

- إخرس يا كلب.. يا حقير..

أطبق الصمت على المكان.. نظر الضابط إلينا نظرة متفرسة. أمر

اصطدمت الموجة باللسان. طالنى رذاذها. غاب بصرى السارح خلف  
السفينة التائهة عند حد الأفق. تعلقت دمعة متألقة بمروشها الطويلة.  
مددت كفى. مسحت عينيها. قلت:

- لم أشهد دموع حبيبتة عليه.

رفعت وجهها إلى أعلى. واجهنى مع خفوت آخر ضوء فى شمس  
الغروب وجهها المعبذب. لحظتها بحث القلب عن العزاء. ربت خدها. كم تحرق  
التذكارات الحزينة من لحظات الفرح. فى قرار القلب عكارة هيهات أن  
تنتهى. احتضنتها. غابت شفتى فى دسامة شفتيها. كان البحر شاهدنا  
الوحيد.

### ترنم لحمامة مكسورة الجناح

٣

عند الظهر تحدث واحد بجوارى عن قضاء الله كيف يرد؟. وشغلت  
بالبحث فى الموضوع. تحدث آخر عن الأمانة التى عرضت على السماوات  
والجبال والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان فكان ظلوما جهولا.  
جهاز «التيكروز» يدق فى المر دقاته الرتيبة المزعجة. نظرت إلى التليفون،  
وقلت لعله يحمل صوتها. فى أى مكان من هذا العالم الخائق الزحام  
تختفى؟. رمى واحد بشرط طويل من الأخبار أمامى. قرأته بسرعة. عامت  
أمعاء. قتل. قتل. قتل. أشارت زميلتى إلى خير فى يدها. قالت:

- أذاعت البيونيتدبرس برقية عن جريمة القتل التى حدثت أمس فى  
أنوب. سبعة قتلهم مجهول كان يختفى بين أعواد الذرة.

فى بعض الأحيان تعذبنى الحاجة إلى «ربرى». لو تتحدث الآن. ربما  
خف عن القلب بعض أحزانه. كان «عم عبده» - بواب عوامتنا - يجلس  
بجوار السلم. يدخن سيجارة هزيلة كجسده النحيل. قلت إنه صامت كالنهر

بشدة. استند على عمود كهرياء فى الفناء. ألقى بالسوط للشاويش  
«عبيد». ضرب «عبيد» مرة ومرتين صاح :

- اضرب جامد يا سجان

- الارتفاع القانونى نصف متر يا أفندم..

هجم عليه كوحش. خطف منه السوط. ضربه به :

- امش يا بن الشرموطه أمش.

تكور الشاويش «عبيد» بعيدا، واستمر هو يضرب..

- لن أدعك قبل أن تقول أنك امرأة، أسمع كل زملائك.. لا بد أن  
يسمع كل هؤلاء.

أشار إلى أشباحنا الواقفة خلف النوافذ. كان زملاؤنا فى كل الغرف  
قد سعدوا إلى نوافذ عنابرهم. تصاعد صوت فى غرفة بعيدة:

- دعوه يا كلاب.

من الذى بدأ إذ ذاك ينشد نشيدنا. لا أذكر. ماذا كانت كلمات  
النشيد تقول؟. تاهت من الذاكرة، كما تاه العذاب نفسه. هل سمع فى خدر  
العذاب أصواتنا المنشدة؟ ذلك الغضب من أى أنحاء القلب تفجر. والسوط  
يهبط ويصعد. كان الرجل قد توحش حقيقة. برقت عيناه الزرقاوان. امتدت  
أذناه، بدا لى لحظتها كذئب برى من ذئاب قريتنا. لم ينتبه حتى إلى الزئيد  
الذى أحاط بشفتيه. وهو يكرر بإيقاع كأنما يضبط المسافة بين كل جلده.

- قل.. قل.. قل.. قل..

حفر السوط أخايد دم أحمر عميقة فى كل أنحاء جسده. تمزقت  
ملابس النصف الأسفل منه. أصبح عاريا تماما كوليده فى سنوات مجاعة.  
تهتك جسده إلى مزق صغيرة. صوت الكرياج وهو ينز فى الهواء، مرعب  
كالخوف.. ونحن ننشد.. ننشد.

انكفأ رأسه..

مات] ..

\*\*\*

- قلبك أخضر لم يزل (ثم بعد لحظة صمت) بعض الناس يسألون  
عنك؟

- من ؟ .

- رجال صفراويون .

- وعم يتساءلون ؟ .

- كل شيء : الآتون والذاهبون . الكلام والصمت . النساء والرجال  
وأبضا الضحكات .

- وكيف أجبت ؟ .

- دعوت الله أن يسهل لعبيده واعتذرت بتقدم العمر وضعف السمع .

جلس على حافة الشرفة . قلت إن جسده الضئيل يمكن أن يقع في الماء  
إذا دفعته هبة نسيم . لكنه بدأ راسخا في جلسته .

- لماذا يسألون عنك ؟ .

- حساب قديم .

تأملت ملامحه المتفضضة . كانت عيناه واسعتين حادثين رغم تهديل  
الجفون .

- أنت عجوز جدا يا «عم عبده» .

ضحك ضحكة طويلة أكثر مما تحتمل أنفاسه . قال :

- ولدت أيام هرجة «عراي باشا» .

ما امتع أن نبدد سأم الليلة... بذكريات محنطة .

- قابلته ؟

- لا .. نفوه وراء البحر.. شفته مرة في «الحسين» . كان طويلا

وضخما ، ولا أبو زيد في عز شبابه . ولكنني قابلت «سعد باشا» ..

ما أسخف أن يكذب رجل عجوز

- كان في أواخر أيامه.. جاء إلى «مسجد وصيف» مريضا مرأ وأبور

ولكن ما أبشع غضبه . هس أطفالا صغارا خاف عليهم خطر الماء . كان  
المساء خانقا برطوبة لزجة . استلقيت على مقعدى فى الشرفة . هدهد الموج  
فناطيس العروامة . هدهدنى معها . مسح بعض إرهاق اليوم . جاء صوت «عم  
عبده» مغنيا بصوت حزين . أسلمته إذنى فى إعياء الفراغ . صب فيها أحزان  
صوته العجوز . تسللت ضحكات أطفال من الدور الأعلى فوقى . قلت إن  
الظلام الخائق يذبل الضحكات ، لذلك تبدو قصيرة العمر . ويومها بكيت .

[كنت أصغرهم عمرا وأقربهم دمعا . حملوا جثته إلى المشرحة هناك  
خلف عنبر ٧ . رأوه . من النواقذ . صاح واحد : قتلوه.. الكلاب . اكفهر وجه  
المأمور خوفا . تعالت هتافاتنا . جاء الضابط مذعورا . فتح الباب . رجانا  
بصوت مرتعش أن نهدأ . زميلكم بخيرولم يحدث له شيء . كذاب وحقير  
وكلب كأسياذك . حملتموه إلى المشرحة . رفعنا دلاء الماء والمبارول وأوانى  
الطعام . حمل واحد يد المكتسة . تصاعد مد الغضب . كنا حزانى إلى درجة  
الجنون . لم يكن موته حتى تلك اللحظة قد عنى شيئا يمكن أن يفهم . تراجع  
الرجل وأغلق الباب . خلفه.]

سمعت خطوات ثقيلة على ممشى العروامة . انشق الظلام عن شبحه  
الضئيل . كان التأمل الطويل فى رمال الصحراء قد ضيَّب المرثيات أمامى .  
وأنا غارق فى مقعدى متوحد مع الظلام . اختفى لمعان سطح النهر مع لون  
ممشى العروامة لذلك لم أدر من أيهما جاء . بدا لى عجوزا فانيا . نحيف  
الجسم كمومياء أسطورية .

دعوته للجلوس . تمنع . قلت :

- كان غناؤك شجيا يا «عم عبده» فلماذا توقفت عن الغناء ؟

قال إن حزين الغناء يوجع القلب . رجل عجوز أنا . قلبى ضعيف .  
أخاف أن أوجعه . ضحكت من كلماته . ناولته سيجارة . قلت أننا جميعا  
مرجوعون . قال :

البحر الذي ركبته ببلدنا. نحن في الأصل من «القرشية»، نواحي طنطا. انتظرنا الوابور على شط الرياح. لما ظهر خوِّضت في الرياح بهدومي. كانت «زفير» جديدة ومقام السيد البدوي. الخلق كلهم رموا أنفسهم في الرياح. كنت أول واحد وصل. أطل على المرحوم «ويصاواصف» قال : أبعد يا ابني. تعلقت بحبال المركب. قال : يا ابني تفرق. قلت : لا بد أقابل الباشا. قال : الباشا مريض ولا يقدر أن يقابل أيها واحد. أصرت. مدوا حبالا. صعدت. كانت هدومي مبلولة. عصروها لي. أدخلوني عليه. كان راقدا على سريره بجلابية بيضاء مقلمة وطاقيه. رميت السلام. رفع يده إلى وجهه وقال : وعليكم السلام.. اسمك أيه يا بني؟. قلت : «عبده القرشي». قال : أقعد يا «عبده». قلت : هدومي مبلولة وأنت عيان. شد حبلك يا باشا. قال : شدوا حبلكم أنتم. أنا خلاص. رغرغت عيناي بالدموع. قلت : القلب والعبء والرب راضون عليك يا باشا».

.....

فتحت عيني على ضجة في الغرفة. كان سليم يخلع حذاءه العسكري الضخم. الحر شديد. غاب في الحمام. حاول فتح ضلفة الدولاب الوسطي. استعصت عليه. قلت :

- استبدلت «ربرى» دولابها. هدومك في الضلفة الأخيرة... مع الاعتذار طبعاً.

لبس بنظرون البيجاما. سألت عنها. رددت بتمتمة :

- المهم كيف أحوالك؟.

- اشتركت في عملية عبور ناجحة هذا الأسبوع.

بحماس مزيف قلت :

- عال.. أقبل دعوتي لسهرة نحتفل فيها بهذا العمل العظيم..

- تشكراً، سأقوم بجولة في المدينة عصراً.. معى رسائل وطلبات

بعض الزملاء. وقد أسافر البلد بالليل أوحشني عمك الحاج وخالتك لاجدة...

أخرج من الثلاجة بعض الطعام. جلس يأكل على منضدة صغيرة في مواجهة الفراش.

- لم تكتب شيئا منذ وقت طويل.

- بعض القرف.

(وفي الصباح كان جهاز التيكيز يدق دقاته الأكية في المرمر. خظفت شريطا. كان عن جريمة قتل في أورجواي. قال الخبير إن الفاعل مجهول. رغم أن الجريمة تمت في وضوح النهار وأمام المحكمة. في تلك اللحظة قال صوت خلفي : هذا لم يعد جرنالا. أسبوع ولا ورق توالييت بالدورة. سحبت مترين من الجهاز. قلت : لدينا مصنع جاهز. ضحكنا بصوت عال).

مصمص عظام الدجاجة. قال :

- هذا بطر.. صحفى مرموق ومرتب ضخيم وحببية معطاء.. ماذا تريد؟!

- الحال من بعضه.. كيف أحوالكم هناك؟

- قلت إنه عال، وأصحابك السوفييت شدوا حبلهم على الآخر.

- أصحابي؟!

- لا تزعل يا سيدى. أصحابنا جميعا. على عيننا وعلى رأسنا.

بمعنى غلطنا في البخارى. رأسك أبوسها.

ضحك وأردف.

- أنت مريض بالحساسية. أؤكد أن الحالة عال جدا.

- هكذا قلت في تلك الأيام..

أشعل سيجارته. تمدد على الشيزلونج. قال :



- لا.. تغير الوضع حقاً.. لا ينكر الحقيقة إلا أعمى.. والشك مر مدمر..

- ألوف الأرواح ليست لعبة.

نفخ بضيق :

- نعم، هي ليست كذلك، طارت نصف دفعتى فى نكتة. شبان كالورد. لن نظل نيكى على ما حدث طول العمر. وسنخرب بيوتهم قريباً.  
- ألا تخاف الموت ؟

صمت طويلاً. قال إنه يخاف أحياناً. ولكن الأمر يختلف.

- تعرف.. المسألة بسيطة، عندما تمر على حقل ذرة كثيف فى ليلة مظلمة فإن حفيف النسيم سوف يخيفك. ربما يكون هناك من يترصدك. وإذا قتلت ستروح هدراً. إما إذا كانت معك بندقيّة فلن تشعر بالخوف أبداً.

هزرت رأسى. وكان قد راح فى صمت طويل. قلت إن على أن أسأل محررنا الجنائى عن عدد الجرائم المقيدة ضد مجهول. وخطر لى أن عددها بما لا يقاس. سأل :

- والأحوال عندك ؟

- لا شىء.. أصحابك يتلصصون علىّ.

قال باهتمام مفاجئ :

- كيف ؟

- سنل «عم عبده» بواب عوامتنا. واختفى فى الشهر الماضى بعض الزملاء.

- ربما كانت مجرد إجراءات عادية. هل تفعل شيئاً.

- أصطاد الذباب وأحصى الجرائم المقيدة ضد مجهول.

- الحبيطة واجبة.. حولك رجال غامضون.

- أين هم ؟

- لا تتخاّبث.. أقصد نساء غامضات !.

\*\*\*

جلست أمامى فى الشرفة. بدأ ظلام النهر كغابة من الأذرة الكثيفة. بلا سنابل كانت. ومن بعيد تتصاعد كحة «عم عبده» فتؤنس وحدتى، قالت:

- لا تبدو فى أحسن أحوالك. ونظرتك لا تعجبني.

هزرت رأسى. قلت إن الرصاص ينطلق من الظلام. والفاعل مجهول. تصرخ الضحبة. يصيح صوت من بعيد. «جايلك.. جايلك يا واد» ولكن القاتل يختفى إلى الأبد، وتفتح شراك الطريق أفواهاها الفاغرة كى تقتنص صاحب الصوت البعيد. تحدثت عن مسرحية قالت إنها شاهدها فى التلفزيون فسألته عن التفاصيل باهتمام مزيف. أخذت تروى بيد أننى لم أسمع شيئاً. تعلقت عيناي بشفتيها. وأدهشنى أنها تنفرج بلا صوت. ابتسمت ببلاهة. قالت فجأة:

- أنت لا تسمعنى.

- كنت أفكر فى أنك لم تسألينى عن «شريف».

ابتسمت وقالت :

- ربما سأسأل بعد لحظة.

قلت بنبرة خاصة:

- ألا ترين اهتمامك به غريباً؟!

- يعنى.. أحب كل ما يتعلق بك.

- أحياناً أفكر فى أنك قد تكونين عرفته يوماً ما.

- لا.. لم يحدث.

- كان طالباً فى الجامعة فى نفس الفترة التى كنت طالبة بها.

قامت. أدارت الراديو. تسللت موسيقى هادئة. بدأ الجو عكرا رغم محاولات الإضحاك. شريت كثيرا دَحْنَتْ طويلاً. عادت بروب أخضر. اطلقت شعرها الطويل. قهقهت بصوت عال. قلت :

- أنت بخير ؟

- نعم.. ولكنى حزينة.

- خيراً..

- أختى.. تعرّف.. تغذيت طويلاً. كانت قد تزوجت حبيبها بعد قصة غرام طويلة. تنقلت معه فى كل البلاد. كان تاجراً ورحّالاً وفارساً. وسيماً أصفر الشعر. أزرق العينين. كان لها إبناً ولأولادها أبا. هل رأيتمهم. هذه صورة لهم معى.

أخرجت الصورة من حقيبتها. كانت لطفلين جميلين. تأملت طفولتهما البرئية فى عناية.

- جميلان. البنت تشبهك كثيراً.

- أمهما توأمى. الله يرحمهما.. ماتت معذبة.. بعد سنوات ثملت فيها بالسعادة.. لكن لا شىء يدوم.. كله يتكشف عن مرار..

- . . . . .

- تصور أنها بعد كل هذا الحب.. اكتشفت أن زوجها قاتل محترف. مهرب مخدرات وقواد وقاتل. جاء ليلة مذعوراً ملطخ الثياب بالدم. تصاعدت صرخات النساء الجنائزية فى منزل مجاور. دخل الحمام. خلع ملابسه. استحم. أشعل النيران فى الملابس. ارتدى أخرى نظيفة. تعطر بالياسمين. ضحك وقال: لها قتلته. أنا أستاذ فى التصويب. طلقة واحدة فى منتصف البطن وينتهى كل شىء. ويستتر الذرة الباقى. وتمدد فى الفراش، ودعاها إليه.

- يا لها من مفاجأة.

ضحكت ضحكة طويلة عميقة :

- لم أره.

- وكانت له حبيبة مجهولة... فهل هى أنت ؟

ضحكت. قالت :

- شكوكك تضحكنى.

- لماذا تحيطين نفسك بالغموض ؟

- أخذت أدق مشاعرى فلا تكن طماعاً.

نفخت بضيق:

- مع أناس مثلنا فإن الغموض يضرك.

- لا أفهم.

- بعضهم يسأل عنى ويتنقب ورائى.

شعرت بعينيها ثابتتين فى مواجهتى. فيهما حزن صامت متوسل. اعتذرت بكلمات سريعة. جات كحة «عم عبده» من بعد قليل. مرت سفينة صغيرة أمامنا مباشرة. قال صوت داخلها:

- السلام عليكم.

رددنا السلام فى عجب. قال :

- إعطنى سبجارة. الله يكرمك.

قذفت له ببقايا العلبة. أخذ يجدف بقوة حتى مضى. قالت:

- «سليم» سافر ؟

- نعم.. للبلد.. عنده راحة ٧٢ ساعة.

- أكرموه هذه المرة.

- قام بعبور. سأحتفل به فى «نوتر أمور» غدا، أتأتين ؟

- غدا سنوية أختى.

- مر عام بهذه السرعة.

- تقريبا.

- مذهلة.. أليس كذلك ؟

- يمكن أن نحدث فى فيلم من إخراج حسن الأمام؟

- أو تنشر فى جريدة رخيصة فلا تؤثر فيك، بيد أنها حدثت.

تلوت شفتها اشمزازا وقرقا. قلت :

- وكيف واجهت الموقف ؟

واصلت الحديث، كأنها لم تسمع شيئاً

- كانت قليلة الكلام.. فقط امتلأ قلبها بالندوب. أصبحت

مشاركته الفراش عبئاً ثقيلاً. ألم تجرب مرة أن تشارك إنساناً تحتقره

الفراش. رائحة نتنة تبعث من عرقه. كالدم المعقود. أنفاسه بخراء كأنه

يأكل جبقة. يده التى تتحسس ظهرها سكينية الملمس. فراشها دموى لزج.

وفى عمق لحظات الحب كانت تصرخ مرتعبة وتقوم عارية من الفراش تجرى

فى أنحاء الشقة. تحطمت أعصابها.

- هيه !

- نقلوها إلى مصح للأعصاب. هناك قضت فترة. وعندما تصورنا

أنها شفيت تماما أخرجناها. عاشت سنوات غريبة الأطوار، تسافر وحدها إلى

المصايف والمشاتى. وأخيراً ألفت بنفسها إلى عمق النهر من شرفة عوامة

كتلك.

ضحكت ضحكات طويلة.. طويلة.. قالت :

- وكانت جميلة كزهرة. شعرها أسود، وعيناها خضراوان.. رقيقة..

وفى الماتم.. بكى أمى وناحت قائلة «يا طير مقصوص الريش، ومكسود

الجناح»..

ثقل رأسى فجأة. قلت إننى سأضيف هذه الجريمة إلى الإحصائية التى

سيقدمها لى محررنا الجنائى عن الجرائم المقيدة ضد مجهول. سألتها.

- قيدا الحادثتين ضد مجهول واحدا!

- الرجل الذى قتله زوجها. طبعاً.

سألت.. فجأة

- ماذا كان اسمه ذلك «المأمور» الذى حدثتني عنه؟

- آه.. حدثتك عن العديدين منهم.

- الذى قتل «شريف عطية»!؟

- آه.. عبد اللطيف.. «عبد اللطيف وجدى»..

غنت فجأة طُبيبك يا جرح ماتوا وأنت لسه حى». قالت :

- هذه أغنية «عم عبده» المفضلة.. لم تسألنى عن اسم اختى.

- وماذا بهم ؟

- يعنى اسمها «رجاء».. أليس اسما جميلاً !

٤

## الكفارات

فى «نوتر أمور»، حكى «سليم» طويلاً عن «عزبة البرج»، والحاج

والحاجة والشوارع والناس. استمعت بنصف أذن. رافعاً كأسى :

- صحة العملية الناجحة التى قمت بها .

- صحتك.

ضحكت. تسألتُ عن ذلك المجهول متى يأتى فيحل كل المعميات.

يستريح القلب الذى أضناه البحث عنه. فى الصباح قال محررنا الجنائى: كل

الجرائم الكبرى مقيدة ضد مجهول، وفى توافه السرقات يضبط الجنائى

فقط.. وتأمل هذا الرجل العائد من بطن الخطر. يبدو نظراً كأن قضا « لا

يجرى فى إثره.

- لماذا لم تأت «ربرى»!؟

- اليوم سنوية أختها.

بمزاح :

- البقية فى حياتك.

لم أرد... بعد لحظة قلت :

- سألت كثيرا عن برنامج الاحتفال ودقت فى التفاصيل حتى ظننت

أنها لا بد آتية..

(وكانت حزينه المرح. طلبت أن تشرب كأسا فى صحة اختها... لأنها

كانت حمامة مقصودة الريش، مكسورة الجناح).

- صحتها.

- وصحتنا... واجهتها بشكوكك لعنة الله عليك فألقتها أبها الوغد.

ومع هذا فقد تمت لك كل خير. وقالت لى أن أنصحك بألا تعبر حقول الذرة

بغير سلاح، وإذا مت فأحذر أن تقتل غيلة.

- كلام طريف.. تركت الفلسفة آثارا.

- والحال فى البلد ؟

- عال.. حدثت غارة قرب «دمياط» وقتل سبعة أو ثمانية.

- وعمنا الحاج ؟

ضحك. قال

- الفلسفة ويا.. ينتشر إلى العزب والكفور. طلعت فى دماغ عمك

الحاج. اشترى بندقية نصف عمر أخذ يلمعها. قلت له : ولكنها بدون

ترخيص. نادى الحاجة. أمرها أن تذيب دجاجة : استمر يلمع فى البندقية ولا

كانى هنا.

جاء العشاء. صعد بعض الراقصين إلى البيست.

- قلت له ياأبا الحاج لا تعرض نفسك للمسئولية. صاح : أخرب

أنت. لن أذبح كالفرخة. ستكون أول رصاصة من نصيب السائل عز

الترخيص.

تناول فخذ دجاجة وقال ضاحكا :

- قلت فى سرى إنه سيخرب بيتنا كما فعل جدنا السابع عشر .

شريت بعض النبيذ. قلت إنه أحمر كالدم. وكانت أمس غريبة.

ضحكت كثيرا وشريت كثيرا. تحدثت عن الحزن وسألت عن الكفارات ما

هى. قلت إطعام مسكين وعتق رقبة. ونقنت باسمى.

قالت : أتذكر أول مرة ؟. كانت على هذا الفراش. ليلتها طوقت

شفتاى بنهداها. استقرتا فوق قمته. فقدتا رقتهما العذبة. كان المرید قد

تبتل فى محراب الإله ساعة. ساكنا كالصمت كان. هزة الوجد فجأة. مال

نشان كطفل أبهجه ظهور أسنانه. وصرخت صرخة خفيفة بين الألم والنشوة.

قالت : ليلتها كنت طفلى-الصغير الشقى.. لكن العذاب ترصد سعادتى..

إذا كانت أختى قد انتحرت فى نفس الليلة وربما فى نفس اللحظة.

سرح بصرى فى شعر أسود طويل يتدلى من مقعد قريب. نازعتنى

نفسى أن أريت عليه. رفعت عينى. انفرستا فى عينين تتفرسان فى. للحظة

بدا كل شىء غريبا ومضحكا. عيناه الزرقاوان. شاربه الفضى. زحف الصلع

قليلًا إلى رأسه. لكنه هو.. هو نفسه. ضبطتنى عيناه فى حالة تلبس.

أحيت رأسى بقوة العادة. ذلك الزمن. خمس سنوات طويلة. السباط

والسباب والعمل الشاق والمنفى والموت ... هى هذا الرجل. قمت برغبة

حقيقية فى المواجهة. قدمته لسليم:

- العقيد «عبد اللطيف وحدى». النقيب «سليم» ابن عمى.

ضحك قائلا :

- «العميد».. هذه زوجتى «رجاء». الأستاذ «طارق سعيد»

الصحفى المعروف. تقرأين له طبعًا.

كانت هى نفسها. شعرها الأسود الطويل. عينها الخضراوان. لم

بختلج وجهها بشىء. كأنها تدرت على الموقف طوال أعوام. قال محدثا

إياها:

- الأستاذ «طارق» شاب وطنى، لكنه مشاكس. شركنا بعض الوقت

فى معتقل الواحات.

ها هو العذاب يُختصر فى كلمتين. أحنت رأسها بجلال. ظل

«سليم» ينظر إليها مذهولاً مبهوتاً. اسنمر هو  
- حسبك جاداً كما توحى كتاباتك.. تناولا معنا كأساً.

جلست بدافع غير واع. قال :

- هذه فرصة سعيدة. ألحت «رجاء» أن نتعشى هنا الليلة. ولولا هذا  
ما رأيناك.

- فرصة طيبة يا مدام.

- مرسى

تفجرت في الصمت كلمات قالتها أمس «اختى». كان وسيماً أصفر  
الشعر أزرق العينين». «البتت تشبهك كثيراً؟! أمها توأمي». «جاء  
ليلتها مذعوراً. ملطخ الثياب بالدم» «ماذا كان اسمه ذلك المأمور؟! عبد  
اللطيف.. عبد اللطيف وجدى». لم تسألنى عن اسم اختى. اسمها «رجاء»  
أليس إسماً جميلاً».

عندما عدنا إلى مائدتنا. قال «سليم» :

- غريبة.. هل كانت تنتقم منه؟

- ربما.. ولكنها سألتنى أمس عن الكفارات

وهما منصرفان، حنى رأسه نحونا. بعد لحظات جاء النادل. انحنى  
قدم لى صينية أنيقة. قال :

- تركت لك السيدة هذا.

«مفاتيح العوامة. ودولاب الملابس»

5

الضحكات

كان الهواء عاصفاً. البحر يضرب اللسان بقسوة. أمواجه عالية، تأتي  
من ظلام بعيد فى عمق وادى التيه. فى نهاية اللسان رأيت جالسا بقامته  
القصيرة، يغمى.

«يا ليل... يا ليل... وأنا ما أعرفش أكذب.

والضغدة شايله المركب

وأبو فصاده ريسها

والقط الأعمش حارسها

يا ليل... يا ليل.. وأنا ما أعرفش أكذب».

صرخت : يا «عم عبده»، سيذفك الهواء فى البحر

استمر يضحك.. ويضحك.. ويضحك

ضربت الموجة اللسان بقسوة فتفتت إلى رذاذ صغير. قلت : انزل يا

«عم عبده».. انزل.. ستقع.

فقهقه ضاحكاً :

- أنت شاب خرج.. رميت نفسى فى الرياح وقابلت «سعد باشا».

- لكن هذا ليس رياحاً.. إنه البحر.

ضحك.. ضحك

- وماله، إنشا الله يكون المحيط.. قلت له : شد حيلك يا باشا. قال

: شدوا حيلكوا أنتوا أنا خلاص..

- أنت عجوز مخرف

- رغرغت عيناي بالدموع. قال : خليك شديد يا عبده.. واتشكر

للقرشية كلهم. قل لهم واحد.. واحد : سعد ممنون لكم كثير

.....

اهتز اللسان. تصاعد صوت إيقاع خطوات. فتحت عينى. وجدت

شبحه القصير أمامى يسألنى :

- هل ناديتنى يا أستاذ؟

وجدتنى نائماً على شيزلونج فى شرفة العوامة

- أجلس يا «عم عبده»

صعد على حافة شرفة العوامة، جلس. قلت :



- أحك يا عم عيده.. أحك..  
ورغم الظلام فقد لمعت فى وجهه المغضوضن عينان قويتان.

## باقية ورد على الضريح

« .. لماذا تلومها وحدها .. وكل شئ أصبح  
تاريخاً .. »

دق جرس التليفون طويلاً. بدد السكون فى ضجة مفاجئة. ارتعدت.  
كنت سرحانا تماما. استعدت بصرى الذى كان يشتبك مع قضبان القطار فى  
حوار صامت وأزيز المروحة مرهق كأنما تدور فى داخل رأسى. قالت « سناء »:  
- لا بد أن أراك.. عندى خبر سيء.  
صوتها مقطب ومختنق. وإنهاك الليلة السابقة لم يفارق الجسد..  
- كنا معا أمس.. ولم تكن هناك بوادر سوء.  
« هل هى حيلة أخرى لكى تجررك إلى الفراش؟ .. أما تكتفى ».  
- مسألة هامة.

اهتز المشى الموصل للباخرة.. استقبلنى الجرسون ببسمة عارفة.  
والمياه ساكنة تحت شمس شتوية. رأيت ظهرها فى فستان ضيق نضر الحمرة.  
وعلى المقعد كان البالطو الجلدى الأثيق. امتص النهر نظراتها فى استغراق  
تام.

دخنت بشراة وقلق. جاءت القهوة وعصير البرتقال كالعادة. بد الهالات القائمة تحت عينيها واضحة. وفشلت بشرتها السمراء فى إخفائها.  
- ذهبت للطبيب. وقال اننى حامل فى شهرين..

- هـ ا

ندت الصرخة منى بشكل مفاجئ.. استدرت أرقب الجو حولى. عدد قليل متناثر فى القاعة أغلبه من العشاق مثلنا. لم يتخلص صوتى من حدته كلها:

- كيف لم تدركى ذلك قبل الآن؟

قرضت إبهامها دون وعى :

- ظننت الأمر تأخير عادى.

دارت رأسى دورة حادة. جاء كأس البراندي سريعا. لابد من مواجهة المفاجآت بطريقة تضمن ألا نقتلنا. وأى ليلة تلك التى صنعت هذه المشكلة المعقدة؟ وكيف ستسير الأمور؟ كانت البداية تماس غير مقصود فى ممر المكتبة. نظرت إليك لحظتها نظرة فيها عبث لانهم. واعتذرت. أحمرت أذنيك. وستنظر إلى الزعم بأنها وضعت وليداً ابن سبعة شهور. وهكذا تتوج أولى مغامراتك بفضيحة من النوع الذى يثير لعاب صحافة الإثارة والجنس..

قالت بنرفزة :

- أليس لديك حل؟

بدت بغبيضة جدا. لو تثقب الباخرة الآن لغرقت وكان ذلك أفضل الحلول. لم تكن كذلك ليلة أمس.. بالعكس كانت شهية ومنطلقة. أقسمت عليها أن ترقص فلم تمنع. وكنت ضابط إيقاع مبتدى.. ولكنك انتشيت انتشاءً طويلاً... ولنستغث بكأس آخر.. مع استدارة العود، لمحت فتى وفتاة تشابكت أصابعهما وتدانت رأساهما. واحمرار ساخن فى وجنتى الفتاة يفضح ما يقولان .

هل تنذرهما بالفصل الختامى للمهزلة التى يشتركان فيها؟! فلنهتم بالكارثة التى حلت بنا. وجهها أصفر الاسمرار. فأين ذهبت حمرة المغربة بالالتهام؟ هل طالت الأنف قليلا وبرزت عظام الوجنتين؟ أم أن هذا كله وهم. فلنقل أى شئ :

- خبر سبب حقيقة.. لكن لا تخشى شيئا.. سنجد حلا.

بقليل من الارتياب الخائف :

- صحيح؟

ربت كنفها مطمئناً. صببت لها كأساً فتمنعت قليلا. ثم ازدردته. الخمر حل سحرى لكل شئ.. سيبدو الأمر أمامها بسيطاً الآن. وربما وجدنا حلاً حقيقة. وليس عسيرا أن وجود الصمت حولنا، يبضع كلمات موسية. وضحكة اعتذار فينتهى كل شئ. بيد أن تلك أحلام المحصور بين فكى الرحى. وهناك احتمال يتضخم بأن تكون واحدة من الحيل النسائية التى يتحدثون عنها كل يوم، ولكن : أتستطيع حقا أن تمثل بتلك البراعة؟ لم لا؟ أنت نفسك ما كنت تتصور أنك تستطيع أن تؤلف كل هذا الكلام الذى قلته لها فى عشرات اللقاءات. والآن : فلنشرب فى صحة عجزنا عن فهم شئ. سيضع أباها يده فى يدك. يقول لك: زوجتك موكلتى البكر الرشيد «سنا» على سنة الله ورسوله... وعلى مذهب الامام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه. فيسود الكذب كل شئ، حتى الوثائق الشرعية. فلا هى بكر ولا يحزنون. وعندما عرفتها كانت فى حالة تحسدها عليها المحترفات. وستتزوج بعد ذلك زوجا لامرأة لم تثق يوما بأنك مجرد الرجل الثانى فى حياتها، رغم أنها أقسمت على ذلك بدموع ساخنة أكثر من مرة. فما أحلى رأسك بالقرون. وسؤال يقفز بين رشفة البراندى وإشعال السيجارة : كيف تضمن أن هذا الحمل من صنعك حقا؟

- كل عقدة ولها حلال..

ببسمه بئسة قالت :

- إلا هذه .

- بل وهذه على رأسها . صحتك .

«صحة الضحك والفرح الذى أدى بنا إلى ما نحن فيه من بأس وشكوك... وكانت البداية بين رفوف الكتب والمراجع . رفعت قامتها لتحضر لى كتابا طلبته . وفى المشى الضيق مسست أعلى جسدها . واجهتني بنظرة تأديب عابثة . وتحديثنا عن الكتب كثيرا . كانت عيناها تبرقان بشئ ، احترت فى تفسيره . وشاقتى اسمرارها الدافئ .. وأثارني جسدها المتأود . وكان الكحل فى عينيها حالك السواد . لذلك بدا بياضهما شاهقاً ومحددا ولحديقتهما البنيتان . كعبون القطة كانت عيونها . تفرست بهما بطاقتى وأمامها سند الاستعارة . ومساء صيفى ضنين برواد المكتبة يحيطنا . قالت :

- أنت مهندس؟ .. غريبة .

- ليس ضروريا أن يكون المهندس شديد الاناقة !

اعتذرت عيناها ..

- لا أقصد .. ثم أن أناقتك مُرضية .. ظننتك طالبا .. إذ لا علاقة

بين الهندسة وما تستعيرة من كتب؟ .

هذه كلمات داعية لمزيد من الحديث... تغلبت على حرصى . عطلت -

بقرار منى - جهاز الحذر داخلى عن العمل:

- متابعتك لمزاجى فى القراءة يدل على ذكاء . يامدموازيل «سنا» .

بدلال:

- تعرف اسمى؟!

- إمضاؤك مقروء .

ابتسمت عيناها ، مالت حدقاتها للصفاء . خفت قتامتتهما ..

واكملت:

- ما تطلبه من كتب ذى طابع خاص .. وطالبوه قلة... ودائما يكون

ورازهم شئ .

« يبدو أن اهتمامها تجاوز شخصك إلى أشياء أخرى .. وإذن فليعد

جهاز الحذر إلى العمل » .

- ماذا تعنين؟! .

قالت ببساطة :

- هذه كتب لا يقرأها إلا المتطرفون .

بنفس البساطة :

- ليكن ... اعترف أننى متطرف .

- اشتراكى يعنى ؟!

- حتى الاشتراكى أصبح عندكم متطرفا .. أنا شيوعى .

ثبتت عينيها فى عيني لحظة . لمحت فيهما دهشة مزوجة ببعض

الانزعاج . وبدا كأنها تريد أن تحتفظ فى ذاكرتها بصورة كائن غريب لم تر

مثله من قبل . قالت:

- تعجبنى صراحتك .. هذا ما خمنتته .. ولكنى ظننت أن هذه الأمور

يحسن اخفاؤها .

تناولت الكتاب . وقعت على سند الاستعارة . قلت :

- ليس دائما ... وخاصة لمن كان مثلى غريق ولا خوف عليه من

البلل .

أجبت على عينيها المستفهمتين قائلا :

- أعنى أننى كنت فى السجن حتى فترة قريبة .. وغالبا سأعود إليه .

«نعم سأعود إليه . ولكن هذه المرة مُتَوَجِّهاً بأكليل من العار ، وليس

كذلك كانت المرات السابقة . فأين ذهب الحماس الذى اشتعل له القلب . وأين

الرفاق؟! . بل أين العمر الذى دفعناه . وقبل أسابيع قال «جودت» أنه رفض

وظيفة عُرضت عليه أخيرا :

- مانتا جنيه فقط .. تصور أولاد الكلب . عبادة فى الاسكندرية

- مضى على تعارفنا شهرين ولم أقبلك بعد.. وهى عفة لا يأخذ  
نفسه بها واحد من المتقولين علينا..

أغمضت عينيها.. قال حيازاها :  
- وهل منعتك؟! ..

آه... كنا نلعب بالنار.. فمن الراءظ السخيف الذى قال أن معظم  
النار من مستصفر الشرر.. ليتنا نصدق الحكم التافهه»..

.....  
.....

- قيم تفكر.. أصدقني القول.

فلنعد من رحلتنا المرهقة. غربت الشمس وتناثر عدد جديد من  
العشاق، واحتلت زجاجة البراندي مكانها بيننا.

- كنت أقول لنفسي أن حبك هو أحب شئ إلى..

- بدأت تسكر كالعادة.. أنت لا تتحمل الخمر..

- هذا صحيح.. ولكن بعينيك سكرت وليس بالبراندى..

- تتكلم جدا؟!

- لو حملنا تاكسى إلى عشنا لتأكدت أنني لا أكذب.

قال لسانها الذى بدأ - هو الآخر - يثقل :

- شيطان ..

بدا الأمر كله بعد ذلك مهزلة تبعث على الضحك المروع. منظر  
وأنت تدفع الحساب للجرسون. تدب على ممشى الباخرة فيهتز بك وبها.

تبحث بعينيك الملهوفتين عن التاكسى.. وهى تسير ورامك أسيرة ورغبتها  
الطاغية. فلتعترف بلا مكابرة بأنك تقدمت فى طريق الغواية شوطا يحسدك

عليه رواده الأوائل. وقبيل مغرب الشمس كنا نلوم النفس... فما أغرب ما  
حملت الساعات القليلة التالية من تغيرات. وأول مرة أجبروك على أن تسير

- مانتا جنيه فقط.. تصور أولاد الكلب. عيادة فى الاسكندرية  
وأخرى فى القاهرة أغلقهما مقابل مانتى جنيه.. يا أخى هووه..

ما أمجدها من نهاية لنا كلينا. وليس غريبا أن تلتقيا فى السجن من  
جديد. هو فى قضية رشوة.. وأنت فى قضية هتك عرض. ولكنها ليست

قاصرا.. لعلها تقودك إلى المحكمة فى قضية إثبات أبوه؟. وافرحتا.  
فلنشرب فى صحة عجزنا عن فهم أى شئ.. هذا سقوط مشرف وتراجيدى

حقيقة. وهو أمتع من السقوط السكشبرى بمراحل.. ووراها فيما تعلم أخوة  
ياكلون الحديد. ومراكزهم حساسة. وفى استطاعة أى منهم أن يعود بك إلى

المكان الذى قضيت فيه ربع عمرك لتقضى به ما بقى منه. وهذه الباخرة  
كانت ملتقى الحب أيام البراءة وفيها تناجينا. فغبت فى عينيها، وأحسست

بنشوة حريفة، وأنا الأمس أناملها. ومرة حركت ساقي فالتصقت تحت المائدة  
بساقبها فتخدرت كل حواسي. نظرت غاضبة.. أبعدت ساقبها بسرعة.

غشت ملامحها سحابة صمت متجهمة. ويعدها بأقل من شهر كانت تبيع لى  
أدق أسرار جسدها. ولم ينته عجبك إلا بطوفان من الخمر. ولم تكن عذريتك

قد انتهكت بعد. لذلك كنت مشوقا لقصة حب من العصر الرومانتيكى؟  
ومتى قضى على حزام العفة كظاهرة تاريخية؟. منذ كثر لصوص المنازل،  
وانشئت مصانع المفاتيح. ومرة سألتك :

- هل صحيح ما يقال عنكم؟

- وماذا يقال؟

ضحكت. كنا نمر فى شارع خلفى مظلم وخال.

- فيما يختص بالأخلاق.. لا تؤاخذنى..

ضغطت على يدها..

- ليس فى السجن نساء ولا خمر ولا مخدرات. فلو كنا نهوى

الأشياء فلماذا لا نحرض على توقيه؟.

أحطت كنفها بذراعى، ومع ضغطة خفيفة أكملت :

عاريا خجلت حتى قتلك الخجل. وفي السجن رفض «جودت» مرة أن يلبس بيجامته الجديدة لأنك لا تملك مثلها..

فكيف أصبحنا هكذا؟.. و من المسئول.. فتحت حقيبتها لتخرج منديلا فوجدت بها كل معدات المضاجعة..

انتهينا من رحلة التوتر المشدود. وهمد الجسد الصاخب ولم يعد سوى الفتور. لو تنصرف الآن لأحسننت صنعا. وها هي المشكلة تظل برأسها من جديد. وثمة سؤال يعابثك: كيف طاوحت قدميها وتبعتك رغم ما كان؟. لعله اليأس القاتل. وهذا الصوت الخافت الذى يتسلل إلى أذنيك نشيجها لاشك. فما أسرع ما ننسى ندمنا.. يبدو النشيج كعواء كلب جريح فى ليلة صحراوية مظلمة. والضوء الوحيد هو عود الثقب الذى اشعلت به سيجارتي:

- لماذا تبكين؟!

لارد. حين غمر الضوء الحجر، غطت جسدها وكان عاريا. تشبثت بكتفى واستمرت تبكى. ليس فى القلب شئ يقال. وها هي تمضى كسيفة البال، تغسل وجهها، وتقف أمام مرآتك القديمة. تمشط شعرها بسرعة. وتعيد ضبط مكياجها. والغريب أنها لم تنس معدات المضاجعة.. لا بد من قول أى كلام:

- لا تحملى هماً... سنصلح الأمر قبل أن يستفحل...

أشرقت بسمة أمل على ملامحها..جلست بجوارى على السرير.. وبدفقة حنان مفاجئة. ربت. على شعري المهوش، تناولت السيجارة من فمى.

- كنت واثقة أنك لن تتخلى عنى...

أه، ها هي الأنشودة تلتف بك، ولحظة بعد أخرى ستسحب الأرض من تحت أقدامك فتتعلق فى الهواء، ولا مفر من التأجيل حتى تدبر لأنفسنا حلا...

- سأرتب أمورى... يومين على الأكثر وينتهى الأمر... نلتقى بلائنا..

- هنا؟!

استفرتنى ابتسامتها المستهتره.. بدفعة لم استطع التحكم فيها قلت:  
- هنا.. لا.. فى الباخرة..

ثبتت عينيها فى عيني مستطلعة فى عجب. قلت :

- قد يأتى أبى من البلد غدا.. أو بعد غد

هزت رأسها غير مصدقة. مضت.

\*\*\*

ما أمتع أن أجلس أمام أبى لأستشير: عمامة وقورة. ولحية أبيضت من قراءة الأوراد والتعاويد. لم يصدق أبدا اتهامهم لك بأنه لا تؤمن بالله. وظل كلما زارك فى السجن يسألك بسذاجة إذا كنت تصلى أم لا؟. فكيف تراجعهم بالقصة المخجلة؟. ومن بشير عليك فى مازقك الملعون. وفى المقهى تحدث الأصدقاء عن أزمة الشرق الأوسط طويلا. وأكدوا بحماس أن وقت المواجهة قد حان. وتكرر الحديث عن الامبريالية الأمريكية ولكنك لم تسمع التفاصيل. وستموا صديقا أو صديقين من أصدقاء زمان. وتذكروا أكثر من حادثة من حوادث السجن. وقهقهوا فى قلق وتساءلوا عما إذا كان زمن السجن قد إنتهى بالنسبة لنا تماما أم ماذا؟. وأعلن واحد أن الجو خائق ومشبع بالرطوبة، وأنه يتحسر على هواء الصحراء الجاف الذى استنشقتناه فى السجن. ضحك الأصدقاء. وقالوا أنه يود أن يهرب من شئ ما إلى السجن، وألحوا عليه أن يتكلم : هل تريد أن تهرب من زوجة. أم صديق؟. لعله دائن سخيف؟. صديقة أم عشيقة؟. أم لعل أيام الفتوة ذهبت إلى غير عودة، ولم يعد هناك مفر من التعلل بالسجن للهروب من الواجبات الزوجية؟. نأخذ الأصوات. ما رأيك يا «سعد»..؟



فلنلق من رحلتنا المرهقة ولنشارك فى هذر كل يوم. هل تجد الشجاعة لكى تحدثهم بما يواجهك من مشاكل. أصدقاء أعزاء حقا. واجهنا الخطر سويا مرات. هذه الوجوه التى غيرها الزمن. نشابت بعض السوالف. وانتشرت التجاعيد تحت العيون. وما يخلو جسد منها من مرض أو أمراض، وكله قاموس معروف : روماتيزم. أمعاء متهرئة. حصى لا حصر لها فى الكلى والمثانة، وبعض الرصاصات. حتى «جودت» أقرب الناس وأعزهم. ترك السوط آثاره على ظهره. ألا تبدو إثارة موضوعك وسط أحاديثهم نكتة؟ كلامهم هذر حقيقة، ولكنه غير هابط كهذرك. وما تمضى جلسة إلا وتذكروا موقفا من مواقفك القديمة. يبدأ الحديث بذكرى فكهة، وينتهى بموقف تراجيدى غنيف. وما هم بخوضون فى الحديث المعاد :

- «سعد» طول عمره جاد. ولكنه اللبلة مريض بدوستاريا فى الغالب.

«مريض حقا.. ولكن ما هو المرض بالضبط...؟»

- أقترح أن نشتري له زجاجة بييرة على حسابنا.

جاءت الزجاجة.. قال فم..

- هذه دعاية سبئة لنا فى هذا المقهى.

أكل واحد من المزة.. وهو يأكل :

- أغلب الناس يتصورون أننا لا نفيق من الخمر. فى حين أن معدتنا جميعا متهرئة.

- أصبح الماء يتعبنى، أوصانى الطبيب أخيرا بأن أدفئة، وقد لعنتهم

أباه فى سرى.. ولكن لا فائدة.

«آه.. وستواجه فى شهر العسل بزوجة حامل قبل الزواج، تنقيا

لحظة وتحيل حياتك إلى مرارة دائمة».

- أصبحنا كالمفلسين الذين يبحثون فى دفاترهم القديمة.. أليس

الأفضل أن نبني أهراماً - كالفراعنة ليتفرج عليها السباح

لف المائدة صمت.. تحدث أكثر من لسان.. هذا كلام له معان متعددة يا سيد «سعد» والغالب أن معدة حضرتك لم تعد تتحمل البييرة. لذلك سرعان ماتلطم وتعكنن علينا كلما شربت كوباً. المطلوب من حضرتك أن تجيب على السؤال التالى : هل ما قلته سياسة أم شعر؟. اقترح آخر أن نهث عن وسيلة لتجديد أنفسنا. طولب بأن يحدد اقتراحه. قال : نذهب للجبهة. نحمس أكثر من لسان للاقتراح فى ضجة هائلة. هذا اقتراح بناء يا زميل. مضى زمن ولم نلتق بالكثيرين وهذه فرصة لكى نلقاهم فى السجن مرة ثانية. لا داعى لإقلاق رجال الأمن. نذهب جميعا فى أتوبيس ونعود به إلى المعتقل فورا كما حدث فى عدوان ١٩٥٦. ليست البييرة هى الفاسدة ولكن المزة كذلك. عندى اقتراح آخر : نتطوع فى الجيش الشعبى. باله من مشروع عظيم. ولكنه قد يعطلنا عن الإنتاج كما تقول الصحف. إنتاج ماذا؟. الخطابات المصلحية والثروة المعلبة. وأيضا مشروعنا الإنتاجى العظيم. الذى هو؟. إنتاج الأطفال. شرعيا؟. شرعى أو غير شرعى هذه مسألة شكلية. أنتم لا تقرأون الصحف. إخص على كلامك الفاسد. أنا أقرأ صفحة الوفيات. وأنا أقرأ صفحة الفن. وأنا أقرأ برنامج التليفزيون. نصحنى خبير سيكولوجى بقراءة أخبار الجرائم لإراحة أعصابى. وماذا كانت النتيجة؟. شؤم كوجهه. وكيف كان ذلك. البند الثابت فى صفحة الجريمة هو صور الفتيات اللواتى تختفين، وكلهن صغيرات وجميلات. أصبحت أخشى على ابنتى من الخروج إلى الطريق وحدها. «القوادة» أصبحت أكثر المشروعات الرأسمالية ربحا فى مدينتنا النامى المتحرر حديثاً. هل يمكن إعتبار «الدعارة» عملاً له فائض قيمة؟. مسألة تحتاج لدراسة. لكن من المستفيد من هذا الفائض؟. أسوأ شئ حقا هو أبواب المشكلات العاطفية، فكلمها وحى خيال مريض. خيالك هو المريض. نحن لا نفهم فى الحب فلا داعى للكلام فيه. أحببت ثلاث مرات. وكل مرة أخرج من السجن فأجد حبيبتى امرأة وقور، سمينة، ولديها طفلين على الأقل، وحامل فى الثالث. وعادة ما تقابلنى مرة وحيدة لتطالبنى برسائلها وصورها. إذا بعد عتاً شبح

وجود أدلة. كفوا عن ذكر محاسن موتاكم. أكره التاريخ الفرعوني جدا. القرعاء غالبا تتباهى بشعر بنت أختها. سأفتح محل بقالة ولن استخدم فيه الدفاتر. العمل التقدمي الوحيد الذى تسمح لنا به حكومتنا المعادية للامبريالية هو أن نزيد إنتاج الأطفال فى بلادنا. شرعيين أم غير شرعيين؟ ليس هذا مهما فكله زيادة للانتاج.

\*\*\*

جرّيت أن أقول الكلمة، وكنت جلفا شأن القاتل غير المدرب.. جاءت فى موعدها ويقمة فتننتها. لن تخدعك هذه البراءة الظاهرة فى عينيها. والغالب أنها فسرت كلامى فى المرة السابقة آلاف التفسيرات التى بوحى بها خيال مأزوم يبحث عن خلاص. لا بد أن ننسحب بهدوء ودون إراقة دم. ولكن كيف؟ وهل افترق العاشقان اللذان كانا هنا قبل أيام أم مازالا يارسان حبهما. شربت عصير البرتقال وشربت قهوتى. ولم يعد هناك مفر من الكلام.. وها هى تدفك للحديث. على حد هذه السكين سيذبح حينا :

- لا أستطيع أن أتأخر.. عاد «فؤاد» من السفر أمس.

«ها هى تذكر اسم الأخ الخطير.. فهل هو تهديد خفى؟»

- حمداً لله على سلامته.

بيسمة غامضة :

- تشاجر معى وأنا خارجة... لم تعجبه الجونلة.. ضيقة وقصيرة..

وأجبرنى على استبدالها.

- عنده حق.

أخذت لنفسها سيجارة، وأخرجت ولاعتها من الحقيبة. بشكل تلقائى تسلل بصرى داخلها :

السجن فقد أفكر فى الحب. يا راجل يا عجوز مناخيرك قد الكوز. عمرى ٤٠ عاما فقط.. ولكنك مصاب بدسته أمراض وشعرك يتحدى أعتى صبغة فى العالم. الغريب فى أبواب المشاكل العاطفية هو العلاقات الشاذة بين الأم وابنها والأب وابنته والأخ والأخت. يا ساتر.. هل ينشرون مثل هذا الكلام حقا؟. وأسوأ منه. نحن دعاة حرية للمرأة حقا ولكنى ألعن اليوم الذى رزقت فيه ببنت. العلاقات الأوديبية ظاهرة عالمية جديدة. بهت عليك الحبيب السيكولوجى. الحضارة الرأسمالية تنهار وتحلل خلقيا وهذه ظاهرة متوقعة. وما موقفنا من هذا العالم الأوديبى؟. لم يعد لنا موقف من شىء فالأفضل أن نكف عن الاهتمام بأى شىء. أقترح أن نطالب بعقوبة حادة لهذه الجرائم: الرجم أو الضرب بالسياط مثلا. اقترح رجعى ولا يعالج شيئا. السياط عقوبة عادلة ومؤدبة. ولكنها لم تؤدب «سعد». مرة كلفتة اللجنة المركزية أن يهتف بسقوط الديكتاتورية العسكرية فى وجه قائد المعتقل ففعلها. وجلدت مائة جلدة. شرحوا جسدى الله يلعنهم. ومع ذلك لم تتأدب. كانت أيام. الدكتور «جودت» كاد يقتل وهو يتعارك مع الشاويش «عبده سليمان». ذكرياتك مرعبة، «عبده سليمان» كان مصابا بالساذم. الحقيقة أننا نحن المصابين بالساذم. لماذا نتذكر أمجادنا؟.. ألكى نتعذب بها الآن. البطولة موقف مطلق القيمة، لا تغير الأيام من قيمته. هذا مجرد كلام نعزى به أنفسنا فرحم الله أيام زمان. قلوبنا كانت فتيه ونفوسنا نقيه. باعيني على الوعظ الخائب. ولكنه كلام حقيقى. كنا نمر بمرحلة البكارة. ومن الذى اقتض بكارتك؟. أنا لا أهزل. ولكن «البيرة» التى تشربها هى التى تهزل. أؤكد لكم أن العالم فقد بكارته. انتشرت موانع الحمل... وكثر الأطفال غير الشرعيين. هذا فضلا عن تعدد الأزواج.. هذه انتكاسة إلى المجتمع المشاعى. هناك ألف جمعية لرعاية الأطفال غير الشرعيين حسب آخر إحصاء. ظاهرة مخجلة. المخجل حقا هو ما نقوله. هبط مستوى الجلوس كما هبط ضغط دمي. مرة قلت لرئيس المجلس العسكرى الذى يحاكمنى أن يحكم بقانون هابط ومزور فحكم على بخمسة سنوات أشغال شاقة رغم علمى

- يكون الحق عنده لو كان زوجي.

دخلنا في المنعطفات الخطرة.. الصمت كالكذب منجاة. ولما طال. بدأ على وجهها سهوم مفتعل.

- يعترض على جونلة.. فماذا لو عرف بالباقي.

«بدأ الضغط على الجرح، فليخرج - إذن - صديده».

- لن يعرف.

- هل فكرت في الأمر.

بدفعة.. وقبل أن أتردد:

- نعم سنبحث عن طبيب.. ومن السهل أن نتخلص من الجنين

«لا مفر. قيلت الكلمة وانتهى الأمر. ولنصف الآن إلى مهاراتي المتعددة مهارة القتل بأكثر الطرق بدائية. وها هو الشحوب يتلع ملامحها ثم يتحول إلى اختناق تنفر معه العروق.. ولا بديل لصمتها سوى أن أتكلم»:

- أعلم أنها عملية خطيرة.. ولكني أثق في شجاعتك..

«أنت معجب بنفسك حقاً. ولعلها تثق بنفس الدرجة أنك جبان».

- كنت أود أن ينتهي الأمر بطريقة أفضل، ولكن ينبغي أن نقدر الظروف... وسوف نتزوج طبعاً ولكن في ظروف أهدأ.

وقفت فجأة.. قالت بكبرياء:

- أن لى أن أعود. أستطيع أن أدير أموري بنفسى.

\*\*\*

ضاعت عبثاً محاولات استعادتها.. أغلقت التليفون في وجهها كلما اتصلت فأصبح الرنين المتواصل هو الرد على أى محاولة لاستعادتها. ومع هذا أصبح شغلك الشاغل أن تجدها، والغريب أنك لم تكن تدبر

-٢.٢-

بالضبط لماذا؟.. وهان للحظة كل شيء مقابل أن تراها حتى لو كان هذا الشيء أن تتزوجها. ولكن صوتك كان كفيلاً بقطع الاتصال ليرد عليك الرنين المتصل. ومرة واجهت أذنك صوتاً خشناً يرد عليك في جفاء، فوضعت الساعة في رعب. وفي عملها قالوا إنها في إجازة ولا يعرفون متى تعود.. وتأمر الصمت والوحدة عليك. أما رغبتك فيها فقد عابثتك مرة أو مرتين وأثناء بحثك عن قميص تلبسه، وجدت أحد حمالات صدرها وسط الملابس. وها هو القميص على جسدك بذكرك بها. وكان إصرارها على أن ترد هداياك بأخرى مساوية لها في القيمة مشار مناقشات لا تنتهى بينكما. وقالت:

- أنا لا أبيع نفسى لك.. وأيضاً لا أشتريك..

بدأت المسألة معادلة رياضية صعبة الفهم جداً. وحاولت أن تثنيها عن فهمها، ولكنها أصرت بعناد صخري. وما كان أحلاها معانده. كم كانت طفولتها تثيرك. وفي المرات الأولى بدأت ساذجة، كأنها لم تعرف الرجال قبلك. ولرات قليلة مارست لذة أن يسلم إنسان نفسه لك لكي تكشف له أسراراً تتوهم أنه يجهلها. بيد أنك استوعبت الحقيقة بعد ذلك ببطء. فأسلمت نفسك لها تقودك بخبرتها التي لا تنفذ. وفي كل مرة كنت تفتح عينيك دهشاً لما كانت تفعله أو تقوله. ويقدر ما كانت تمتعة، كانت معذبة. ظل الشك فيها يروادك عشرات المرات كل لحظة: أين تعلمت كل هذا؟ وكيف يمكن لرجل واحد، في لقاء واحد، أن يترك كل هذه البصمات على جسدها وروحها.

\*\*\*

- ألفت لعنة عليك يا سيد «جودت» أين اختفيت؟

انحط سميماً ومتكوراً:

- عبادة اسكندرية دجاجة تبيض ذهباً.. والظاهر أنني سأعيش هناك طويلاً..

-٢.٣-

- ظننتهم اعتقلوك !؟

نفخ دخان البايب فى الهواء وقال :

- فعلوا ذلك بما فيه الكفاية.. بلغنا سن اليأس..

« أجل وأصبحنا آبا لأولاد سفاح ».

- وآية ذلك سمعتك التى لا مزيد بعدها.. أين رشاقة زمان..

- أنت تنتظر دائما للوراء.. ولذلك أرجو أن تصاب بمغص كلوى

كذلك الذى أصيبت به « مدموازيل سونيا ».

- ومن « مدام سونيا » هذه ؟

- زبونة إنفا.. جنان رسمى : مال وجمال وشباب ومغص كلوى.. ثم

هى مدموازيل وليست مدام.

- نشرب كورثوازيبيه لنستطيع أن نفهم الموضوع !؟.

- عمرك أطول من عمري. رغم أن طلبك يحمل طابعا استغلاليا

واضحا.

جاء الكورثوازيبيه.. هذه الجنبيها التى صُبت فى الكنوس، دلت

على أننا قد انتهينا حقيقة. والمشكلة أنه هو نفس الرجل الذى قاد أقدامنا

إلى طريق النشوات العليا. التقينا آلاف المرات وبرتت العيون بالحمام

وكان صلبا دواما. فمن الذى صهرنا فحولنا إلى كائنات بروتوبلازمية

سائلة.. وفى أى رواية قرأت أن الخمر مفتاح الفرج..

- صحة « سونيا هانم »..

- صحة المال والشباب والجمال والمغص الكلوى.

« صحة اليأس وعذريتنا التى انتهكها الزمن. ما أسرع ما يسكر

الأخر. هذا الصمت المحيط بنا يدعو لكشف النفس. وخارجنا بارد ولي

كذلك الداخل، فهو يغلى. ولا بد من فرجه يتنفث منها البخار. سرى الح

من الأطراف إلى مراكز الوعى. ولو لم يحدث هذا الموقف الطارى

لاستدعيته وعاودنا زمان الحب معا... آه ما كان أمتع لبالينا.

- لم أعد أجد وقتا للمتعة، ثلاثة أيام فى الإسكندرية.. وثلاثة أيام

فى القاهرة... حتى السينما لا أراها.

- حظك حسن.. السينما رديئة. رأيت أخيرا فيلما نافها جدا.

« امرأة من إياهن تخوم حولنا. أخيرا أصبحنا محط أنظار الساقطات،

مجدا للبكاء وللدموع ».

- نعم، حياتنا فى الواقع تفاهة مركزة. ولكن هل تصدق أن تحمل

فتاة من شاب ويفترقان، وتنجب منه ابنة. وتدور الأيام فيلتقى الرجل بابنته

وهى شابة جميلة، فيحبها وتحبه، ويهم بها وتهم به لولا أن يأتيهما برهان

ريك متمثلا فى آذان الفجر المفاجئ؟

- خيال مريض. والواقع أن الدنيا قد تغيرت. سأقول لك سرا. تقدم

لعيادتى فى العام الأخير أكثر من عشرين « أنسة » تظلمن إجراء عمليات

إجهاض.

« كيف يُدفع الحديث. ومن الذى يتحكم فيه؟. وهل تنتقل الأفكار

حقا كما زعم بعض العلماء ».

- وماذا فعلت ؟

- فى البداية رفضت..

- أتعنى ؟ ....

أردف دون توقف :

- ألقيت عليهن درسا قاسيا عن شرف المهنة. صحتك. الكورثوازيبيه

جميل ولكن عيني « سونيا » أجمل. لو رأيتهما. هما اللتان أجبرتاني على

إجهاضها.. أقصد على إخراج الحصوة من الكلى.. والشمن بسيط.. علاقة

حب مستمرة ومستمرة ووعد بأن استخدم مهارتى فأعيدها عذراء ليلة

الزفاف.

« فلتدر الدنيا ألف دورة : هذه الحوارق المذهلة كيف تحدث ؟ تقترب

الرمال المتحركة من كل الأقدام. والدوامة تبتلع الجميع واحدا بعد الآخر. فوا

حسرتاه على أيامنا التى لن تعود. سيشتت الأعداء. ولكن أليس من العدل



- ولكنك لن تأخذ مقابلا نقديا من صديق عزيز مثل «سعد».

ضحك بعريدة لفتت إلينا الأنظار. قال :

- هل لديك مفص كلوى أنت الآخر؟ ... ولكنك لست فاتنا..

جاريته فى الضحك :

- بالطبع لست أنا، ولكنها «سنا».. صديقتى

أكمل كأسه الأخير.. وضعه على المائدة قال :

- هذه حكاية تدعوني لاستضافتك لشرب زجاجة أخرى فى صحة

الآنسة «سنا».

\*\*\*

استقبلنى فى صالون العيادة. قال :

- اطمن. تم كل شىء على ما يرام.. ستحتاج لراحة لن تزيد عن

يومين. تنهدت. انزاح الكابوس. ستعود إلى أهلها فى الموعد الذى حددته

لانتها. رحلة الإسكندرية.

أشعل سيجارة وقال :

- حرمت نفسك من الأبوة.. (ثم بضحكة شاحبة) ومن يدري لعله لو

ظل حيا لأصبح ثوريا عظيما كأبيه. والحقيقة أن الأولاد كائنات مزعجة..

وأمس ضبطت ابنى يتحدث عن مظاهرات الطلاب بحماس مريب.

«هل تعود أيام المتع حقا؟. وكيف أمكن بهذه البساطة حل المعضلة

التي حيرتك. والعجيب إنها التي استأنفت الاتصال بك بعد القطيعة. وحين

عرضت عليها الحل لم تقانع. وعند اللقاء ابتسمت ابتسامة ذكرتك بلباليها

الماضيات. فكيف يقودنا اليأس دون إرادة منا؟ وإلى أين؟ وهذا الحديث

المتصل عن ابنه، ليس مهما الآن. ألا يدعونى لرؤيتها؟.

- أنت مدين لى بخمسين جنيتها.. كن حذرا فى المرات القادمة. قل

لى منذ متى وأنت تعرفها؟

- أقل من العام..

أن ننال نصيبنا من الدنيا. تعذبنا كثيرا وأن أن نستريح. هذه الأفكار الخبيثة متى تسللت إلى القلب؟. والمذهل حقا أن راحة شملتك من قمة رأسك إلى إخص قدميك. وها هو يبدو الآن قريبا منك جدا كما لم يكن فى يوم من الأيام. حتى أيام الحماس المشتعل والنشوات العليا. وحتى يوم وقف بجوارك فى قفص الاتهام يتحدث بشجاعة تهز القلب وتقوى أكثر الرجال ضعفا. فيتحمل كل المسؤولية عن الأوراق التي ضبطت فى شقتكما المشتركة».

صب لنفسه كأسا أخرى. وقال :

- وأصبح على أن استأجر لها شقة خاصة.. والمشكلة أنها فى كل

فترة تجيئنى بصديقة مصابة بحصوة فى الكلى.. انتشرت أمراض الحصوة

فى البلد.. صحتك..

ضحكت وأنا أقول :

- يبدو أن الطبقة الجديدة تتنازل لنا عن بعض امتيازاتها، مقابل

مهادنتنا لها.

إلتهم خبارة مملحة :

- سرعان ما تحرك السياسة.. ملعون أبو الذى اخترعها.. ثم أن

النساء لسن امتيازات.

- أقر بندمى لأننى لم أدخل كلية الطب.

- لا يجرك الخيال بعيدا.. والحقيقة أننى فى سن لا تسمح لى بأن

أرضى أكثر من امرأة، فوق النصاب الشرعى.. ولهذا لم يعد هناك مفر من

استبدال المقابل العيى بمقابل نقدى..

«من الذى يفسر هذه البديهيات المحيرة. وتظن نفسك قد سقطت

فماذا تقول فى هذا السقوط العظيم. إدركنا يا مولانا «الشيخ كورفوازية»

يا قطب الرجال، وفانع موصد الأبواب، انتشرت عفونتنا فى كل مكان، فوا

حسرتاه على أيام البكارة.



## نصف كوب من دموع التماسيح

« .. أظاهرة الذيل أنت يا حبيبتى .. ؟ .. »  
أرئى إذن ذلك الذيل الطاهر ؟ .. »

بنت اسمها «حكمت مسعود الصعدي»

عندما فتحت عيني في الصباح، قررت أن أقول لصديقي «حسين» رأيي الحقيقي في سلوكه، بيد أنني عدلت عن قرارى تحت الدش. رأيت من الأفضل أن يكبح الإنسان جماح أفكاره المتطرفة. وأنا أشرب كوب اللبن، انتهيت إلى تشخيص مبدئي لحالة «حكمت مسعود الصعدي». قررت أن أكتبه وأضمه إلى ملفها بمجرد وصولي إلى المستشفى. وانتهيت في تلك اللحظة إلى الاقتناع بأن رجلا مثل «غونار يارينغ»، هو شخص سعيد بلاشك، لأنه يتجول في العالم، وإذن فإنه لا يعرف الملل. وأنا أحلق ذقتي فكرت في أن جارتى تتبع المذهب الحنفي، بدليل أنها استحمت لتزليل جنابتها في الصباح وليس في الفجر. وقلت: ربما كانت مالكية أيضا. أظن أنهم أيضا يبيعون هذا. قطع وصول «حسين» المناقشة بيني وبين نفسي. اضطررت للابتسام في وجهه. تركت يدي التي امتدت للبحث عن كتاب

صمت لحظة.. ثم قال :  
- ليست هذه أول مرة أرى فيها صديقتك. سبق أن أجريت لها عملية إجهاض، وأعدت لها عذريتها. والحقيقة أنها لم تكن تحمل الإسم الذي تحمله الآن. فهل اسمها «سنا» حقا ؟  
- ماذا تقول !!!  
«صراخ، صراخ، صراخ».  
- إهدأ قليلا.. رجنتي «سنا» ألا أخطرك. وهي لا تعلم بالعلاقة بيننا، لكني أفضل أن تعرف، لكي لا تتشدد في لوم نفسك. فلا تجعلني أندم لأنني راعيت صداقتنا.

.....

«إسكندرية الشتاء متعة، ولكن السير الطويل فوق الانفعالات أنهكتنا... فمتى وكيف ينتهي. كنا نحمل القرون طوال الوقت، لكن الآوان قد آن لننف الضعف كله.. لذلك تركت العبادة هاربا. وفشل «جودت» في إعادتك. أنت في حاجة حقا لسكين تبتربها خلايا السرطان التي انتشرت في جسدك.. وليكن ما حدث درساً لها. فهل كانت تأتيك رغبة فيك أم لأن فراشها كان يخلو أحيانا من ضجيج؟.. والدواء الحقيقي للألم أن نبترب مصدره.. كم مضى علينا في هذا السير المرهق؟.. لو طاوعت نفسك لبصقت على وجوه النساء اللواتي مررن بك.. بيد أن فكرة اندست في تلافيف العقل فجأة: لماذا غضبت هكذا؟.. لماذا تلومها وحدها؟. وكل شيء أصبح تاريخا.. وهي جميلة وفي النفس رغبة فيها.. فلماذا نكبتها؟.. هل حددنا مواقفنا من كل شيء ولم يبق سواها.. متى تنتهي بلاهتنا؟»

واجهتُ محلا للزهور. دعنتي البانعة ببسمة تجارية.. خرجت حاملا باقة من الورد. عدت إدراجي إلى العبادة..

«الفقه على المذاهب الأربعة» معلقة في الهواء. قلت: في الظهر سأبحث في الكتاب عن رأى الخنابلة في إزالة الجنابة. تاهت كلمات الترجيب على لساني، ذلك أن الشيخ «رفعت» كان يتربع في الثلث الأخير من رأسى ويقرأ «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة». هتفت: يا الله.. أحسنتم يا مولانا. قال «حسين» أن زوجته سبقتنا إلى السيارة، وأن علينا أن نلحق بها فوراً. تصاعد نفير السيارة وأشيا بضيق صدر متعجرف. وقلت أن صدرها صغير كالنبته.

استقبلتنى بابتسامة تليفزيونية مدرية. فقلت أن ابتسامتها تتناسب مع شعرها المستعار. كانت «بلوند» في ذلك الصباح الشتوى، وهذا يعنى أننا في يوم «الإثنين». وشت البلوزة النايلون بها، فقالت أن الكوميين الذى تلبسه أسود. أصبحت أعرف الأيام بلون شعرها، فهى شقراء في يومى السبت والإثنين. وسعراء في يومى الأحد والثلاثاء. أما بقية أيام الأسبوع، فشعرها كستنائى غالباً. كنت أفكر في أن احتفال رأس السنة هذا العام ينبغي أن يكون مهولاً كما يجب لسنة تودع عقداً كاملاً من القرن. لذلك يجب أن تكون كرنفالاً هائلاً، ولماذا لا تكون حفلة تنكرية؟ ففكر في القناع الذى تلبسه. أمامك بضعة أيام. لم نتحدث إلا بعد أن قذفنا بها أمام مبنى التلفزيون. تنفست لحظتها براحة. فتحت صدرى. شممت نسمات النهار الندية.

انتقلت إلى المقعد الأمامى بجواره. اهتزت عروسة قوقازية معلقة على زجاج السيارة أمامنا. ملابسها زاهية الاخضرار. ملامحها دقيقة وعيناها جميلتان. داعبت وجنتيها. ضحكت. قلت: لو كانت امرأة حقاً لتدلتهت بها جبا. خيل إلى أنها تبتسم لى. فكرت في أن الحكيمة التى تعمل معنا فى القسم تبدو مستجيبة، ولكن لأنها تحمل الاسم نفسه الذى تحمله زوجة صديقى، فأنتى أتردد كثيراً فى مغازلتها. وأمس انحنيت «ضحى» - وهذا هو اسم زوجة «حسين» أيضاً - تعرض على أوراقا، تجاوبوا

ساعدانا، سرى إلى عبيرها داعياً وجاذباً. والمحظة كدت أحتضن خصرها إلى. ولكن اسمها - «ضحى» - طفا فجأة على سطح الوعى. باخت رغبتى. أبطأت السيارة وهى تدخل زحام ميدان التحرير. تحدث «حسين» عن برنامج زوجته. قال أنها ستسجل حلقة جديدة منه اليوم. أردف:

- من الصعب أن تكون زوجاً لإمرأة فى شهرة «ضحى» وأنت غير مشهور.

ضحكت دون أن أفتح شفتى. غمزت للعروس القوقازية. نظرت إلى بعينين ضاحكتين.

قلت:

- ولكنك تاجر ناجح ومعروف فى السوق.

قال بلهجة محايدة:

- يشيرون إليها دائماً كلما شوهدنا معاً. وفى الأسبوع الماضى عرض عليها مخرج سينمائى أن تعمل معه.

أوقفنا إشارة مرور. قذف البائع بصحف الصباح. ألقى نظرة سريعة على المانشيت الرئيسى للجريدة. قال:

- ستصبح السويس أكوام حجارة، بعد قليل.

«سبحت بقوة، كان البحر هادناً. عدت مبلاً إلى «الكابانون»، طلبت زجاجة كوكا كولا شريتها وألقيت بها فارغة على الأرض».

أردف:

- خسارة.

لهجته نحاسية. شارع القصر العينى هادئ. أما الفيلا فإن «جبل عتاقة» كان يحتضنها. قلت أننا لا نتكلم نفس اللغة، فمن يترجم..

- أظن أنهم عوضوك بما فيه الكفاية.

قال ساخراً:

- ملاليم وشرفك، وفي التجارة ليس المهم رأس المال، ولكن : السوق والإسم التجارى وحجم التعامل.

ها هي الهموم تظل برأسها من جديد. وأحيانا يبدو كأن الدنيا قد خلقت منه مسخا يدعو للاشمزاز. وأين ذهبت فكرة الصباح قبل الدش. لولا صداقة الطفولة والصبأ لعانينا كثيرا من سخافة ما يقول. ويوما وضع سيارته تحت تصرفنا وتعرض لخطر حقيقى.

قلت :

- ولكن الوطن فى خطر، وكل شئ يهون...

ضحك مقهقها. قال :

- لن أكرر خلاقى الدائم معك.. عيبك أنك تصدق كلام الجرائد وأنا اتحدى أى ابن كلب من الذين يكتبون فى الصحافة، أن بضحي حتى بمجرد موعد مع مومس بلدية من أجل الوطن الذى يكتبون عنه ليلاً ونهاراً. تصاعد إحتجاجى. ضاع فى موجة ضحك صاحب أنهى به كلامه. قلت معاتباً:

- كثيرون ضحوا، وكثيرون سيضحون، والحقيقة أنك لم تهتم أبداً بأشياء من هذه.

نفخ ضائقا. قال :

- ماذا أخذت من الحرب؟ دمر فرع السويس وفرع بور سعيد وخسرت الزبائن والاسم التجارى نظير ملاليم.

لم أعن بالرد عليه. قلت أن شيئاً ما يجذبني إليه. فما هو؟. فكرت فى أن أبحث ذلك مع خطيبتي «كوثر» فى المساء. ولكنى لم أقرر ذلك نهائياً، إذ لا بد أن سؤالا أو أكثر سبقفزان إلى ذهنها. ترى هل فكرت يوماً أن تلتقى بينت مثلها؟ وفى أى منطقة بالضبط من كيانها المتفجر بالحياة تكمن فتنتها وجاذبيتها؟. فى الابتسام؟. أم فى رنوة العين، لعلها فى التنفس الرقيق. قال :

- هل زعلت؟. ححك على. أعلم أنك ضحيت بالكثير، ولكن لعلك توافقنى على أن خسارة العمر شئ مزعج.

وافقتة. أردت أن اتخلص من إلحاحه. أعود لاستبطان فكرة ما كانت تشغلنى. صمت طويلا. سألتنى فجأة عن «كوثر». قلت :

- لبيت على ما يرام.. تشاجرنا أمس شجارا مفزعا.

إستمع إلى التفاصيل بانتباه. توقفت العروسة القوقازية عن الإهتزاز. وأنا أروى تذكرت أنها قالت أشياء سخيفة. حذفها من القصة. ضحك.

- النساء مشاكل معقدة، «كوثر» لا تفترق كثيرا عن زوجتى، فهما إبتنا خالة، وأرى أنكما فى حاجة إلى تغيير الجو.

- يعنى؟

- أظن أنكما تشكوان الملل.. إسمع.. لماذا لا تسافر؟.

- إلى أين؟.

- إلى أى مكان.. أو حتى لا تسافر، ولكن لا بد أن توهم «كوثر» بذلك..

- لا أفهم..

انتهاز فرصة الإشارة ليشعل سيجارة. قال :

- أنتما فى حاجة إلى موقف تراجيدى.. تصور لو قلت لها مثلا أنك مريض بالسرطان وأن الطبيب أكد أنك لن تعيش أكثر من ثلاثة شهور..

ستدب الحرارة فى عواطفكما الباردة وتستعيدان أيام الحب السعيدة.. أو تزعم أنك ستسافر إلى أى مكان وتدعوها لوداعك فى المحطة..

ضحكت..

- ولكن هذه فكرة سينمائية مبتذلة.

- لو سمعتك «ضحى» لأشبعتك سباً. هذه فكرة حلقة الليلة فى

- لو سمعتك «ضحى» لأشبعتك سباً. هذه فكرة حلقة الليلة فى برنامجها «دروس فى السعادة الزوجية».

ابتسمت. قلت أن الله سلم.. وعليه فى المستقبل أن ينبهنى إلى ذلك حفظاً للسلام العام. كاد وهو مستغرق فى الحديث أن يمر بالمستشفى دون أن يتوقف. ودعته. دخلت.

\*\*\*

روائح الفقر تهب. نساء متهدلات أكلهن الزمن. ذهب الجوع بتضارة العذرية. أطفال مهزولون هدّ المرض نشاطهم. جلس بعضهم يلهث. رائحة الفورمالين اللعينة. موظف الاستقبال بصرف تذاكره الحمراء. تمورجية تمسح البلاط فى نشاط. حيائى واحد وآخر. من بعيد بدت حجرة الأطباء خالية. مريضة من عنبر ٣ تصحب طفلتها إلى دورة المياه. تمنّت لى خيراً. ابتسمت. لو كانت أمنياتها تتحقق أليس من الأفضل أن تحتفظ بها لنفسها؟. كانت حجرة مكتبى نظيفة، بدليل أن المقعد كان فوق المكتب. ارتبكت التمورجية. قالت :

- لا مؤاخذه يا أستاذ.

ببسمه أزال إرتباكها :

- لا عليك، أطلبى لى القهوة لو سمحت.

بدأت تنظف المكان على عجل. تعثرت فى سجادة الأرض، كادت تقع. فتحت باب الشرفة. وقفت أتأمل ما حولى فى انتظار أن تنتهى من عملها. أطلت من مكاني على زحام المنتظرات فى «الاستقبال». أطفال وأمّهات ولا أكثر. بعضهم بملابس المدرسة. مرايل من التيل الرخيص متبلدة بالعرق والتراب وأثار الحلويات الرخيصة فى جيوبها. ويقع من الحبر. الأمّهات : ملاءات سوداء ملبنة بالرتوق. وجوه ساهمة مثقلة بما تحمل من هموم، فأين نظرة الصفاء فى حدقات العين؟. يسحب الكدر نفسه على

أصبحنا من متفرجى الشرفات. كنا يوماً سباحى بحر العرق المتسع. وكم حملت الجيوب: طلقات. قنبلة «ميلز» تحملها الكف فى الجيب، والأصابع تمسك مسمار الأمان. عدت إلى المكتب. الأوراق ملقاة بإهمال هنا وهناك. تعال نسبح فى بحر الكلمات بلا معنى، نحترق بنشوة مزيفة بين أحضان «كوثر». نشرثر بين الحين والآخر بكلام لا معنى له، ما أجدر أن تصبح يوماً أنشط التجار. بالخط الكوفى تكتب على باب المحل: «رأفت البشلاوى» مناضل سابق. (الأدلة رصاصة فى الذراع اليمنى، ندبة فوق الحاجب. وطعنة سونكى فى الفخذ الأيسر). مستعد لتوريد جميع الشعارات لزوم الاحتفالات والمواكب والمقالات وشعر المناسبات الركيك. مؤلف كتاب «الطلقات فى مقاومة الآفات بأحسن الكلمات».

تناولت ملفاً كان يرقد منزويًا فى ركن المكتب. على غلافه «سرى جدا. المعلومات الواردة به تستخدم لأغراض مهنية ولا يحق لأى جهة الاطلاع عليها أو إستخدامها». ابتسمت ساخراً. كان عنوانه «بحث اجتماعى لحالة المريضة حكمت مسعود الصعدي». قرأت تشخيص الطبيب لحالتها. «روماتيزم بالقلب. ضيق بصمام الميترال. درجة الاصابة - ٤». رتبت الأوراق القليلة فى الملف. تبدو كالزهرة، فكيف يكمن الموت فى قلب الزهور كالحديعة النكراء؟. يوماً كان صبح كهذا الصبح. جلسة كهذه الجلسة. وترتيب أوراق كالذى أفعله. أول ما رأيت منها أصابعها الرقيقة. أمام الكتلة الخشبية التى تحمل إسمى فى مقدمة المكتب. خيل إلى أن بصرى يخدعنى. إذ كيف يتأتى أن تثبت هذه الأصابع فى لوح الزجاج الذى يغطى سطحه؟. رفعت رأسى فى فراغ الغرفة الباردة. رأيتها. أطول من المكتب قليلاً. شعرها أشقر يشع شمساً. عينها خضراوان بلون الحلم. بشرتها رائقة، نقية. ملامحها دقيقة.. دقيقة.. قالت بدفعة:

- أنا «حكمت مسعود الصعدي».

كدت أضحك. تقدم نفسها بوقار لا يتناسب مع سنّها الصغيرة. ثمانى سنوات بالكاد. ملابسها فقيرة. بلوزة مشجرة. وجونلة صوفية قديمة.



شعرها مضفر بشرائط بلون البلوزة.

قلت :

- تشرفنا يا ست «حكمت». لكن كيف دخلت هنا؟

قالت بصوت خفيض وهي تحبب فمها براحة كنها :

- أقول لك بشرط ألا تقول لأحد.

تملكتنى حالة نكوص طفلية. قلت وأنا أخفض صوتي مثلها:

- لن أقول لأحد.. هيه، كيف دخلت؟

قالت بابتسامة شيطان وليد :

- ضحكت على «خالة منيرة».. ودخلت..

نظرت إلى مقعد بجوارها كأنما تستأذنيني لتجلس. قلت :

- أحكى لى.

نظرت إلى مقعد بجوارها كأنما تستأذنيني لتجلس. قلت :

- إقعدى...

- متشكرة.. أصلى تعبانة شوية..

أتاح جلوسها فرصة لتأملها عن قرب. تبدو جميلة كزهرة غسلها ند

الفجر.

قلت أستحشها :

- هه.. كيف ضحكت على التمورجية؟

ضحكت ضحكة طفلة أسرة :

- قلت لها الدكتورة «وداد» تريدك. جرت مسرعة. ففتحت الباب

ودخلت.

إبتسمت كأنها تشهدنى على ذكائها. قلت :

- أنت شاطرة.

- متشكرة..

تبدو شديدة الأدب. قلت :

- جنت وحدك !!

- لم يرض أبى بالمجئ معى. شغل. جنت مع جارتنا. رفض «سعيد

أفندى» أن يعطينا التذكرة. قال: إننا تأخرنا، ركبتنا الأتوبيس وحياتنا ريتنا.

ومع ذلك تأخرنا.

تبدو عارفة لكل شئ. إسم التمورجية، و «الدكتورة وداد». وأبلة

«ضحى» الحكيمة أيضا. وسعيد أفندى كاتب الاستقبال..

- أنت عارفة المستشفى جيدا.

- أصلى عيانة من زمان. جنت هنا كثيرا وأنا صغيرة. ثم انقطعت..

عايزة أكشف الله بخلبك..

لهشت.. توقفت عن الكلام برهة.. طلبت لها شايًا. ترددت قليلا ثم

شربته. كان الجو باردا. الحجرة رطبة كأنها ثلاجة فاسدة الموتور. ثارت

«منيرة» أرغت. أزيدت. جرت هى فى الحجرة. احتمت بالمقعد الذى كنت

أجلس عليه. قالت «منيرة» :

- هذه قلة أدب، لا مؤاخذاة يا أستاذ. لقد ضحكت على هذه

الشيطانة.

قاطعتها :

- دعيها «ياست منيرة»، إذا ما جاءت بعد ذلك إدخليها فورًا.

نظرت «منيرة» بعجب، قالت :

- لقد أرسلتني للدكتورة «وداد»، وأرسلت الست «ضحى» الحكيمة

إلى عنبر ٣ ثم دخلت الحجرة.

بحسم:

- انتهينا.. أين الدكتورة «وداد»؟

- تمر على عنبر ٣.

- بمجرد عودتها أخطرني..



دعتها إلى جهاز الأشعة. بصرى المنهك يحاذر أن يصطدم بأرداف «ضحى». كانت تتحرك بحيث تصطاد أردافها بصرى، وهى منهمكة فى إجراء رسم القلب. تابعت ريشة الجهاز الصغير وهو يرسم الذبذبات، قلت أن ذلك كله يعنى أشياء، قد يكون بعضها مربعا، كما يعنى الرسم البيانى لإزدياد وزنى. فهل هذا دليل على الراحة أم التبلد؟ رؤية صورة قديمة لنفسى تعنى أشياء كثيرة. ضحكت «كوثر» طويلا عندما رأتها. قالت : كنت رفيعا كبوصة، وحليقا، فما أجمل شريك الدوغلاسى، وقلقا كما ينبغى لإنسان ضائع لا يجد من تلمه. أما الآن فما أنت تبدو مرتاحا. وإذا ما تزوجنا، إزداد وزنك، سيكون هذا شهادة لى بأننى زوجة ناجحة. فما معنى هذا كله؟ تعمل الطبيبة فى انهماك. «ضحى» تسلط أردافها الفاتنة، فأين قوات الدفاع التى تستطيع أن تصد هجوما يوجهه عقل إلكترونى، كذلك العقل الذى وجه غارات حلوان ووادى حوف؟

فى الاجتماع الأسبوعى للقسم، قالت «الدكتورة وداد» :

- حول إلى الأستاذ «رأفت» حالة جديدة تدعى.. تدعى «حكمت مسعود الصعيدى»، وقد أجريت لها الفحوص الضرورية. وتكشف النتائج عن أنها حالة صالحة جدا لتضم إلى عينة البحث الذى لجره.

تراشقت هى وعدد من الأطباء، وأستاذ القسم بالعديد من المصطلحات الطبية. كنت قد حفظت المصطلحات. أتقنت ترديدها دون أن أفهم معناها بالتحديد. لكن ذلك لا يبدو مهما. كما لا تبدو «حكمت» نفسها مهمة بالنسبة لهؤلاء جميعا. يتحدثون عنها كما يتحدثون عن فتران التجارب وكلابها. ولكن من يعانى حقا ما تعانيه؟ من يلهث كما تلهث، يصاب بالدوار. تتقطع أنفاسه. تضيق. بصفر وجهه. تهرب الدماء منه. تمتلئ بالأورام كل مساحة من جسده. الاجتماعات تبدو جميلة: رجال منمقون يؤدون أدورا فى مسرحية بلا معنى، يكررون ألفاظا يحفظونها عن ظهر قلب. فلماذا لا يضعون أقنعة فوق وجوههم؟ متى تخلعين هذا المعطف الملائكى الأبيض يا «دكتورة وداد»؟ مشوق أنا لدفء اللحم الذى يغطيه

مضت التمورجية. عادت هى إلى جلستها لاهثة. فى عينيها الجمليتين نظرة أسف، ربما لأنها لم ترو لى ما فعلته بالحكيمة. قالت بعد لحظة:

- أئن تكشف على أنت.. هل زعلت منى؟

ربت على كتفيها :

- لا.. لم أزعل.. ولكنى لست طبيبا.. أنا اخصانى اجتماعى..

بحيرة :

- مشرف إجتماعى يعنى، كأبلة «محاسن».. هل تعرفها؟ فى

الضمان الاجتماعى بالساحل.

ويصوت حزين :

- رحت إليها كثيرا، طردنى الفراش، قلت لها يا أبلة نحن والله العظيم غلاية، وأبوى عجوز، وخالى شغل، وأختى «ليزا» عيانة بعقلها. كتبت الكلام، وقالت عودى بعد شهر، ولكن لم تصرف لنا شيئا.. مع أنهم صرفوا لأم محمود جارتنا اثنين جنيه مره واحدة..

\*\*\*

إستقبلتنى الطبيبة بنظرة متسائلة. كانت تفحص عددا من رسوم القلب بعناية وتكتب قراءتها. شرحت لها الأمر. دعتها إلى منصة الفحص، ترددت قليلا قبل أن تستجيب لأمر الطبيبة بتعرية صدرها. ابتسمت. أدت لها ظهرى. وقفت على ميزان صغير بركن الغرفة أزن نفسى. إستغرقت الطبيبة وقتا طويلا فى الفحص. بعد الإنتهاء منه. قالت بالانكليزية :

- حالة نموذجية لو ظهر رسم القلب كما أتوقع. «ضحى». «ضحى».

جاءت الحكيمة تتمايل، دست نظراتها بين عيني. قالت الطبيبة :

- إضبطى جهاز رسم القلب. سأجرى لها أشعة نظرية..

معطفك الثلجي هذا. بدت الفكرة يومها سوداوية ومتشائمة، كفكرة محل التجارة التي تعابث نومك وأرقتك، فمتى يذهب هذا الليل الساجي ويأتينا الضحى؟! لا تنقص أحدهم الجديدة. حتى «وداد» نفسها، يبدو كل شيء عندها وقودا لأبحاثها. لا ألوان ولا أصباغ. في أحيان متعددة تنسى نهائيا أنها أنثى، رغم جمالها الذي يبدو صارخا. ولتقر بأن هذا جميل وعظيم. لكن شيئا ينقصه حتما، فما هو؟ آه. ها قد تذكرنا القظ فجاء ينط.

رفعت رأسى عن الملف. أغلقتة. كانت قد وصلت إلى منتصف الحجر، قالت :

- صباح الخير يا أستاذ «رأفت». سأشرب قهوتى عندك. احتل الأستاذ وأطباء الإمتياز العيادة والمكتب. ولدى عمل هام.

سحبت مقعدا. جلست خلف منضدة متوسطة الطول. تبعثها «ضحى» بعدد من الملفات. جلست على مقعد أمامها. تحولت المنضدة إلى سوق. أشعات. أوراق رسم القلب. ملفات. مقص. زجاجة صمغ. دباسة. انهمكتنا فى العمل. اصطادت عينا «ضحى» عينى أكثر من مرة. برقت منهما نظرات عرفان وتشجيع. أصبحنا خبيرين فيما يبدو بلغة العيون. النظرة داعية فما الذى بصدنا؟ أهو الاشتزاز من كل شيء؟ تخفى «وداد» جسدها بمعطفها الأبيض ونظارتها الطبية. شعرها مكوم فوق رأسها. قلت أن البحث عن الأنثى فى هذا الكيان الوقور المتبتل فى معبد العلم يحتاج إلى مجهود. ها هى العين تصطاد ما لم يستره المعطف من ساقبها. يشير الجزء الأخير من الساق بأن الفخدين ممتلئتان ودسمتان، القاعدة فى رأسى تقول إذا كانت المنطقة من الركبة إلى القدم كالهرم المقلوب فهذا يعنى أن الأفضاء دسمة وليئة. الجلد أبيض ولامع. فكيف تلتف هذه الفتنة المتفجرة بهذا الاهتمام الوقور بالأشياء؟. ها أنت متلبس بفكرة إقطاعية رجعية تنتمى إلى العصر الوسيط.. فهل هى كذلك حقا؟ أم أنك مشوق للبحث عن الإنسان داخل هذا الكيان الذى لا يرى البشر سوى موضوع لبحث دون أن يخفق قلبه للعذاب الذى يقاسونه. لو قدر لك يوما أن تعريها من كل هذه الأثقة،

فماذا أنت فاعل؟. أقسم بمن شامت مقاديره أن يحيل ثورتى إلى المعاش قبل الأوان لأضربنها بالسوط قبل المضاجعة: هى وحدها التى تعرف حقيقة المرض وخطورته. إرتفع اهتمامها بحكمت إلى الذروة، بيد أنه كان فى الحدود التى ترسمها لكل شئ.

- إنها حالة نموذجية كما قلت لك، تتفجر بدلالات خطيرة وهامة. وإذا صح ما أفترضه فإنها تصلح موضوعا لمقالى السادس للمجلة الطبية الأميركية.

آه، أين السوط يا أولاد الكلب؟! وحياة قمع السكر المقلوب الذى ينم عن جمال الفخدين، لأضربنك بالسوط وأعلمنك العذاب الحقيقى، وليكن ذلك آخر أعمالى الثورية.

رفعت رأسها. لوحت بملف فى يدها. قالت :

- يا أستاذ رأفت. فتحنا ملفا طبييا لحكمت الصعدي. وقد تضخم كما ترى، فهل تضخم الملف الإجتماعى أيضا؟.

آه «الملف». سرعان ما تحولت إلى أوراق. فكيف تتحول نظرة العين الساجية إلى ورقة؟. والبسمة والغمازتان الرقيقتان فوق الوجنتين؟. أدركونى بأدوية «الضغط» و«المرارة». قلت :

- أنت نشطة جدا يا دكتورة وهذا طبيعى، أما بالنسبة لى فقد أجريت مقابلة مع الفتاة نفسها وحصلت على بعض المعلومات القليلة، ولكن لفدة فى الوقت نفسه.

أو مات برأسها. قالت :

- هذا جميل.. وبالطبع ستزور أسرتها فى المنزل..

- نعم.. وضعتها فى خط سيرى هذا الشهر، بعد حوالى عشرة أيام.

ناولتنى الحكيمة بإشارة منها بعض صور الأشعة. قالت :

- هذه صور الأشعة الثابتة. وتقارير عن آخر سرعة ترسيب للدم أجرته لها، وهو مرتفع جدا.

تتكلم بحماس. تنسى أنني لست طبيبا. أخذت أتأمل صورة الأشعة وقد رفعتها أمام عيني. ها هو قلب «حكمت». مجرد صورة، لا تتكلم معي لأن عيني لا تحسنان لغة الكلام على اللدائن البلاستيكية الشفافة. أين الضحكات والبسمات التي تملأه؟ أين الخوف والجوع وصراخ «ليزا»، أختها الزاهية العقل؟ وأين أقدام «عم مسعود الصعدي» المتشقة من الحفاء طول العمر؟ وأنا أحرك وجهي لاظهار برؤية الصورة، نفذت نظرتي عبر مسطحها الشفاف، في منطقة مغبرة، رمادية، لتلتقي بعيني «ضحى». أه هذا هو الكلام واضحا فيها وبلا تردد. هذه النظرة - كما يقول قاموس النظرات الذي أعرفه - تعني دعوة للرقاد فوقها. قلت أغيشوني يا شرطة الآداب، ها هو تحريض علني على الفسق، وبيننا قلب مريض تغيض بسماته، ومحراب العلم أمامنا يرتدى معظفا ثلجيا، فليتعظ أولاد الكلها وتضعي في عينيك الفتاكيتين حصوة ملح، فإنني حزين وملول، مقتول وقاتلي علامات استفهام لا تنتهي.

قالت الدكتورة بلهجة نحاسية :

- القلب متضخم جدا... هل تعطيني فكرة عن ظروفها الاجتماعية؟

ناولتها الصورة. قلت :

- التفاصيل التي عندي قليلة جدا. تعيش مع أخت كبرى مريضا عقليا فيما يبدو. الأم متروفاة. الأب شبه عاطل، ويعمل أعمالا متفرقة ويستكنون «عزبة الورد»..

كانت تكتب. قالت :

- «عزبة الورد»؟. إسم جميل.

أجل «عزبة الورد». والأ لما بدت هكذا مزهرة ونقية، طهوراً كحبات الندى المؤتلق في ضوء الفجر..

دق جرس التليفون. كانت «كوثر». قالت بلهجة تقلد فيها ممثلا

سينمائية :

- أنت غاضب مني؟!  
توشحنا بالصبر.. اللهم طولك ياروح.  
- لا أبدا.. تعرفين أنني لا أقدر على إغضابك.  
لاحظنا أنني خفضت صوتي، تظاهرتا بالانهماك فيما بين أيديهما.  
ألقت «ضحى» نظرة أريكتني. أعطيتها ظهري بحركة غير ملحوظة. قالت هي :

- ولكنك كنت المخطي..

طرأت الفكرة على رأسي فجأة. قلت بلهجة عاطفية :

- ليس هذا هو المهم الآن، لا أريد أن أسافر وبيننا غضب.

قالت :

- تسافر؟ إلى أين؟

- واحد قريبي مات في الجبهة. سأحضر تشييع الجنازة. وسأبقى هناك أسبوعين تقريبا.

صاحت على الطرف الآخر :

- غير معقول، هل أحرم من رؤيتك أسبوعين كاملين؟

أبهجني كلامها. هل أن أن نقر أن برنامج «دروس في السعادة الزوجية» هو أنجح البرامج على الإطلاق؟ هل تسرى الحرارة في أيامنا الرطبة؟ لندع الله ألا ترى الحلقة التي أعدتها بنت خالتها، وإلا إفتضحنا وانقلب علينا قصدنا. قلت :

- تعلمين أنني لا أطيق البعد عنك. ولكنها الظروف.

قالت في إستسلام اليأس :

- ومتى تسافر؟

- الليلة.. قطار الثامنة والنصف.

قالت فجأة :

- هذا يعني أنك لن تحضر احتفال رأس السنة.

- للأسف!

- هل تأتي لتودعني قبل السفر؟

طاقتي على التمثيل تنفذ، فاللهم إمددنا بعونك. قلت :

- لن أستطيع. ولكن سأكون في المحطة في الساعة السابعة

والنصف. هل تأتين؟

قالت :

- نعم.. سأتي ..

وضعت الساعة. في نهاية المحادثة، كان صوتها متهدجا كالموشك على البكاء. فهل هو جزء من التمثيلية أم أنه صادق؟ فركت كفي مبتهجا. ها قد نجحت الحطة. تحياتي لك أيتها التليفزيونية الشقراء السمراء، رغم الكراهية المتبادلة. ولولا أنك زوجة صديقي، واسمك مطابق لاسم تلك الممرضة الدائمة التحريض على الفسق العلني، لكان لنا معك شيء آخر.

في المكتب المقابل.. كانت الطبيبة تنظر بتمعن إلى رسم القلب.

قالت :

- أشك في أن هناك شيئا ما في «الأورطي» أيضا..

باخت فرحتي.

٢

المصنفون

على السويس. تنزعج. كيف؟... لا تسافر. الصحف تزعم بأن أطنان القنابل تلقى على المدينة. هل أنت مجنون؟. أصر على السفر. لا بد... الواجب يحتم هذا. والخطر؟. ليس مهما في سبيل الواجب. أنت أعز شيء عندي. أرجوك.

إذ ذاك ابتسم بسمة غامضة. أقول :

- لا تخافى على يا حبيبتي..

أقبلها علنا وعلني هذا الرصيف. تلتصق جسدها الشهى بجسدي. تذوب في. تمرغ وجهها كالقطة في صدري، تشرق عينها بالدموع، أقبلها. أفتز إلى القطار وهو يمضي. تقف هي على رصيف المحطة، تصرخ : أكتب لي. أقول ببسمة من لا يهمه الخطر: كل يوم، إطمئني .. سأعود. يمضي القطار. يغادر الرصيف، يبتعد شبحها الرقيق، يغيب في ظلمة البعد والليل.. تلوح بمنديلها الصغير. ألوح بيدي. عند قليوب، أغادر القطار، أعود بالاتوبيس إلى بيتي، بعد يومين أتصل بها، لا بعد ثلاثة. أو أربعة. أقول: عدت يا حبيبتي. لم أطق البعد عنك.. فلتريني شطارتك أيتها التليفزيونية المتعجرفة. هل يستطيع خيالك القاصر أن يرسم هذا «الإسكربت» المتقن؟. صحيح أنك صاحبة الفكرة، ولكن مطورها ومنفذها، وغدا سأبيعها في محلى التجارى ذاك الذى سأفتتحه.

ها هو كل شيء قد فشل. سقطت حفلتنا سقوطا ذريعا.. فهل تشمت بي «ضحى» التليفزيونية؟. يا له من يوم «بلوندى» مظلم. فكرت أن أنتظر القطار التالي. ساعة أخرى لا تضرب، وربما تأتي.. آنذاك تغير قليلا في الحكاية. ما رأيك لو زعمت أن قريبك هذا قد ترك أرملة شابة تحتاج رعاية. ولتدس في الحديث ما يفهم منه أنها أرملة جميلة، وأنه كان بينكما ود قديم، حب أم ود؟. تتركها عائمة هكذا وتترك خيالها الشكاك يؤلف ما شاء. هذه فكرة أطرف.. سيزيد قلقها عليك ولهفتها. ثم أنه عقاب



العمل. وهى كلمة لا تكلفه شيئا سوى ثابتين من وقته. ولكنها تكلف من كان مثلى فى رقبته كوم من اللحم، أشياء لا حصر لها.  
إنهكم فى إعادة الجزء الذى انتزعته. قلت أقسم أن قلبه مريض، وأن هناك جلطة فى الشريان التاجى، وسيولة دمه صفر. قال :

- لم يفتك القطار.. فلماذا لم تسافر؟

فكرت لحظة، قلت :

- كنت أنتظر من يودعنى، لكن لم يأت أحد..

أخنى رأسه ليرى جيدا المكان الذى سيعيد فيه الجزء المنتزع من جسم الآلة. تحسسه بأصابعه. قال :

- عملت فى هذه المصلحة أربعين عاما.. بدأت عطشجيا ثم كساريا، سافرت آلاف المرات، لم يكن فى وداعى أحد على الاطلاق، واستقرت بهى الحال هنا بعد أن غدرت بهى الصحة.

أخيرا استقر الجزء المنتزع بمكانه من الآلة. كان يخفى صلته من البرد «ببيريه» ناحل اللون، متسخ. وضع التذكرة على طاولته الرخامية. لهث بشدة. أخرج علبة دخان صفيحية وورقة رقيقة وأخذ يلف لنفسه سيجارة. أردف :

- لم يكن يودعنى سوى صوت أمى الله يرحمها. كانت سيدة طيبة، كان صوتها يتصاعد بالدعاء لى فى أى وقت أخرج فيه. فى الصباح، فى الظهيرة، وحتى فى الفجر. كانت كفيفة. ولكن قدرتها على اكتشاف أقدامى كانت قدرة غريبة.. غريبة..

إنتهى من لف سيجارته، أشعلها. تناول التذكرة وضعها فى الآلة.

قلت :

- وكيف كانت تدعو..

إزدرد نفسا من سيجارته الهشة. كاد يأتى عليها. قال :

تستحقه على إخلائها الموعد. أدت قرص التليفون برقم منزلها. قالت أمى أنها خرجت قبل ساعتين ولم تعد.

فى شبك التذاكر، نظر إلى «التذكري» دهشاً. سألنى لماذا أسافر:

- فاتنى القطار.

نظرت عجزا، كلامه مجهد كوجهه، طاقم أسنانه قد بلى..

- ولكنك أول من وصل إلى هنا، زاحمت، تشاجرت حتى تقطعت لنفسك تذكرة، القيت على محاضرة حول مصالحك التى ستتعتل إذا تسافر..

إبتسمت. ناولته التذكرة لكى يجعلها صالحة للقطار التالى :

- قطار التاسعة غير ممكن، إنه قطار حربى، مخصص للجيش فقط هناك قطار آخر بعد ٥ بنصف ساعة.

- لا مانع..

تابعت حركة يده المرتعشة وهو ينتزع جزءا من الآلة، ليغير القطار. قريبا من عينه جدا.

- أنت فى حاجة إلى نظارة طبية.

ضحك، كان ما يزال يعالج الآلة. قال :

- لا نائدة.. أرى بدونها خيرا مما أرى بها. أكلنا الزمن وانتهينا.. ضحك..

- لا تبدو عجوزا جدا..

- مجاملة طيبة ولكن لا تغير الواقع.

- صحتك جيدة فيما أرى !

- لم أحاول أن أفحص نفسى. أخشى أن يقول الطبيب كفى



- آه كانت تقول : روح الله يكفيك شر سكتك يا بنى..

ابتسمت. ساذج هو الرجل كأمه. عجوز ومخرف مثلها. وكنت أنتظر أن يقول حكمة بليغة، تمخض الجبل فولد إبتذالا وتكرارا..

قلت :

- هذا دعاء معروف.. كل الأمهات.. تقلنه، ولا أدري أى شر يقصدن. تنهدن..

- إسكت يا أستاذ.. أنت شاب ولا تدري شر السكك، الله لا يريك ولا يحكم لا على عدو ولا على حبيب. أمثالنا فى رقبتهم كرم لحم، عيال كالفراخ والحمام الصغير، لو سقط الواحد منا تعرى لحمه، جاع، استجلى شرب الذل حتى أطراف الأصابع..

فى لهجة العجوز أحسست برعب غريب. خفت :

- التذكرة من فضلك ..

وهو بناولنى التذكرة..

- آه.. الساعة الآن التاسعة وصل ٩.٨ وهو المحربى.. أ

المواعيد دون نظر إلى ساعة.

ما كدت أخطو خطوتين، حتى سمعت صوته، مناديا :

- يا أستاذ.. يا أستاذ..

رفعت رأسى إليه :

- إسمع .. قطار التاسعة والنصف هو آخر قطار حتى المساء. إذا

تأت.. سافر وتوكل، الله يكفيك شر سكتك.

هدأت خطواتى.. على الرصيف، كان الجنود ينفلتون فى سرعة خارقة. يبتسمون. تأملت وجوههم. قلت أنهم صغار جدا، ومبتسمون. ألقى واحد على السلام ولم أكن أعرفه. رائحة غريبة فى أجسادهم لا تدري ما هو بالضبط. لكنها تشيع الدفء فى هذه الليلة الباردة. ضحك واحد من بعيد قال الآخر : أجازتى ٤٨ «س» أقابلك «سعت» ١٣.. يكره. مصطلحات

عسكرية. أعرفها جيدا. لغتهم غريبة. ملابسهم صوفية خشنة، فهل يمكن أن تدفى هذه المحطة الواسعة؟ أهديتهم ضخمة تدق الأرض فى صلابة. قال حمال عجوز من الرصيف البعيد «عاملين آيه يا ولاد؟» واحد : بمب. آخر : فولاذ. ثالث : الحديد بلى واحنا لم بليتنا. الحمال : جدعان. واحد : إزيك يا «عم بدوى». كما تركتمونى فى الشهر الماضى. أنتم من أى سرية؟. الله نسيت يا عم بدوى. ذاكرتك ضعفت. عجزت وراحت عليك. جاء يلهث من الرصيف الثالث، قفز وصعد: بالأحضان. كيف حالكم يا ولاد؟. قلنا عال. عملتوا إيه الجمعة دى؟. ألم تسمع الاذاعة؟. سمعت، الضرب كان جامدا جدا. ولا يهكم، أجمد، كله فى الحجارة وشرfk يا «عم بدوى». هدموا السويس أولاد الكلب، بركاتك يا سيدى الأربعين. قلنا لا نهتم، كله فى الحجر. نحن الذين بنينا ونحن سنبنى غيره. يا عيال أنتم لا تعرفون غلاوة السويس عندى. أخذت من لحمى طبقات. الشباب، والرجولة، والكهولة، أجدع رجاله، وامتع النساء أطيّب الأمهات، إلهى وأنت جاهى، بحق محمد حبيبك، لا تمتمنى قبل ما أشوفك يا سويس منصوره، ورأسك مرفوعة. هل ستخطب. بابن الكلب أنت وهو، عمكوا «بدوى» لا يخطب شيلنى، أنت وهو. هات ما بيدك. وأنت. وأنت. وأنت.

- أنا لأ.

- ليه؟.

- أنت يا عم بدوى ترفض أن تأخذ نقودا مقابل المشال.

- سبحان الله. هذه هى الشيل. يا جدعان يا عالم. يا هو. إنت

مستجد؟. إنت كركمى؟. قلت ألف مليون مرة، على ندر لسيدى الأربعين وستى الظاهرة لا أمد يدى وأخذ قرشا من العسكرية. أنا يا ولد أنت بايع نفسى للجهادية.

إسأل قائدك. أنت فى سرية من؟. اسم الملازم بتاعك آيه؟.. كل

عساكر وضباط خط القتال عارفين أن «بدوى» لا يأخذ نقودا من العسكرية.

تبسم. قال. ما خلاص بقى يا «بدوى». قلت له : لا.. كله إلا ده يا «أبو رياض»، الرجال لازم تخلف رجاله. قال : بعد ما نخلص بإذن الله نبقى نشوف. قلت له : حلفتك بالحسين تسمى إبنك «بدوى». قال : على عينى. الله يرحمه. كان ذكر. يا سلام يا ولاد. ودينى وما أعبد السبجارة معى حتى الآن، ما دخنتها، شايها حرز... هه.. معتدل مارش يا ولد على الجماعة طوالى. غدا مساء «عد كما كنت» أحكى لعمك «بدوى» ما حصل. وإلحق السويس.

التقطت عينى المهاجرة خلفهم شبح «كوثر»، عند مدخل الرصيف. شفتنا حبيبتى كالكريز فى أوان النضج. شهيتان مضمومتان، فإذا انفرجتا بلا كلام، حركتا فى القلب أشواق الاحتضان والذوب والموت حيا. فإذا ما تكلمت باخت الأشواق، واغتيلت الأحضان، وآن لنا أن نموت قرفا. قالت إنها تأخرت عن وداعى لأنها كانت عند الكوافير، زمتها، أردفت:

- أنت لا تعرف «ميمى».. كان اليوم مشغولا جدا، يعد لتسريحات رأس السنة وقد رجوته أن يقدمنى على زبونة أخرى، وتطلب ذلك وقتا. «ميمى» لا يحب هذا. ألححت. كدت أقبل بديه. وأخيرا وافق. مدهش جدا «ميمى»، لذلك تأخرت.

لم أكن قد وضعت ذلك المشهد فى طقوس حفلتنا الوثنية. وأيضا فإن عبارة «روح الله يكفيك شر سكتك» كانت تطن فى رأسى كذباية زرقاء ملحاحة وبشعة. ومتى يصل الجندى الصغير إلى منزل زوجته؟ قلت أتلو نص الحفلة كما وضعته :

- كدت أسافر دون أن أودعك..

أبدو كممثل ردى الحفظ :

- لم يكن من الممكن أن أتى لأودعك وشعرى ليس فى «الفورمة».

ما رأيك فى هذه التسريحة؟

- آه، جميلة.. جميلة جدا..

الضباط من ملازم اللواء عارفين. المرحوم «عبد المنعم رياض» بنفسه كان عارف. أنت تهزأنى. تهين شيبتى. أنت كركى ياولد. مستجد. من أجل قرشك الماسخ أمرغ شرف العائلة فى التراب. إسأل كل خط «الكتال»، «بدوى أبو مصطفى» ببقى مين أبوه، مين جده، ياوله دأنا جدى لم «البياض» لعرايى، شال القمح والذرة وحتى التبن والفراخ والبيض، ووصلهم لحد المعسكر فى التل الكبير. إحنا بعنا نفسنا من جدود الجدود للجهادية، عمرنا ما قلنا هاتوا. حاربوا إنتوا، إحنا كتفكم. رصاصة البندقية. ومقام المصطفى لولا أنك كركى لاشتكيك للقائد العام ذاته.

- الله. اهدأ يا عم بدوى. على مهلك. بالراحة. الجدع لم يقل شيئا. الذى لا يعرفك يا سيدى بجهل مقامك. حقك علينا. وأدى رأسك.

- طيب. خلاص. تعالى يا «دفعه». لا تزعل من عمك بدوى. هات ما معك من أحمال. أقولك نصيحة. إذا كنت متزوج أطلع إلى الجماعة معتدل مارش. مازحهم. هارشمهم. كلمة فى حدوده. الليلة ليلة الجمعة. فاهم يا قفل. لا تكن «كركيا» فى العسكرية وفى السرير. الست تنتظر رجلها الغائب بشوق، لا تكن خائبا. معتدل مارش على طول. المرحوم «عبد المنعم رياض» نفسه وعدنى أن يسمى إبنه «بدوى». مرة قلت له. يا أبو رياض إيه آخرتها. قال اصبر يا بدوى. قبل ما يموت بجمعة كان هنا؟ جريت. شلت له الشنطة. قال لى : إيه رأيك يا بدوى؟ قلت عال شدوا حيلكم. سألتنى: يعنى مبسوط. شرقت عينى بالدموع : ألا مبسوط. مبسوط قوى. سيناء دى غالية علينا قوى يا «أبو رياض»، دى أكلت لحمه ياما، الواحد مننا يعيش ويموت يأكل بالكاد عشرة كيلو لحمه ويمكن أقل، دى واكله بييجى نص مليون كيلو لحمه، دا غير الدم، بعد ده كله نفرط فيها. قال : لا تخف يا بدوى. يومها عزم على سبجارة. زعلت. قلت له يا «أبو رياض» دانت كلك نظرم أنت تعرف أن «بدوى» لا يأخذ شيئا من العسكرية. طبطب على كتفى وقال: أنا عارف. دى مش أجره. دى تحية. يصح أحبيك بسبجارة. وترفض تحيتى. مقبول يا جدع. سألته: أنا قرأت فى الجورنال إنك عازب. ليه؟

لفت معطفها ذو الياقة الفرائية نظر عدد من الناس. وكيف غطت  
روائع الجنود عطرها النفاذ.

- لماذا تسافر؟ .

- قريب، استشهد في الحرب، أريد أن أشيعه.

ألقت نظرة على نفسها في مرآة موضوعة على الرصيف لشحنها.

قالت :

- ألم يجد وقتا يموت فيه إلا هذا. حفل رأس السنة في الطريق لماذا

لا تكتفى بإرسال برقية؟.

كنت أفكر لحظتها في أن هناك أنواعا من أنثى الحيوان تفرز رائحة

لاجتذاب الذكر، تضاجعه وتأكله بعد المضاجعة.. قلت فجأة:

- هذا أفضل

خرجنا معا.. ونحن نهبط السلام إلى الفناء :

- يجتذب جمالك الأنظار.

بنظرة مباهية :

- هذا طبيعي.

بدفعة قلت :

- لنفرض أن مبمى كان قد رفض.. فهل كنت تتخلفين عن وداعى؟

- لا أدري، لا يمكن أن أدعك، ترانى وأنا لست فى «الفورمة»!

كانت كفها فى كفى. لاحظت فجأة أنها تلبس قفازا صوفيا. فتحت

قبضة يدى. سقطت كفها من قبضتى :

- ماذا حدث؟

- لا شئ.. خشيت أن تعرق يدى فيتسخ قفازك.

\*\*\*

-٢٣٢-

قلت أن على أن أبحث عن قناع يصلح لحفلة رأس السنة. وفى المساء  
كانت «ضحى» تشرف على تعليق الزينات ونحن فى الصالون. ذهبت  
وجاءت وأصدرت ألف أمر. سلمت على بفتور. تحدثت عن حلقة جديدة من  
برنامجها. كانت سمراء فى تلك الليلة. وهذا يعنى أنه يوم الأحد. أخذت  
أتابع نتيجة العام فى رأسى لأعرف ما ستكون عليه ليلة رأس السنة. قلت  
أنها لا بد ستفاجئنا بشئ جديد. وغالبا ستكون خضراء الشعر، وربما حمراء.  
ضحكت لخاطري.. أنهى «حسين» مكالمة حول ماكينات رى سيشتريها.  
والأرقام بالألوف. وضع السماعة. قال بارتياح :

- خمسة آلاف جنيه بمكالمة تليفونية.

نظرت إليه. ظن نظراتى إنبهارا فى الغالب. قال موضحا:

- لا شئ. منذ ساعة كلمنى عميل يطلب مئة ماكينة رى. سأل هل

عندك. قلت عندى. بصراحة وأنت لست غريبا. لا يوجد عندى شئ. ولكنى  
أعرف الذين عندهم. وهذه المعرفة فى عرف التجار رأس مال. اتفقت معه  
على السعر. بتليفون آخر اتصلت بمن عنده الماكينات اشتريتها وأمرت  
بشحنها إلى طالبها. الفرق خمسون جنيها فى الماكينة الواحدة، مكسب  
صاف أربعة آلاف جنيه وتسعمائة وتسع وتسعون جنيها، وستة وتسعون  
قرشا، بعد خصم قيمة المكالمتين التليفونيتين بالسعر التجارى.

هنأته بذكائه. قال وهو ينظر إلى النبيل عبر زجاج الشرفة :

- أرجو أن تعقل وتترك عمك السخيف هذا. وتأتى للعمل معى.

سأعينك مديرا لمعرض شارع عدلى مرتب خمسون جنيها وعمولة ٥٪  
كبداية..

قلت وأنا استعد للخروج معه :

- أشكرك على هذا العرض الذى لا أوافق عليه.

قبل أن يقف المصعد أمامنا قال :

- سنناقش الموضوع. ولكن لا تقل أنك ستعود إلى «شقاوة» أيام زماناً.

إبتسمت ولم أرد. حياه البواب باحترام يليق بصاحب العمارة. قلت أن صداقة صاحب عمارة شيء مفيد جداً، وإلا ما حلمت يوماً بالسكن في هذا الحى الراقى، فضلاً عن الدعوات المتعددة للغذاء وللعشاء. وأيام زمان لم تكن هناك فروق. مقعد واحد في مدرسة ابتدائية ثم ثانوية بالسويس. فهل تظن أن مجهودك في كتابة مواضيع الإنشاء له تساوى هذه التسهيلات التي يقدمها؟. وحذار أن تنزلق أقدامك فتترك التلفزيونية اللامعة من مجرد واحد من «محاسيب العائلة» تخلع عليه ثياب زوجها القديمة. بينى وبينها ود مفقود. ومرة شكاً «حسين» من أنه يفقد متعته معها فى الفراش، لأنها تقارس الحب «بالباروكة»، وهو يحلم بالعبث فى شعرها، بأن يقبله. يحمله توترات شوقه ولهفته. ويرغم الود المفقود فقد أهدتك بنت خالتها. وشجعت إرتباطها بك. فلماذا؟. تحركت السيارة بنا. أخذت أتابع العروسة القوقازية المتراقصة قال :

- ماذا قلت فى إدارة معرض عدلى !

- يفتح الله.

أشعلت له السيجارة :

- لا أهزل. أنا أقدم العرض باسمى وباسم «ضحى».

«هل هو عرض تليفزيونى»؟.

- لا أفهم..

- أنا رجل تاجر، وأحب الكلام المباشر. ونحن قبل هذا أصدقاء قديماً.. وأذن فلأدخل فى الموضوع مباشرة.

- أعلم وتعلم أن بينى وبين ضحى وداً مفقوداً.. فما شأنها بالموضوع؟

ابتسم. دخل زحام شارع ٢٦ يوليو :

- هذا طبيعى، أنت صديقى، وهى تخشى أن تجرنى إلى ما تسميه هى «شقاوة» زمان، فهى تعتبرك متطرفاً وهداماً، وأفكارك تخرب البيوت العامرة. وهى تعلم أن صداقتنا قديمة، وليس من السهل فصمها. وقد ظنت أنها وقد أهدتك «كوثر» ضمننت أن تعقل، ولكن يبدو أنها غير واثقة تماماً، ثم هى تريد أن تهينى لكما دخلاً مناسباً. ومن ناحية أخرى فأنا أبحث عن إسم أقدم عطاءات مقاولاتى متمتراً به، فالضرائب أصبحت جزارة، والحكومة بدون مؤاخذة ولا زعل، وبدون التعرض لعواطفك نحوها. بنت كلب، وما أسرع ما تصدر قترارات التأميم!

صمت، قلت أدركونى يا عالم. ما آخرة هذا «الضحى» المظلم، فى المستشفى تحريض علنى على الفسق، وفى المنزل تحريض على الخيانة الوطنية؟. فمتى يدركنا الليل إذا سحى.. سرحت فى العروسة القوقازية :

- فكر.. جيداً ورد على...

بعد لحظة :

- تهتم بهذه العروسة كثيراً.. لأنها من بلاد أصحابك !

- أنها طبيعية جداً، وهذا كل شيء.. إنظر، أنها دمية، ومع ذلك فهى لا تلبس باروكة..

شددت شعرها.. لأؤكد له قولى. شعرت بضيق مفاجئ.

وهو يمر عبر شارع رمسيس تذكرتهم..

- انزلنى هنا.

- إلى أين؟

- تذكرت أن لى موعداً..

مضى.. تركنى وحيداً على الطوار.



فى المقهى كانوا متجمعين كما توقعت. شاي. شيشه. قهوة على الريحه. غارة حلوان الأخيرة ، زفت، لا تصدق ما يقال عن أن المدنيين لم يصابوا. هناك مئات القتلى. أشاعات فلا تصدقوها. ولنفرض أنها حدثت لا بهم. لا حرب بلا قتلى. يقتلون المدنيين فى فيتنام بالمئات كل يوم ولا أحد يولول. ملعون أبو «نيكسون» الكبير. وحياء النبى سنكسر رجله ورجل الذبن وضعا تقاويه. يقال أن غارة «حلوان» الأخيرة قتل فيها عشرون. كذب. إشاعة. يا أولاد الأفاعى كلامكم يندرج تحت بند تخريب الروح المعنوية. فهل تحفظون نصوص قانون الطوارئ أم أنكم تخرفون والسلام؟. أنت عكنته رسمية يا أستاذ «رأفت» فماذا أتى بك، اليوم ونحن لم نرك من زمان؟. أوحشتنى مقاهى السويس وقلت ألقاكم هنا. أجدر بنا أن نسمى هذا المقهى : قهوة أبطال الشعب. اقترح أن نسميها إسما حديثا مودرن، مثلا نسميها «السويس ٥٦». لىكن أبطال السويس ٥٦ سابقا. كنا أبطالاً حقا يا أولاد الكلب. لم تنشر جريدة صورنا، ولكننا مع ذلك أبطال. شيش باك. جهاردو. مارُس ياروح أمك. يا أستاذ «رأفت» من ينظر إليك يحسد المهاجرين. أنت دعاية سيئة قد تغرى الحكومة بانقاص الاعانات. هل تعرف إحصائيا اجتماعيا بوزارة الشؤون إسمه «خليل عطية»؟. نعم دفعتى. لا يبنى على ورقة وقلم. أكتب توصية. حفيت قدماى. دفعتكم، لا مؤأخذة زفت. قطران. البنت حبلت هى وأمها فى شهر واحد، فأبشركم بخراب بيتى. هذا دليل على نشاطك الزائد أنت وزوج بنتك، فتهنئتى للمراتين بما جباهما الله من حظ تحسدهما عليه الكثيرات. ولكن هذا الحظ ينتج عنه نتائج سيئة. لا حلاوة بدون نار، وهذا عقاب من المولى لكم على إغراقكم فى الملذات. كنا أبطالاً سنة ١٩٥٦ وأحلنا الآن على المعاش. إسمعوا فصل الخطاب، لا أحد يمنع أحدا أن يكون بطلا. ولكنهم هجرونا. حياة النساء

والأطفال ليست لعبة. ولكننا لسنا نساء ولا أطفال بدليل أن زوجتى وإبنتى حبلتا فى وقت واحد. الطابية فى خطر فاحذر. الصبر طيب، ستكش الملك حالا. لم يعد لديك ولا عسكري. كنت أحمى مؤخرة الولد الذى ألقى القنبلة على «ويليامز». يومها رقصت. فى المرة الماضية خدمتهم الظروف فلم يتقدموا إلى السويس، وإلا كانت نهايتهم. بمناسبة أن زوجتك وإبنتك قد حبلتا أنصحهما برؤية برنامج «دروس فى السعادة الزوجية» على القناة خمسة، تقدمه الست «ضحى» بنت السويس، شجعوا منتجات السويس. شئ ظريف أن تلقن السويس بقية البلاد دروسا فى السعادة الزوجية. آيه سعادتنا الزوجية أن البنت وأمها حبلتا فى وقت واحد. قل لى هل تتفق الأم والبنت على مواعيد الحلوة الشرعية؟. مية مسا على أهل السويس. رجاله وعهد الله. بيوتنا صارت أحجارا ونحن نلعب الطاولة. أذكركم بقانون الطوارئ رقم ١٥٨ لسنة ١٩٥٨. أنت عكنته رسمية يا أستاذ رأفت. الحصان فى خطر وهذا يعنى أن الدور على الملك. ولو ساهزمك ولو كنت الزناتى خليفة. كيف حال «حسين بيك»، ما رأيكم لو بحث لنا عن عمل، أو تبحث لنا الست «ضحى» عن دور مثله فى التلفزيون». هم يمثلون أما نحن فنموت. «حسين» ساعدنا فى سنة ١٩٥٦. اشترى لنا سلاحا وهرينا فى عربته. فعل ذلك لأنه صديق الأستاذ «رأفت». على فكرة بنتى مريضة وسأتيك بها المستشفى قريبا. نشر «حسين» بيك اعلانا فى أهرام اليوم يؤيد ويهنئ ويضع أمواله فى خدمة المعركة. لماذا لا يقبلوننى وزوج إبنتى ممثلين فى التلفزيون؟. أهديك مثلا قديما تعلمته من جدتى، وقد يفيد فى حالتك. وما هو؟. آه، لما أنت أمير وأنا أمير، من الذى يسرح بالحمير؟. لا أفهم. ولا أنا. الملك فى خطر فانقذوه. واحد شاي. اللعبة القادمة هى آخر لعبة، لو ذهبنا لهم وقلنا نريد أن نحارب فلن يمنعنا أحد. بل سيرحبون بنا فى المعتقل. الملك فى خطر. اصمتوا حتى نسمع نشرة الأخبار.

\*\*\*



غادرت «الاورتوبيس» كما وصفت أمام مزلقان «عابدة». لماذا سموه هكذا؟ لا - أحد يعرف. عبرت شريط السكة الحديدية. سألت مارا: أليست العزبة هنا؟ قال: «عزبة بلال... أم عزبة الورد؟».

قلت: عزبة الورد. نظر بعينين عمشاونين إلى البيوت القريبة. قال: أعبّر الشريط واتجه يمينا. شكرا. الشكر لله. تبدو البيوت طينية فما مدى ما تحمل العزبة من أسماها، ومتى تهب روائح الورد، وتكتحل العين برآه؟ هذه منطقة غربية، كيف يوجد مثلها في المدينة الضخمة ولا أعرفها. يا للقذارة! بيوت طينية كالحمة. طافحة بالهم فأين الورد؟ هنئ نفسك على هذا التدهور الباهر. تأتي بلادنا كالسياح، فأين القبعة و «الباب»؟ برافو خواجة رأفت. هار آريو How are You. تأتي لزيارة الورد يا خواجة؟ إليك إذن هذا المستنقع البشري من القاذورات. طلبت مياه للشوارع كما لو كنا في قرية نائية. لمبات جاز تنظف، وإذن فلا كهرباء. كهرباء يا خواجة؟ أين المرأة لأبصق على وجهي لعله ينظف. نساء مصوصات كأن الحكيمات قد أكلن لحومهن؟ تأمل هذه الفكرة. هل كانت أرداف المريضات في هذه الدسامة عندما دخلت المستشفى؟ ولماذا هزلت أرداف المريضا في عنبر ٣؟ أكلت بنت الكلب أردافهن، شوتها، سلقتها، صنعت منها «إسكالوب»، أكلته، نمت أردافها، تمددت، سلطتها على، فمتى يدعمون قوات الدفاع ضد الحرب الاليكترونية؟ إتسخ الحذاء بروث البهائم. تقتحمك العيون كأنها لم تر أفنديا ببدلة طول العمر. فصلتها بالتقسيم فلا يهولنكم أنها صوف الجليزي. باق على قسطان. ورباط العنق؟ هدية من صديقي زوج التليفزيونية. لا بد من نقل البنت إلى المستشفى اليوم مهما حدث؟ أين الورد يا عزبة الورد؟ هذا ما قالته الدكتور «وداد». رفعت منظارها الطبي فبا لجمال العيون، ولكن لماذا تبدو العين كما لو كانت زجاجا ملونا بإتقان ولا أكثر؟ قالت:

- تدهورت الحالة جدا يا أستاذ «رأفت»، وقد تصاب بنكسة مفاجئة تقضى عليها، لذلك أرى أن تقنع الأسرة بنقلها إلى المستشفى لكي نجري

أبحاثنا في هدوء. هناك سرير خال يعتبر ٢. حاولت إقناع والدها اليوم ولكنه صعيدي صلب الرأس، أرسلته إليك فلم يجردك. أرجو أن تغير خط سيرك وتزورها غدا..

نظرت إلى ما ظهر من ساقها عبر المعطف الأبيض. أعلنت لنفسي نتيجة آخر معاينة: الفخدان ٩ على ١٠. أما وياطن الركبة بهذا اللين فلا بد أن معاينة النهدي ستسفر عن ١٥ إلى ١٠.

قلت:

- وهذا يعطى فرصة لعلاجها، أليس كذلك؟..

بلهجة محايدة:

- أرجو هذا.

- هل هناك أمل في ذلك؟

- لا مستحيل أمام العلم، ولكنها في حاجة إلى عناية طويلة.

كنت قد حفظت العنوان، حاولت أن أستدل على لافتة الشارع بنفسي دون سؤال، ولكن يبدو ألا فائدة. نظرات فضولية تنفذ إلى رأسى مع رائحة بول نفاذة. مخاط ورساق. نفايات خضروات. ققط مجرى وكلاب. ذهاب أسود، أزرق، وأخضر. أين الورد يا عزبة الورد؟ شم يا خواجة. متع معطسيك بالروائح. تعودت على «بارفان» «كوثر» الباريسى. شم الآن رائحة عرقها. الصديد والبراز، جروح ملوثة بأريطة قنرة. الذباب يأكل عيون الأطفال. أم تضع طفلها الصغير في المثلث بين قدميها المرتكزة على الأرض وقصبة ساقها. تهزه ليتبرز. تسلل سائل أصفر لزج. نزلة معوية ستقضى عليه خلال أيام. ما أجمل وردك يا عزبة الورد! كيف حالك يا خواجة؟ هار آريو؟ كومانتي آلي فو مسيو رأفت؟

عمن تسأل. عم مسعود الصعيدي؟ آه النصراني؟ هناك عند الدكان في آخر هذا الشارع. شكرا. بركة مياه آسنة، إسبح يا خواجة. إحص الدود وأنواعه: البلهارسيا والانتكستوما وكل طفيليات العالم. تحلم بمياه

«فيشى» و«كارل لومبارد». هاتى الميكروسكوب يا «دكتورة وداد».  
 إجلسى على هذا الشاطئ الأسن. إخلى المعطف الثلجى والفتان  
 والسوتيان وكل شئ. إفحصى هذا العالم الوردى الجميل بميكروسكوبك.  
 وزعى لحم أردافك الزائد يا «ضحى» على تلك الهوام البشرية. يومذاك  
 نهتف بحياة العلم والعلماء. ونشرب الويسكى ليلة رأس السنة من هذه  
 البحيرة المتخمرة. معتقة وحق كرىز أو ان النضج فى شفتيك يا كوثرتى، أنت  
 نهر من أنهار الجنة، ولكن منبعه هنا. تعالوا نسبح يا أولاد الكلب.  
 «الخواجا رأفت» بسأل الترجمان عن التماسيح فى نهر النيل. ورأس الخواجا  
 ضخم، وقمه مثلث ضلعه نصف متر وزاويته حادة. وغدا سيحتفل بليلة رأس  
 السنة. بيلع كؤوس الويسكى، الكأس الواحدة بأربعين قرشا، ويهتف عند  
 السكر بسقوط الفقر، ويتحدث عن العدل والحرية.

طرقت الباب فافتحوا. جاءكم الخواجا بأوراقه. إبنشروا أصبح لكم  
 ملف. هذا شرف لكم. تكتب أيدنا المرفهة الطرية أسماءكم السخيفة الملوثة  
 بالفبار، على ورق كوشيه . . ١ جم. نظرة البنت التى فتحت مذعورة. آه ما  
 أجمل العيون لولا الخوف من شر السكك. أنا «رأفت» من المستشفى.  
 عشان حكمت. أجل. إتفضل. ظلام وعفونة، فلن تشرق هذه الشمس  
 الساطعة فى الخارج. تلمع الباروكة الشقراء فى الشمس فتضوى. أين  
 «الورد» فى الندى المؤتلق بنور الفجر؟ «حكمت» نائمة فى الداخل. إخفض  
 الرأس وإلا اصطدم، فهذا جحر فتران وجراء صغيرة. يرتفع الصدر ويهبط.  
 وشعرها الأشقر متبدد على الوسادة. العيون مغمضة. الوجنتان شاحبتان،  
 إنتفاخ أسفل العينين. إفتحى العيون فإنى شبق للتطهر يا طفلتى. كلمى  
 الخواجا الذى جاءك «بالملف» من بلاد الويسكى والبيروك والبوستيش  
 والشارب الدوجلاسي. جنتك «بماء المحاباة»، لأرد إليك الحياة، كما فعل  
 العفريت فى ألف ليلة. من أنت؟.. «ليزا».. آه.. أختها الذاهبة العقل؟  
 إحترس وإلا طالك جنون الورد. وتأمل هذا الدرس من دروس السعادة  
 الزوجية. طفلة يتيمة بين الحياة والموت، مغطاة بغطاء صوفى مزركش ومزق

بسمونه فى قريتنا «حملا». قطع آلاف الكيلو مترات، ولعلمهم وجدوه يوما  
 ملقى فى الطريق. أو سرقوه. تفكر فى أن تكون ستائر شقتك أورجيناال.  
 ومرة فكرت فى أن هذا النسيج الصوفى الذى ينسجونه على أنوال بدوية  
 ويصبغونه بأنفسهم، يصلح للستائر، ما رأيك الآن يا خواجة. يتركون طفلة  
 مريضة فى رعاية مجنونة؟ أين «عم مسعود»؟ خرج؟ أين ذهب؟ يركب  
 حدوة لحمار الواد شلى. هل سيفيب؟ لا، زمانه فى الطريق. تفضل.  
 إفتحى العيون الهندسية فأنى ظامئ للصبا يا طفلتى. لا تردى عمك  
 الخواجا خانبا. وأين ذهب الدم من شفتيك يا كرىزاً قارب النضج فمن  
 اغتاله؟

عينك يا «ليزا» واسعتان بالجنون، لا يتقصنى الجنون فحوليهما  
 عنى. تأخر «العم مسعود». زمانه جاى.

- أنت كنت هناك.

- هناك أين؟

- أنا شفتك هناك؟ هناك أين؟ عند العدرا. أنا شفتها. كنت أقف  
 هكذا. ليلة بطول الليل، رنمت مع المرمين. دعوت مع الداعين. تلوت  
 المزامير. قلت يا عادره. كراماتك. الدنيا كانت برد. أنت كنت جنبى، مشيت  
 كده. تنظطت.. رسمت الصليب. الناس مشيت. فضلت لوحدى. «حكمت»  
 كانت معايا. نامت. غطتها بديل الجلابية. فى نص الليل طلعت هناك عند  
 قبة الكنيسة. أنا شفتها. أنت شفتها. صحيت «حكمت». قلت بعزم صوتى  
 يا عادره. أنا عيانة. حكمت عيانة. بركاتك يا أمنا العدرا. وحياة «سانت  
 تريزا»، رجعى لى عقلى. إشفى أبوى. إرزقيه يا عادره. داحنا غلاية يا  
 عادره. غلاية وحياة رينا يسوع. صوتك معانا يا أبونا غبريال. عبطت.  
 دموعى نزلت سح. أنت كمان عبطت. قلت يا عادره. قالت أنت خاطية.  
 زعقت : غصبا عنى يا أمنا. وحياة الرب غصبا عنى. ضحك على. قال لى  
 بابت جبت لك مندبل بأويه. قلت له أنت بتضحك على. عاوز تعمل قباحة.

قال لى المنديل حلو. قلت له أنت فاكراً أننى عبيطة. فاكرنى مجنونة. برك فوقى يا عدرا. وقعنى فى الخطا، ومقام الرب غصبا عنى، قطعت المنديل ورميته فى التربة. كان أحمر. والمسيح الحى ما أخذت منه شئ. زود يوميتى قرشين. كنا فى ورشة طوب فى أبو قرقاص. يا خسارة، غابت العدرا وراء القبة، كنت لسه بتكلم.. لم تسمع كلامى.. بكيت. بكت «حكمت».. أنت أيضا بكيت. قلت لحكمت.. ستأتى مرة أخرى، سأحكي لها مرة أخرى. وغلاوتك يا سنت تريز كان غصبا عنى.. مرة واحدة فقط. لم أفعلها مرة أخرى. يا خرابى أنا أسد بين فخدى بالطين ولا أفعل هذا.

وولولت. ولولى يا «ليزا». عمك الخواجا يبكى، ولولى. هاتى حذائك أضرب به نفسى. لا حذاء لديك. ذهبت إلى الزيتون ماشية. إصرخى. أسمعينى هذا اللحن الطروب. أذني يسكتها «الجازيند» ويعشش فيها كالبيوم فى الخرائب. تجمع الناس. ضجيجهم فى الخارج: المجنونة جاءت فى الحالة. ياوله. نادى «عمك مسعود» من هناك.

جاءت : تعالى فى حضنى يا حبيبتى. معلش. العدرا زعلانة منى يا خاله. معلش. بكره ترضى. قالت إننى خاطية. صلى يا أختى. صلى. بسم الله الرحمن الرحيم. أنت من يا أخويا؟ أنا من المستشفى. أهلا وسهلا يا أخويا. لا مؤاخذه، عليها باسم الله الرحمن الرحيم أسيا. أجل عليها «أسيا». كله من «الأسيا».

«عم مسعود». أهلا وسهلا. «رأفت البشلاوى»، أخصائى إجتماعى بالمستشفى. أهلا وسهلا. جرى إيه يابت. جتها الحالة. العصا موجودة. يا مقدس مش كده، دى غلبانة؟ إرحمونى يا عالم. يارب كفاية بقى. أيوب كان نبى. أنا بنى آدم. أيوب حيا فى الآخر، مش كفاية بقى يارب. إتفضل يا أفندى برة. إسمك الثلاثى لو سمحت. «مسعود ميخائيل الصعيدى». الحمل يا بنت. إتفضل على المصطبة. جاء الحمل الذى كانت تتغطى به البنت. أحسست به يلدغنى فى مؤخرتى. صعيدى جدا ولكن رأسه لا يمكن أن تكون صلبة. فهى لا تحتمل ضربة واحدة بالكف لتفتت إلى ذرات من

الرمال. غنى مواويلك يا «عم مسعود». أسمع الخواجا «رأفت البشلاوى» أغانيك الفولكلورية، ليعود بها إلى شقته ويتدثر بالغطاء يحللها ويدرسها. هات القراع فى رأسك، وقلب «حكمت» المتضخم، وصمام الميترال التالف، وبيكار «ليزا» التى ضاعت بمندبل رأس، لأقدمهم هدية رأس السنة للدكتورة وداد. لتدرس وتحلل وتكتب مقالها السادس للمجلة الطبية الأميركية. ذى أميريكان ميديكال مجازين. لاترو شيئا. هات أقدامك فقط. أضعها فى ملفى. أقدما لهم. جاءكم الخواجا بأثر تاريخى. تحفة والله العظيم. وظهارة العدرا تحفة، تأملى يا ودادتى وأنت يا «ضحى» يا حكيمة، يا ردفية النظرات. هذه أقدام «مسعود الصعيدى» متشققة. متشققة. متشققة.. أخايد باطنى القدم طويلة، عميقة، واسعة.. هاتوا المساطر وأدوات القياس، نحسب مساحة الأخايد. ونتوماتها. سُمك الطبقة السوداء الميتة. كمية ما شربت من تراب وعرق وأشواك وحصى. نطبق كل قوانين الرياضيات. لنصل إلى المسافة التى سارها. الفصول التى هاجر خلالها من «جهينة» فى أقصى الجنوب.. إلى هنا فى «عزبة الورد» المروى بالصديد والبصاق والمخاط.

الخواجا مرهق ويستأذن، إمتلا الملف كتابة فهل تأخذ لهم عينه من الدموع المجففة، قال :  
- هل ستأخذها معك يا أستاذ؟

لا، طبعاً، أنت لا تدرى شيئا عن «العلاقة المهنية»، لسنا أصدقاء.. أنت «عميل» وأنا أخصائى إجتماعى. مهمتى أن أساعدك لتتمكن من مساعدة نفسك، وحل مشاكلك معتمدا على نفسك فقط. لقد بصرتك بالخطر، وعليك أنت أن تأخذ القرار. هكذا يقضى العلم، وبهذا تقول قوانينه.

متهربا ..

- تعال بها فى أى وقت.. هناك خبر فى الاستقبال بأن لها سريرا.

طريق الخروج. الأرداف سبعة على عشرة. نسبة لا بأس بها. متى نرى بسمة حقبية لهذا الكائن المتوحش؟ ما جدوى كل هذه الأفكار، أيسينك حقا اهتمامها بالعلم؟ ليست هذه هي المشكلة. ولكنها لا تهتم بشئ آخر غير العلم. وهذا مزعج. وهي عند الباب:

- على فكرة، هل زرت «حكمت مسعود الصعدي»؟
- قلت وأنا أقيس تكور صدرها، مزيجا الشياب :
- نعم، ووعده والدها بإحضارها اليوم.
- هل أطمع أن تزودني بالبحث الاجتماعي لحالتها؟
- أرجو هذا.

ها هي الأقدام المشققة في الملف ولا شئ آخر. فكحلي عيونك الميكروسكوبية بها ولنراجع المقالة. برغم الخبرة المحدودة، فانها تتوصل إلى نتائج باهرة. لا تستطيع أن تنكر إهتمامها بعملها. فأين تكمن ثلجيتها الحقيقية؟ انتهيت. أين ملف حكمت لنكتب؟ سطور. سطور حبر أزرق كنه، صاعد هابط، متلو. حروف. ألف ويا. ونون. مصطلحات. قدم خفيفة تدق. أهلا «ضحى»، يا صباح الأرداف الثرية.

قالت :

- الدكتورة «وداد» في العيادة تسأل عنك.

وحيدان في الغرفة. التوتر يشحنها. الملف على المكتب. راديو ترانزستور في يدها.

قالت :

- حدثت غارة على دهشور اليوم.

نظرت إليها مستفهما. يا بنت الكلب غضى البصر. وفري نظرات الفجور، وإلا نضب معينها. ألا تعلمين فوائد الإدخار؟ قلت لنفسى : ما المانع؟ سألتها :

وإذن دخول جاهز. سيوقعه الطبيب الثوبتجى بمجرد وصولها. إسأل على التمورجية «منيرة». وستجد لديها كل الورق.

قال :

- ولكن... أصل...

تردد ولم يكمل. تهدل شاربه في ذلة. قلت أنه يمنع نفسه من التسول.. مضى الخواجا. وضع الغليون في فمه. والقبعة فوق رأسه. تشاو سنيور رأفت. جود باي. أوريقوار.

أشار الخواجة :

- تاكسى.

#### ٤ صحيفة السوابق لمواطن ظاهر الذيل

كورت «منيرة» ورقة اليوم الثلاثين من الشهر. بقيت ورقة آخر أيام العام. تحدثت «كوثر» بالتليفون. قالت :

- كل سنة وأنت طيب. هل تمر لتأخذني في التاسعة؟

وعدتها بذلك. فلتهنأ باستقبال العام الجديد في جنة الكريز، سابها في نهر الكوثر. في تليفون آخر، طلب صديق آخر أن أشرف حفلته. اعتذرت بأننى مرتبط بحفلة أخرى. جاءت الدكتورة «وداد» في يدها أوراق. قالت :

- هل تؤدى لى خدمة؟

- تحت أمرك.

وضعت الأوراق على سطح المكتب الزجاجى. قالت :

- هذه مقالة سأرسلها للأميركان ميديكال مجازين. وقد راجعتها مرارا، ولكن أخشى أن تكون هناك أخطاء مطبعية قد فاتت على. هل تلقى عليها نظرة؟

أومات موافقا. شكرتنى. تركت المقال على مكتبى. استدارت في



- هل مات أحد؟

- قال الراديو : ثلاثة قتلى وعشرة جرحى..

أغلقت الملف. كان الجو مشحونا بمتفجرات خفية. قلت مرة أخرى: ما

المانع؟

قلت لها :

- غارتان فى يوم واحد. هنا كثير.

نظرت دهشة. قالت :

- ولكنها غارة واحدة فقط، متى وقعت الثانية وأين!

وضعت يدي فوق يدها المستندة على المكتب قلت :

- إنها تحدث الآن، هنا، عيناك تصبان نارا حارقة، نابالم، فليرح

الله.

بتهمك مغناخ، قالت :

- ولكن دفاعك قوى فيما يبدو..

قرصتها فى حلمة الثدى الأيسر، تأوهت. جرت مسرعة. قالت بصوت

ذائب:

- أنت وحش..

وصلت إلى باب الغرفة، قالت بابتسامة مرعبة :

- الدكتوراة تنتظرك فى العيادة.

\*\*\*

عرفته بشاربه النضى. أقدامه المتشققة العارية. على باب العيادة

كان يجلس. قام. سلم على. قلت :

- هل جئت بحكمت؟

لهث بشدة، وجهه مرهق. قال بصوت خفيض :

- نعم يا أفندى.

- لماذا لم تأت أمس؟

هز كتفه كأنه لا يجد إجابة. قال بعد لحظة :

- لبيتنى جئت بها أمس. كانت ليلة الله لا يعيدها. صحوت من النوم

على صوت «ليزا». وهى تصرخ. قالت : قومي يا بنت نروح للعدرا. العدرا

جاءتنى فى المنام دلوقتى. وجدتها ترقد فوق البنت المريضة. تكاد تخنقها.

والبنت تصرخ بصوت ضعيف. قامت من فوقها وأخذت تقذفها بالطرب

وكيزان الصفيح ومقشاة قديمة. وكل ما وجدته تحم بصرها. قمت. أمسكت

«ليزا». قيدتها بالحيل. ضربتها بالحيزرانة حتى كلت يداى ألقيتها فى ركن

بعيد فى باحة الدار. لكن «حكمت» حالتها تأخرت جدا. بقيت طول الليل

سهران. خشيت أن يفكرها الرب دون أن يكون أحد بجوارها. فى الصباح

جئت بها.

صمت، عاد يلهث، دخلت إلى العيادة. كانت راقدة مقطوعة

الأنفاس. السماعة الباردة تتحرك فوق صدرها الطفلى الأملس. ضلوعها

بارزة وصدرها يرتفع وينخفض كموج البحر فى يوم عاصف. وهذا الفحيح

صوت تنفسها. أه خذى الهواء الذى أنتنفسه، قلبى المعذب بما يحمل، ولكن

كفى عن هذا الزحير المولم. الهواء ملء العالم فكيف يعجز قلبك الطفل عن

استنشاقه يا وردتى؟ ومن ذا سوف يبتسم كالشمس كل صباح؟ جاءت

«ضحى» بجهاز رسم القلب. نقلوها على عربة إلى حجرة الأشعة. عاد هو

معى إلى مكتبى. جلس على المقعد مترددا.

دخلت الطبيبة بعد ساعة. ملامحها جامدة. قالت بصوتها النحاسى :

- كيف جئت بها؟

وقف. قال بصوت مرتعش :

- راكبة والمسيح الحى. راكبة على عربة كارو. أكرمتنا الواد شلىي بها

رلم بأخذ سوى خمسة تعريفة ثمن أكلة الحصان.



قالت مقاطعة، وبهدوء :

- أنت رجل غيبى، جاهل. كيف تعرضها لكل هذه الاهتزازات وهي تعاني من نكسة خطيرة، لماذا لم تحضرها فى تاكسى؟

قال بدهشة :

- تاكس، ياريت باست هانم... أصل .. أصل..

بتأنف قالت :

- البنت ماتت..

لم يقل شيئاً، نظرته فقط غامت، إبيضت عيناه.. إنقلبتا إلى رماد..

رماد.. متم:

- ماتت .. تاكسى.

كان صوت بكائه بأنى من خارج الحجره. نهنات عجوز متتابعة. تاكسى يا عم مسعود تى. ايه. اكس. آى. T.A.X.I. رأسى خال من كل شى.. فكرت فى أن البكاء قد يكون مناسباً. ونشيج الرجل مزعج. جلست هى خلف المنضدة تكتب شيئاً. دخلت ضحى بالأوراق. هاجمتنى بنظرة منقضة. لم أكن مستعداً. كانت نظراتى ثابتة فى الفراغ. لم استطع أن أحولها، اعترضت نظراتها طريق عينى المركزة على الفراغ. شبكت نظرتها بنظرتى. كنت منوماً أو مدهولاً. تكلمت عيناها طويلاً. ضاع العلم والقاموس الذى يحل طلاسم النظرات T. A.X.I. تى. ايه.. إكس، آى. فتحت الزرار الأول من معطفها الأبيض. فستان محبوبك. ضيق. بقسو على نهدين مترعين، وضعتهما أمام بصرى.

رفعت الطبيبة رأسها من على الأوراق.. قالت :

- ما هذا؟ إذن الدخول. لا داعى له. يلغى كلية. لا نريد زيادة فى إحصائيات الموتى فى القسم. إكتبوها حالة استقبال فقط.

مضت الحكيمه. فكرت فى أن التماسيح تملأ نهر النيل برغم كل التكذيبات. وما رأبك فى قصيدة رثاء من النوع الجزل؟، وأنت يا طبيبتى،

إليك موضوعاً للبحث لن يكلف مجهوداً.. «التركيب الكيمائى لدموع التماسيح». قالت :

- من حسن الحظ أنتى تمكنت من تصوير قلبها قبل الوفاة وأجريت لها رسم قلب وكل التحاليل. أسفت لوفاتها. كان من الممكن أن تزودنا بمعلومات نادرة.

بعد لحظة :

- الجهل مصيبة كبرى. رجل كالشور. أرجو أن تزودنى بالبحث الاجتماعى. سأكتب المقال هذا الأسبوع. وسأذكر بالطبع مجهودك العلمى. « هزرت رأسى. أين السوط؟.

إخلى ملابسك يا بنت الكلب. إبكى مرة واحدة بدمع حقيقى. سأضربك حتى تظفر الدموع من عينيك فأشربها. أشرب ملحها. أذوقه. أنذاك يهدأ القلب وتهمد كل الرغبات الشريرة».

- هل تسمعنى يا أستاذ «رأفت»؟.

- بالتاكيد يا أفندم.. سأنهيه اليوم.

\*\*\*

أضاموا أنوار العام الجديد. استقبلت لحظة الميلاد بين حبتى الكريز، فكيف نبت فيهما الشوك. طعم الويسكى غريب. خليط من الليزول والفورمالين. بعد الكأس الثامنة كان مالها. مركز الملوحة كدموع التماسيح. قالت حبات الكريز:

- ما هذه الأفكار الغربية يا حبيبى. هل ذقت دموع التماسيح حتى تعرف طعمها؟

هاهى نيويير. هاهى بيرث داى. فى السكر تزعق الأصوات. «العام القادم تكونين أما يا «ضحى»، أريد وريثاً لهذه الثروة الطائلة. والا أمتها حكومتنا ولديها أفكار بلشفية كصديقنا رأفت. «سيسيح فى نهر الكوثر

وينسى كل هذا». «موهوبة أنت وأيم الله، تليفزيونية وأنت ببطن أمك»  
«أقترح أن ترشح نفسك لمجلس الأمة في أقرب فرصة». «موافق». «سيسب  
إلى حسن الامام دورا في فيلمه الجديد». «مبروك». «وقد أغنى». (أز  
بايع نفسى للجهادية يا جدعان). (يا عدرا الحقينا يا عدرا). نهر النيل ملهى  
بالتماسيح. «نشر كاسا يا ضحى فى صحة صديقنا رأفت». «فى  
صحتك». (ألا فوتر). حجزت صفحة فى الأهرام. ستصدر ملحقا إعلانيا  
عن منظمة فتح. أريدك أن تكتب لى موضوعا إنشائيا من ذلك النوع الذى  
كنت تكتبه فى أيام «السويس الثانوية». هه «يا عدرا.. إحنا غلابة»  
(غصبا عنى ما كان يا عدرا). «خيالك سر بالزم هذه الليلة».

- «كأس أخرى من دموع التماسيح».

- خيالك سر بالزم يا حبيبي.. تعال أقدمك لصديقتى «ليلى»، أنها  
تظن أن شارب هير بوى فرند أجمل من شاريك». «غصبا عنى ما  
يعادره. منديل بأويه وغلاوتك يارينا يسوع».

- «أريد أن أسألك سؤالا يا حبيبتى»

- نعم

جسدها بارد ولكن ماسورة البندقية ساخنة. «الصحراء دى غالا  
قوى يا أبو رياض، دى كلت لحمه ياما».

- «لماذا لم تسأل سؤالك».

- تذكرت. «هل لديك يا كوثرتى فيش وتشبيهه..؟»

- «يعنى إيه؟».

- صفحة الحالة الجنائية... السوابق.

- أوه.. لا.. لا.. لا.. سى ترو.

- أطاهرة الذيل أنت يا حبيبتى؟! أرنى ذلك الذيل الطاهر.

«رجعى لى عقلى.. إشفى أبوى.. إشفى حكمت.. داخنا غلابة يا عدرا.  
غلابة خالص. غلابة وحياة رينا يسوع».

- «أوه.. لا تكن وقحا. هل تريد أن تعرينى فى الحفلة؟»

- الريسكى مغشوش بدموع التماسيح.

- «أوه.. أنت سكران».

- «لا تريدن أن أعريك فى الحفلة فأين إذن أعريك؟».

- «تصرف بأدب».

- أرنى ذيلك الطاهر.

- «صوتك معنا يا أبونا غبريال..».

- رأفت. هل جنتت؟

- «صوتك معنا يا أبونا غبريال. صوتك معنا يا أبونا رأفت. يا

أبونا رأفت يا بشلاوى. أنت رحت فين؟».

- «ألا تعلمين أن بنتى ماتت اليوم؟».

- «أنت مجنون»

- (كان اسمها حكمت؟).

(الواحد منا يعيش ويموت يأكل بالكاد عشرة كيلو لحمه ويمكن أقل،

ودى واكله بيجمى نص مليون كيلو لحمه، دا غير الدم).

«ويشبعونها الآن فى كنيسة القديس مرقس». «أتسمعين الأجراس

ياحبيبتى».

(صوتك معنا يا أبونا رأفت، صوتك معنا يا أبونا رياض، صوتك

معنا. داخنا غلابة. والمسيح الحى غلابه».

- السلام عليكم.

- «وات إذ ذات؟ What is That? إلى أين تذهب؟».

## مصرع طائر السمان المهاجر

« هكذا يمضى جينك بلا عقب ... »

لهفة ما بعد الآوان

١

إلى شاطئ البحر قادتني قدمي.. كان ذلك في مهبط الليل. قلت أن هدير الأمواج سيمسح العناء بلا ريب. الصمت مطبق. أضواء «الليدو» تخذش بكارة الظلام. فكرت أن أعود فأجلس في شرفته، أخافني ضجيج الراقصين، وذكري لقاء كالحلم يستكن طيفه في مقدمتها المظلة على البحر. الهواء جاف كما ينبغي لجلال الصحراء الشاسع حولي. قلت أن شهور الخريف في «مرسى مطروح» متعة للذين يريدون التأمل ولكن فيم؟.. ابتسم موظف الاستعلامات بسمة خارجة لتوها من تحت المكوى، قال :

- جاءتك مكالمة قاهرية، بحثنا عنك، لم نجدك على الشاطئ.

- كنت بالبلد...

- هذا ما خمنناه.. طلبوا أن تنتظر في المساء.. الثامنة والنصف!

- الكنيسة بنتى ماتت ولا بد أن أكون هناك».

- «رأفت»!!

«الوداع يا نهر الكوثر.. هذه قبعتي.. وهذا هو الباب. مات الخواجا لأن ابنته ماتت. أما هذه البصقة فلكى تسبح فيها التماسيح».

- «سوقاج. فلاح. وسخ».

- «يلعن أبو اللي خلقك».

.....  
عندما وصلت إلى مزلقان عابدة.. كان أول خيط من فجر العام الجديد يولد هناك عند الأفق. تنشقته بعمق. دلفت إلى عزبة الورد.

بالتحديد، كنت أعرف أنها هي، توترت طاقة أنفها الرومانية،  
اختلجت شفتاها، ومع ذلك سألت :

- من ؟

- مدام «عايدة مراد»

نقلت خطواتي. «فتحت رنتي». استنشقت الهواء. قالت عقارب  
ساعتي الفسفورية أنها الثامنة والنصف. رنّ التليفون طويلاً. رفع موظف  
الاستعلامات السماعية.

- الأستاذ «حسنى» «خرج يا أفندم» أبلغناه بالموعد ولكنه اعتذر  
عن تلقي المكالمة..

على الطرف الآخر ألقى السماعية، أشعلت سيجارتها فى غضب. لم  
تبك. أعلم أنها لن تبكى. ربما قالت أن النهاية كاللداية، ولا جديد. لمست  
مقدمة الموجة قدمى. ماء دافئ. قلتُ أنه شرب شمس النهار فلماذا يفتقد  
جسدى الدفء؟. حمل الجزر الموجة ومضى. إستندت إلى عمود حامل  
للضوء. أطفأ نسيم البحر أول أعواد الثقاب، والثانى . كما كانت تفعل.  
ترنم شفتيها الرقيقتين تنفخ فى عبث، تطفئ الأول والثانى..

- «عايدة» .. كفى عبثاً.

تخطف السيجارة نفسها.

- تتشاغل عنى بسيجارتك؟.

- وهل أستطيع؟

- تسرى عن نفسك وجودى، ثقيلة أنا إلى هذا الحد؟.

أحيط بيدي خصرها.. أضغطها إلى أقبل جانب رقبتها الملساء.  
يتسلل إلى عبيرها : ذلك الأريج النفاذ، خليط من التمر حنة والفلفل يحمله  
نسبم ليلة صيف. تندغم كلماتنا. لاشك أن هناك خطأ ما نرتكبه عندما لا  
نؤرخ لأحاسيسنا. فى وهج عينيها إكتشفت تلك الحقيقة. كأحد أبطال  
«الماراتون» الكبار قطعت أكثر من عشر سنوات فى نفس واحد. عدت

محملاً بالفرح والأسى وخائب الأمنيات. واجهتُ عينيها الصافيتين  
الزرقاوين كسطح بحيرة ساكن، يهوج أسفله بتيارات دافئة. دوامات تُشد.  
تُغرق. غفلت فى اللحظة الأولى عن المايوه البيكىنى الذى يحتضن جسدها.  
وأيضاً لم أنتبه وأنا أغيب فى عمق عينيها عشر سنوات مرة واحدة. إلا أن  
نظرة العرفان التى كانت تُطلُّ منهما شابها بعض القلق. بيد أنها كانت  
أمامى، هى بنفسها، شاهد على أن الحصول على زهرة فى فراغ الصحراء  
أمل ممكن التحقيق وأن إحياء ميت الأحلام معجزة لا تحتاج إلى مسيح  
جديد. والداية إستعدتها مئات المرات. ما حدث بأدق تفاصيله. بأصغرها.  
بأنفها، برنوة العين واختلاج الشفة. واهتزاز الرموش بانسحاب الإحمرار  
من أسفل الشفة إلى الوجنتين... فكل ملامح الوجه. فى هذه النقطة من بحر  
الرمال، حيث أقب الآن، على مبعده من مبنى «الليدو» بخمس وأربعين  
خطوة فى اتجاه الشمال الشرقى. فى الرمال كنت مدفوناً، فقدتُ لى أن أبعث.  
داست قدم على قدمى. صحت :

- فتّح يا حمار.. هل أنت أعمى؟!

فى اللحظة التالية كانت ملامحى الملوثة بالرمال تواجه عينيها. لبرهة  
قلت : يا لتفاهة الكلام، حمار... وأعمى أيضاً. تناول شرارك واسبيح فى  
بحر العيون ألف ليلة بألف يوم، تدوخ، ترهقك الدوامات، ماذا يكون الجنون  
غير ذلك؟. إنشق بحر الصمت والوحدة المحيطان بك عن حورية.. ولكن  
مهلاً : نظرة العين فيها شئ جديد قديم، لحظتها بدأ الجرى فى الزمن بأقصى  
سرعة، بطلا كنتُ فى اختراق الضاحية، ولكن ما أسرع الجرى فى مقلة  
عينيها، وحولك الشمس والبحر وحبيرة الأعوام، وما الذى شلّ ذراعيك  
فجبتنا عن الاحتضان، ثغاء الجالسين حولنا، أم شئ ما، هناك فى بحر  
العيون، وعند لحظة التيه، منع ذراعيك أن تواصل السباحة. ولكنها هى،  
هى نفسها، يشهد بذلك كل شئ فيها. بالضبط لا أذكر ما قلت، أهله الكلام  
وأحمقه.

قمتمة غير مفهومة بالإسم. «عابدة» جمّدت نظراتها وتحفظت.  
رفضت أولاً أن تجلس. قالت :

- أقيم فى «ريم» حملنى الماء إلى هنا!

دعوتها إلى مظلتي، جلستُ فى كبرياء الملائكة، فإلى متى يطاردينا  
الذل، حيرة الأيام السابقة تطل، وأول ما رأت العين دُبلة زواج تشع فى  
ضوء الشمس. قلت إن هذا طبيعى وقد يكون بلا معنى... أما الجسم فإن  
الزمن لم يترك بعد بصماته عليه، مشدود وناعم، من مادة النشوة صنع.  
رأيته كثيراً فى ذويان الحب القديم. قبلتُ كل مساحة فيه، فهل يذكر الشفاة  
الوالهة، أم أنه غادر كالأحلام التى قوضتها ضربة الحظ العائرة...

- كيف أنت؟

ضاحكة قالت :

- كما ترى..

- أزددت فتنة، وأصبحت جنوناً رسمياً.

سحبتُ منشفتى، جففتُ جسدها. إحتضنها المقعد، إحتستت بعضاً من  
زجاجة المرطبات، ألقته على الأرض بإهمال. قالت :

- تتقن الكلام كالعادة...

إبتسمت. قلت إنها ستبدأ الهجوم. فكيف تواجه فى زحام المعاناة،  
قارص الكلمات. بيد أن القلب ينشد العزاء ولو بفادح الألم..

- تبدئين بهجوم خاطف..

خلعتُ «البونيه» من فوق رأسها. انسدل شعرها على جانبي وجهها.  
ناولتها مشطاً. غرسته فى شعرها الطويل، بدأت فى تمشيطة. قالت :

- ولكن الانتصار على رجل عسكري مثلك مشكلة!

غصُّ حلقى بالكلام، هربت بصرى إلى البحر.. إنكسر المشط فى  
غزارة شعرها. إشتريت لها واحداً من صبي مار.. قالت :

- ماذا تفعل هنا؟ أجازة؟

- تقريبا؟

- تتحدث الصحف عن جبهة مشتعلة بالنيران مع العدو.  
بهبطه قلت :

- أجازتى طويلة.. أحلت على الاستبداع.

توقفت بعدها السارحة بالمشط، سألت باهتمام :

- ... تركت الجيش نهائياً؟

- نعم..

- والسبب؟

- النكسة..

لم تسأل عن تفاصيل، انقبض قلبى، خشيت أن تنبش طري الجرح..  
صممت طويلاً.. مدت يدها دون وعى، أخذت سبجارة من علبتى، أشعلتها،  
- قلت إن تلك كلها عوارض الزمن الجديد، فهل تتاح لعين يوماً أن تفض  
سرك المطوى، فى ذلك الملف بإدارة كاتم أسرار الحربية. حيث تكمن سطور  
قليلة تقتلك بالخزى. فمتى يهال التراب على كل شئ. «يحال إلى  
الاستبداع لسلوكه العسكري المعيب أثناء الحرب». ومن السهل أن تقول:  
«لست وحدى، فلماذا. تلومن النفس». ولكن الأحرف تنهمر كالمطارق. تمزقت  
كل الأحلام، حتى هذا الحلم المهاجر الذى عاد من عمق الماضى.. قلت :

- ماذا فعلت بك الأيام؟

ضحكت، وكان الجرسون قد أتى بالقهوة :

- أوه... كثيراً جداً... لم نلتق منذ سنوات.

- عشرة، وربما أحد عشر عاماً!

إبتسمت، عدت أسأل عما فعلت بها الأيام.

- الحكى صعب..



- مجرد عناوين.

اعتدلت في جلستها، حَسَتْ رشفة القهوة. قالت :

- سنة من الحزن العميق بعد فراقنا. غمزات قاسية من الزميلات والزملاء في الجامعة. لحظة تحد مفاجئة. سنوات دراسة عادية. ليسانس حقوق بتقدير جيد سنة ١٩٦١، الإدارة القانونية بمؤسسة تجارية. شعارات عملية «لازواج من الذين يفكرون في شراء العفش بالتقسيط.. لا بأس من تجارب عابرة». «البحث عن مستقبل باهر بأقل جهد». سكرتارية رئيس مجلس الإدارة. سلام فكلام أولاً، ثم نظرة منه فابتسامه منى. إهتمام دعائى بصحة : ضغط وبروستاتا وجلطة. دعوة للنزهة. طب كالرطل رغم أن وزنه ١٠٠ كيلو ومحيط كرشه متر ونصف. زواج فاخر. شهر عسل في باريس. الصيف بين «بيروت» و«سان موريتز»، وهذا العام «مرسى مطروح» مشاركة للوطن في أعباء الحرب مع العدو. سيارة ضخمة يجد لكرشه فيها مكانا، ومرسيدس خاصة بى !

ابتسمت مروراً وأنا أتابع حديثها. قلت أن شيطاننا تلبس كلينا، فأين هذا الكائن الذى يحسب الحياة بدفاتر الوارد والمنصرف، من شاعرية الزمن الذى مضى، وهذا التقدم فى العمر قد زادها فتنة، ولكن أين مراهقة إقتحام الحياة، وماذا دس الزمن فى عقلها وكان من مادة الحُلم صنع. لعلها فى نحو الثلاثين.. قالت وهى تمضى :

- أشكر لك ضيافتك.

إستقيت بها :

- ألا تفكرين فى رؤيتى ثانية؟

باستهانة قالت :

- دعها للظروف..

- نتعش معا الليلة..

- لتكن غدا.

- وزوجك؟

ضحكت ..

- ألف لجنة ولجنة.. الوزارة تقترب منه بسرعة.

مضت كحورية ظهرت من عمق الظلام. بدا الأمر حليماً لا يصدق. بيد أن لحظة ندم طافت بالقلب. لابد أن شيئاً ما قد مات. متى يتفرغ القلب من شواغله ليرثيه، يذرف عليه مخزون دمه الحين، وإذن فهذه «عابدة» : الحب والشوق والشعر وبواكير القبلات. كيف لم تؤرخ لأحاسيسك فى زحام الحياة. متى فرحت آخر مرة؟. متى بلغت ذروة النشوة؟. نسينا؟. من الذى اغتال شاعرية الحياة بهذه القسوة؟. فى ذلك الزمن كانت تحب القطط. وأظن أن قطها السيامى كان اسمه؟.. اسمها؟. لا أمل.. اندثرت بعض الملامح. وقلت لنفسى أنتى سأخلو حتما لأوراق الماضى القديم، أستنطقه أن يبوح بسر المطوى، أن يطلق من القمقم بهيج الأحلام، ولكن أين هى الآن؟. فى شقة أمى بالسيدة؟. أم بشقتى فى شارع النيل؟. وسط الغبار والعنكبوت وذكريات قديمة أصبحت غذاء للصراصير. فما أشهى العواطف التى تغذت بها. ما كان أرقها وأعنفها. كانت تحسن الكتابة، غزلها فيك كان رقيقاً وساخناً... وشد ما خفق القلب لكلمة أو رنوة!

فى المساء كان العشاء.. يذكر الرمل كل شئ ويذكر البحر. فى ذلك التراس الخافت الأضواء. بدت فى فستان سهرتها الأنيق فتنة تدعو للصلاة والجنون، وأحاطها القلب، بترانيم وثنية صامته. وعند الغياب الطويل فى بحر العيون، عُدت بنظرة مريرة مستكنة هناك عند نقطة التيه من العيون. قلت أن الزمن لا يكسل عن ترك آثاره الحزينة، مهما غابت عن العين الفاحصة وإذن فأن شيئاً ما يملأ شهوة الحياة بالمرارة. كما يبدو كيانى المتلى دليلاً على السعادة، وهو حزمة من السقوط العنيف فى قبضة اللاشئ.. بدا مرحها مفتعلاً. قلت أنها تحاول أن تتشفى.. وهى تشرب أيضاً، طُلبت النبيذ.. قلت:

- ما أجمع حزني على فراقنا فيما تلا ذلك من أزمان!  
زمت شفتيها الجميلتين، فكادت لحظة جنون تدعني لالتهامهما.  
قالت :

- أكره العزاء المتأخر فهو تجديد لحزن بهت!  
- أتكلم جادا..

بهيسة، ورنوة عين :

- ولكنك سَكوتنا وعشقت المَهَا الأخر.

- مازلت تحبين الشَّعر. بيد أن أجمل المَهَا أنت..

أشعلت سيجارتها بقداحة فاخرة، أطفأتها بدفقة دخان خرجت من  
شفتيها المزمومتين..

- هذا ما كنت تقول في الزمان الماضي، ولكن ذلك لم يمتك أن  
ترفض الزواج مني..

- ولكني لم أرفض الحب

ضحكت.. وقالت :

- تعود إلى تلك المعادلة الصعبة.. كنت طموحا وتلك هي الحقيقة..

«نعم.. فكيف إنهار كل شيء بكلمات باترة ترقد الآن كشاهد قبرك  
في مكتب كاتم الأسرار».

- ليس الطموح حراماً.. ولكني كنت شابا طامشاً..

هزت رأسها كأن شيئا لم يعد بهم.. وقالت :

- لقد أصبحت فيلسوفا، أو على الأقل بالنسبة لي، وكثيرا ما رددت  
شعاراتك : الحب شيء والزواج شيء آخر. لا زواج من الذين يشترون العفش  
بالتقسيط، الزواج عملية حسابية قد تصعد بك إلى قمة البرج وقد تخسف  
بك الأرض إلى وحل الاستئدانة والحياة بالتقسيط..

- ٢٦ -

تشاغلْتُ بعدُ حَبَاتُ اللؤلؤ في عقدها، لم يفقد صدرها نعومة الزمن  
الماضي، ولكن ترى ما ملأه من سود الذكريات؟!  
- تذكرين أسوأ أقوالى..

بدفعة قالت :

- بل أصدقها..

- تسللت قسوة إلى رقتك

ضحكت، وقالت بعد لحظة صمت :

- فكرتُ أن أفعل مثلك وأترك الجامعة كما فعلت، والتحق بالكلية  
الحرية بحثا عن دراسة سهلة، وعمل مضمون وترق لا يحتاج إلا لبعض  
الفهولة ولكن من المؤسف أنها لا تقبل النساء!

غبتُ طويلا وراء كلماتها، وقلت أنه كان من الممكن أن يحدث شيء  
أفضل. وأين ذهبت أمومتها الفياضة؟

- عندك أولاد؟

هزت رأسها نافية، قالت :

- إذا تجاهلت الأمراض، فإن الكرش موجود، وهو حائل طبيعي  
كاف..

لَقْنَا صمتُ متوتر، قلت أن العذاب ترصد مسيرتها، كما ترصدت  
خيبة الآمال في طريقي. وكانت الأنشطة ذات صباح في «العريش». وفي  
الصحف يتحدثون كثيرا عن «النكسة» و «حزيران وما جرى فيه». فهل  
يكشف المؤرخون يوماً مأساتي الصغيرة وسط هذا الطوفان من الفواجع،  
وتأمل كيف أن القلب منذ لحظة كان ينشد النسيان، وها هو يبحث عن ذاكر  
له فيما يلي من أزمان، فمن يفهم هذه الألفاظ المحيرة..

أحاط «البوستيش» وجهها بهالة من السواد اللامع، وقد ثبتت  
«الأي لينار» يد مدرته، أما بقية المساحيق فكانت موزعة لتصنع لوحة،

ما أجملها على حائط قصر فاخر، ولكن ديمومة القُبل تنشد بكاراة الطبيعة  
بلا غطاء.. ونحن نرقص قالت :

- أسرك ما قلته عن زوجي؟! .

كانت تحتفظ بمسافة بيننا، قاومت محاولتي لاختصارها، قلت :

- لا أدري، لكنك كنت تنشدين الأوممة.

بمرح باهت التكلف :

- آه.. تلك الأحلام القديمة.. اخترنا إسم الولد.. والبنيت.

- الولد «أشرف»..

- والبنيت «سهير»..

- واتهمتيني بأننى أبحث عن أسماء سينمائية..

انتهت الرقصة. فى التراس قالت :

- «ممدوح» هو الذى اتهمك بهذا؟.

تُوجّه الضربات بأحكام مدرب، ترى هل تقصدها حقاً فيهبم الماضى  
كهجوم الصبغ ذاك فى موقعك الذى تركته للتفرج على ثلاجة «نورج» فى  
سوق غزة. رخيصة الثمن جداً، هكذا قالوا، ولكنها كبدتك كل شئ. قالت :

- ألا تذكر «ممدوح» ..

- أذكره طبعاً..

- عزانى طويلاً بعد هجرتك لى، بيد أنه كان قاسياً..

وذلك الكائن الحاد. يطاردك شبحه فى كل مكان، صديق الطفولة  
واستشراف الحلم، وشريك السكن الواحد على عهد الطلبة فى الجامعة. أين  
هو الآن؟. مقابلة «التريومف» قبل عام كانت صدقيّة وقاسية، سلّمت  
بفتور وسلّم بشوق ريفى، هزنى تدفقه بيد أنه أبى أن يمد الحبال لينتشل  
الغريق، استمع بذهول إلى ما حدث.. ثم قال :

- سمعنا إشاعات كثيرة عما حدث فى الحرب، ولكن الحقيقة أشع  
من كل شئ.

قلت : غلطة لا تستعصى على الغفران لو شت!

اهتز وجهه الجامد، شعره قصير ووجهه ضخم كما يتبغى لمن كان أبوه  
من منتفعى الإصلاح الزراعى.. قال

- إذا كانت تلك غلطة، فماذا تكون الجريمة..

سكت، قلت بعد لحظة :

- أنا ضابط صغير، مسئوليتى محدودة، لو لم أقصر لما تغير  
الأمر..

ضحك قائلاً :

- كلام جميل.. ولكن واجبك كان أن تموت حيث أنت..

- ليس الموت سهلاً كما تتصور..

صمت طويلاً.. قال :

- ربّما كان هذا صحيحاً، بيد أن الشجاعة ليست عسيرة إلى هذا  
الحدّ..

قلت بيأس :

- مجرد كلام..

ضحك طويلاً..

- المسألة واضحة.. أقدامك تحركت تجاه «نورج» ومن الطبيعى  
أن تتنقن العدو لكى تصل إلى الضفة الغربية قبل وصولها.

ترك الكلمة على المائدة، وورقة نقود ثمن ما شرب، وغابت قامت  
العلاقة فى الظلام..

قالت :

- هووه.. أين كنت؟.

- أين «مدوح» الآن؟

- لا أدري. تعلم أنه لم يُكْمَلِ دراسته. دخل السجن في العام التالي لترتكب الكلية، ولم يغادره إلا بعد سنوات؟

صمتت مفكرة.. وقالت بعد لحظة :

- قابلت أخته في العام الماضي، وأظن أنها قالت أنه في «الأردن».

- الأردن؟!!

- آه.. مع المقاومة..

.... لم أرد.. طال الصمت، كان وجهه الريفي يطل على المائدة.

قالت :

- ما رأيك في أن نتمشى على البحر!

٢

أصداء الشعر القديم

على نفس هذه الأرض مشينا، فمن يستخير الزمن ما يحفظ من مشاهد. كان ذلك قبل عام.. وشمس سبتمبر حيبه، وربما في اليوم الثاني أو الثالث، جذبتُ كفيها، ضغطت عليه، قاوم لحظة ثم استقر. تحدثنا كثيرا عن الماضي، لقاءات حديقة الأورمان والقناطر الخيرية، زياراتها الأولى لشتتنا، فكاهات «مدوح» التي لا تنتهي. دعواته للمسرح والسينما. ومرة ضبط مشروع قبيلة، فانسحب خجلاً، فما كان أرقه يومذاك. وربما في اليوم السابع، رفعت رأسها إلى ظلام الشاطئ وعُدت - كما الماضي تماما - أغيب في شفتيها. وفقط عندما أحاطتني بذراعيها وضغطتني إليها، تفجر الماضي كما لو كان أجمل ما سأعيش. لَقْنَا الصمت ونحن نتقدم. تركنا «الليدر» و«المينا» خلفنا، صاح صوت من الظلام.

- مَنْ هناك؟

ارتعد السكون، تحسست مكمين مسدسى فوجدته فارغاً.. قلت :

-٢٦٤-

- من أنت؟

- تقدما..

صوته عجوز، قامته ضئيلة مَحْنِيَّة، قلت :

- كنا نتمشى.. ماذا تفعل هنا؟

تقدما ساكناً، قال :

- حظكما حسن، كدت أنام..

تبعناه صامتين، إلتصقت بي خائفة، أحطتُ خصرها بذراعي، تدفقت إلى من مس جسدها رغبة جارفة في الذويان، همّت أن تتكلم، لثمت شفيتها.. في عتمة القمر ظهر شبح خيمة كبيرة. أشعل الرجل عود ثقاب، ودخل..

- لحظة حتى أضئ الفانوس..

عندما دخلنا أخيراً، وجدنا أنفسنا داخل الخيمة، وسائد متعددة الألوان، دعانا للجلوس. قال :

- ظننت أن أحداً لن يأتي، تأخر الوقت.

تساءلت بعجب ..

- أيأتي أحد هنا.. يا عم؟..

- «عمار».. كثيرون... ظننتكما من زياتني..

قالت «عايدة» :

- ألا تعرف زياتنك..

ضحك، بدا في الضوء عجوزاً جداً، قال :

- آه، النظر على القُد، والسمع واهن، والذهن يأتون كثير..

- وماذا يفعلون

مدّ يده.. كشف عن ثلاجة في ركن المكان.. قال :

- لدينا كل شيء.. بيرة ومرطبات.. و..و..

تعلقت عيني بجوزة في ركن المكان قلت مشيراً إليها

- و... و....

ضحك وقال :

- نعم.. ماذا تريدان.

تهامست معها، تمتعت قليلاً.. أشعل الرجل الفحم في إناء فخارى،  
تصاعد أزيزه عالياً. خلعت حذاءها، ألقته بعيداً.. أعطتني ظهرها، قالت :

- الفستان يكاد يخنقنى.. افتح السوستة من فضلك..

ارتجفت يدي وأنا أسحب السوستة إلى أسفل نصف فتحه، انشق  
الفستان عن جسدها الشهى انحنيت.. قبلته كالزمن الماضى.. قالت :

- لا.. الرجل بالبواب..

ابتسمت :

- ولكنه عجوز... وشبه أعمى وأصم.

دخل الرجل، انهك في عمله. كان هدير البحر يأتى من الخارج،  
تسائلت يومها : أين تعلمت كل هذا؟ بيد أن السؤال طار فجأة، ليس  
الجواب عسيراً. أبعجزك حقاً أن تتصور كيف مضت حياة امرأة مثلها،  
بالطبع لا؟.. ولكن مواجهة ذلك تبدو مؤلمة. بيد أن شيئاً لم يثبت على  
حاله؟. أين «حسنى» الزمن القديم؟. وأين «عايدة»؟. وأين «ممدوح»؟.. آه  
كالضرس الذى لا يكف عن الإيلام.. فمتى تخلعه ونستريح؟. كيف إنحدرنا  
إلى هذا المصير المفجع. ويوما قال : نحن لا نسعى إلى وجاهة، بل إلى  
رسالة، هززت رأس الفهم. قال : ودون ذلك حياة من النفى والتشريد  
والمعاناة، عذت أهرز رأس الفهم، قال بشك: لا تفعل شيئاً لأنفسنا، وقد لا  
نشاهد ثمرة تضحيتنا، بيد أن المستقبل لما نؤمن به ولو كنا عظاماً مفتتة.  
فما كان أقواء وأبسطة. فى مقابلة «التريومف» تلك قال : بدأت بالخيانة  
وانتهيت بها ولا جديد فى الأمر. مع أنفاس المخدر بهتت الأفكار، وكفَّ  
ضرس العقل عن نزع الألام فبدأ وجهه الغائب كاريكاتورى الملامح. والرجل

كالبحر صامت. وطريقتها فى سحب الأنفاس أكدت أنها لم تكن المرة  
الأولى، ولكن لا تكدر صفو الليلة بآلام لا مبرر لها، نحن بقايا ذلك الزمن  
القديم، وليس هو. من يحيى الموتى ويبعث العظام وهى رميم؟. غنت،  
«مررت على بيت الحبايب». صحت من بغنى «أيها الراقدون تحت التراب».   
قطعت الغناء.

قالت : الجوخانق.

قال الرجل

- أعد لكما جلسة بالخارج!.

سحب بطانية وعدداً من الوسائد. انهك فى فرشها على مبعدة من  
الخيمة، قالت بصوت مخدر : السوتيان خنقنى. فككت المشبك، تركته مدلى  
على ظهرها العارى، ملابسها التحتية خضراء. لونتنا المفضل، وكانت حقلاً  
بكراً يحلم بإنبات الزهور ويمتلئ بالخصب، فكيف يمضى هذا الجمال كله بلا  
عقب. ملأ الصفاء عينيها، سبحت فيها مطرفاً بالبحار الصافية. لم تعد  
الملاحة عسيرة كما كانت. لحظة بعثت من مرقدى على شاطئ البحر على  
مشهدا. وعدت ذلك الملاح الماهر، يستجيب النهر لسباحتى، تهدأ أمواجه.  
يستسلم فى عبادة صامته لصلواتى المتهدجة. فى الخلاء نامت على وسادة.  
رفعت رأسها تتأمل السماء. قلت ما أسعد النجوم بسرحة هذى العيون .  
قالت :

- أحب البحر فى سبتمبر. فى الفجر تمتلئ السماء بأسراب السمان  
المهاجر.. ما أجملها!

قال الرجل :

- يأتينا بالرزق.. (ثم بعد لحظة صمت) لا تؤاخذانى.. صحتى لا  
تحمّل السهر.. قبل أن تذهب، إدخلا الأشياء إلى الخيمة.

أعطانا ظهرة ومضى، قلت :

- والنقود؟



- والنقود؟

- ضعها بجواري.

- ألا تخشى أن نسرقك

ضحك وقال :

- أنت وذمتك.. (ثم بعد لحظة).. ولكن لا تتجها إلى الغرب...

منطقة الألغام على بعد مائة متر،

.... غاب، إنظفاً الفانوس، عاد القمر يشع ضوءه الضنين فوقنا.

قلت :

- رجل غريب...

توقفت عن الغناء قالت :

- هل تزوجت؟

- لا..

- ألم تحاول؟

تناولت منها السبجارة، مدت يدي الأخرى، أوسدت رأسها

ذراعي...

- مرة.. سافرت إلى بعثة بعد تخرجي، كدت أتزوج واحدة من بنات

الفولجا ولكن الله سلم.

ارتفعت موجة عالية وصلنا رذاذها، كان دافئا. قلت بعد لحظة...

- كانت رغم جمالها عقائدية متحمسة، قالت إنني برجوازي صغير

تافه الشأن فقلت لها رُوحى لأملك.

إرتفعت ضحكاتها كموجة طفلة، وقلت أنها مُخدّرة تماما.. غنت

قليلاً

ثم قالت :

- كان هذا رأي «ممدوح» .. ولكنك كتبت مرة كلاما اشتراكيا

ساخنا!

بعد صمت :

- آه.. كانت الخادمة تمسح النافذة به، فاستنقذته منها..

باخ حماسي، قلت ..

- مجرد أكل عيش، كنت أطمح لمستقبل سياسي مرموق..

.... لفنا الصمت... عادت تغني... ذهبت إلى الخيمة، كان الرجل

نانما كالطفل، وصوت تنفسه الهادئ يُدفيء المكان، امتصتني ملامحه،

تبلدت أمامه، كاد عود الثقب المضي يحرق أصابعي، وهو نائم كان يبدو

شاباً عنيا رقت تجاعيد وجهه تماماً، وعلت ملامحه ابتسامة صغيرة.. عدت

بزجاجة البيرة.. في ضوء القمر كانت راقدة.. عارية تماماً، شعرها الأسود

الطويل يغطي صدرها، وفي عتمة الضوء يلمع كيانها كله، صوتها الخافت

كان يغني. هدير البحر من بعيد، ومهبط الفجر، وأسراب السمان تستبِقظ!

.....

.. ونحن نعود في الفجر، نستنشق هواء الندى. تحسس دفء ماء

البحر بأقدامنا. ترى النور يبرز من قلب زرقة البحر، وأسراب السمان المهاجر

تطير آمنة على ارتفاع قليل حتى لتطولها الذراع الممدودة، كنت أشعر أن

شينا ميتا قد عاد إلى الحياة فجأة: لعلها مسرة يوم قديم استعصى على

الذاكرة، كالنشوة البكر، وكلحظة قلت لممدوح صادقا: خذوني معكم. كان

القمر شاهدنا الوحيد، وكان جسدها سخيا. بيد أنني حاولت أن أكون أكثر

سخاء. وبرغم غيبوبة المخدر - وربما بسببه - حرصت أن أصل بها إلى قمة

النشوة، في ضوء القمر كان وجهها يلتف بغلالات الشعر، مستجيبة للحياة

وفوراً بها. كالنهر والبحر والريح العاصف، وشلالات المياه، يتشكل في لحظة

طويلة، بين ضحكة عامرة بالفرحة، وتهديج حزين مفعج. بين صرخة انتصار

عظيم، وكسرة هزيمة مرّة. بين الرحمة القاسية، والعذاب الحنون. حتى ما

قلناه من كلام مدغم لا يبين يدغمه إحساس طاغ بأنه يستحيل أن يصف

شيئا لا يوصف. حتى عندما أصبح صريحا واضحا. إقتلع الحياء والحجل

والتحفظ، وأسوار الآخرين، حتى كل هذا كان مجرد أصداء للشعر القديم،  
وبعض أطباف الحلم.

ونحن ملتصقان تماما، تعبت أقدامنا بالمياه، غشى ولا غشى قلت :  
- هل أنت نادمة؟

شدت يدها التي تحيط بخصرى، قبلت ما طالته من قامتى، كنتى .

قالت :

- أبدا.. وأنت؟

طوقتها، رفعت في مهبط البحر وجهها، غبنا في ديمومة من القبل،  
قالت ورأسها على كنتى.

- فكرت مرة بعد افتراقنا أن أذهب إليك.. أعطيك نفسى.. ليكون  
لى منك ولد.

قلت أن رغبتها فى الأمومة لم تنفث أبدا.. بعد لحظة قالت :

- كنت إبنى الوحيد.. ولكنه عاق..

قبَلْتُهَا. أكملت

- دمرت نفسك، ودمرت أمك أيضا..

ضحكنا.. كان السمان المهاجر يملأ سماء الفجر... ونحن نحضى فى

الطريق.

زائر الغسق

٣

كان هذا منذ ثلاثة شهور فقط، فكيف هان على القلب أن يهجرها،  
وكيف تصم الأذن عن صوتها المنادى باللهفة، وقد أنهت كل شئ. ستقول :  
دمر حياتى فى البداية ويدمرها فى النهاية. شعرة بيضاء تتسلل إلى  
سوالفى. وأسراب السمان المهاجر تملأ سماء البحر، بينما هجره الناس أو

كادوا. فى شقة شارع النيل تبدت كما كانت فى الزمن الماضى، أعادت  
ترتيب الشقة، جددت الديكورات وغيّرت أماكن الحجرات، أزال الغبار عن  
المكتبة ووسّعها. فى غروب كل يوم تدخل بالاسطوانات والكتب. تزايدت  
ملايسها حتى احتلت جانبا من الدولاب. تطهو الطعام وتتناوله معى فى  
أغلب الأيام، لم تناقش شيئا، فكل شئ كان يبدو مفهوما.. يوما قالت :  
- سأطلب الطلاق.

كانت جالسة على مقعد فى الشرفة وأصابعها تتحرك بأبر التريكو  
فى سرعة ألقيت الجريدة. سحبت مقعدا، تقدمت نحوها، قالت :

- إليس جاكته البيجاما..

- الجو حار...

- لا تخرج إلى الشرفة وأنت عرقان..

- لبست جاكته البيجاما بإذعان

تساءلت بتردد :

- وهل بوافق؟

بعد لحظة صمت قالت :

- سأصغعه بالحقيقة كلها إذا إعترض.

ترددت لحظة ثم قلت :

- ولكنه يستطيع الإضرار بك..

باستهانة قالت : لا يهم..

- وربما يى.

توقفت يدها المتحركة بأبر التريكو قالت :

- يجوز، ولكن هذا لا يهم..

طافت بالقلب مخاوف. حسبت معاشى بدقة، قلت :

- ألا يمكن أن نستعين به أولا.. قبل أن

أدارت ظهرها للنيل، واجهني صفاؤها كله، كان قميص النوم الخفيف يضم جسدها الرقيق وخطوطه تتنهد ببطء داخله، كورت شعرها إلى الخلف، نظارة طبية أنيقة تكسر عمق نظرتها الشاكة المستهمة. قلت بإغراء :  
- بوسعه، بتوصية منك، أن يسهل لي العمل في التصدير والاستيراد.

قالت باشمزاز لم تغلح في إخفائه:

- لا... لا داعي لهذا...

قلت إن الموضوع كان مفاجئا، ولعلني لم أحسن عرضه، ولو تم لأطمأنتت على الماضي والمستقبل، وبوسع المال الوفير دائما أن يخفي العيوب، حتى لو كانت تلك الكلمات المختفية في مكتب كاتم الأسرار. عادت إلى عملها في صمت. قلت : ما أسعد أن يظل كل شيء على حاله الآن، تأتي وتذهب. يتحمل زوجها مسؤولياتها كاملة. وأضمن أنها لي بأكملها. لا يشاركني فيها أحد، حتى ذو الكرش المهول.

مع لحظات الغسق الأولى، وقفت تقيس البلوفر، شبكت مقدمته بالديبايس. انحنيت تقيس الطول. هممت بتطويقها. زاغت مني. دق الجرس وكانت بجوار الباب. هربت لتفتحه. فوجئت بضابط صديق، إرتبك كلاهما. قال:

- أليست هذه شقة «الرائد حسنى»..

- نعم.. تفضل...

دخل بتردد، استقبلته بترحاب. قدمته لها. قبل أن أكمل التقديم قال بريفة مندفة:

- تزوجت أيها الغادر دون أن تدعو أحدا..

قالت بلباقة :

- تزوجنا في «مرسى مطروح».. ولعلك أيضا لم تكن هنا...

خلع «الكاب» وضعه على المنضدة، قال :

- ولكن الإنسان في حاجة إلى فرح، موسيقانا مدفعية ثقيلة.  
إنسحبت بخفة. عادت وقد ارتدت رويأ فوق قميص النوم وصفت شعرها تدفع أمامها عربة شاي صغيرة. في الشرفة جلسنا. تحدثنا طويلا. إنحنى علي. همس :

- زوجتك لطيفة ومثقفة.. ولكنك غادر لأنك لم تعرفنا بها..

قلت :

- إنها قريبتى، وقد تزوجنا منذ فترة قليلة..

تحدث طويلا عن الجبهة، «الديفرسوار» «والكلبيو ١٩»، «المعدية»، «الجزيرة الخضراء». روى طويلا عن الشاويش «سعدان» فضحكت «عايدة» سألته تفاصيل لكنه إلتزم جانب الحذر. لم أتكلم. كان حديثه ينشر جسدي، هممت أن أسأله عن بعض الأصدقاء من دفعتي، ولكنني خجلت. روى أكثر من فكاها. قلت إنه شاب ريفي. بدليل تكسر أواخر كلماته فمن أين أتى بهذه الثقة كلها.

شرب كأسا واحدة، وقال

- كفاية.. الله يرحم أيام زمان، سأسافر في الفجر (أشار إلى رأسه وأكمل) ولا بد أن يبقى هذا صاحباً، وإلا أطارته دانات عمك «ديان» العوراء.

إرتخت يدي بالكأس. ضحكت عايدة بمرح. إمتزجت ضحكتها الطفلة، بقمهقاته الريفية الخشنة. شاركتها الضحك منوة، قال بعد لحظة :

- ألا تفكر في العودة إلى الجيش..

قلت بدفعة :

- ولكن هذا غير ممكن

- أظن أنه يمكن ببعض المحاولات الجادة..

- قد يرفضون!

- أنت لم تحاول ولا مرة..

ثم بعد لحظة :

- من الطبيعى أن يزوروا عنك مرةً ومرة.. ولكن الإلحاح مفيد.. وإذا تحقق هذا فاستعادة الثقة المفقودة تتطلب مجهودا يجب أن تبذله.  
تابعت «عابدة» المناقشة باهتمام جدى. أسهمت فيها سائلة عن التفاصيل.

هممت أن أبعدها عن المناقشة. ولكنه إهتم بأسئلتها وأجاب بإفازة.  
قلت : والاكاذيب التى أخرجونى بسببها.

قال بابتسامة مُخرجة ...

- نحتاج إلى روح جديدة، لا بد من مواجهة الخطأ، الأمر لا يتطلب إلا بعض الشجاعة وهى ليست عسيرة..

- أفكر فى عمل تجارى..

- نحن عسكريون، وظيفتنا أن نقاتل، وبالذات فى هذه الظروف، يفكر التجار فى أن يحاربوا، فهل نفكر نحن فى أن نتاجر..

قالت بعد انصرافه

- فكرة طيبة.. حاول أن تنفذها..

لم أرد... قالت :

- بوسعنا أن نبني كل شئ من جديد، ربما كان رسولا جاء يجس النبض؟.

ثم وهى تواجه ظلام الشارع :

- كرهت هذه الحياة، وأطمع فى حياة أخرى، والطريق أمامنا ملئ بالإمكانيات.

ثم بعد لحظة صمت

- لا بد من هذا.. «أشرف» فى الطريق.. وربما «سهير»..

- هه.

ندت الصرخة قبل أن أمنعها، فأكملتُ بدفعة :

- كيف حدث هذا، ظننتك احتطت للأمر .

حَبَّت فرحتها، تجمعت نُذُر التوتر فى الجو، وفى الخارج كان الظلام مطبقا إلا من ضوء أزرق تشعه مصابيح الطريق. قالت :

- فعلت ذلك فى الشهر الأول فقط، ثم أوقفت أى احتياطات.

- ولكن...؟

أحاطت وجهى بكفيها. كنت مطرقا حذر عينيها، وضعتُ نظارتها على المنضدة. رفعتُ رأسى، واجهتني عيناها، غبت فيهما لحظة، هناك فى أقصى العمق كانت عكاره هم قديم تتحرك.

قالت :

- هذا حُلْم عمره عشرة أعوام.. وأنا سعيدة لأنه تحقق..

ضمت رأسى إلى صدرها. أرحت رأسى المشغل فى ليونة ثديها..

قالت :

- أنت طفل كبير.. ومع ذلك سيكون لك أسرة وأولاد وبنات، وعلى أن أتولى مسئوليتكم جميعا.. فليعنى الله..

.....

أيمكن أن يحدث هذا؟.. من يجيب؟ : الرمل والصحراء ومياه البحر، ومتى ينطق هذا الصمت المحيط بك. وكل شئ يبدو قابلا للحل فلماذا لا تقدم؟. الطلاق : وهى أدرى بظروفه. العودة للجيش : ممكنة مع بعض التحمل. تغسل العار القديم وتحرق إلى الأبد تلك الورقة المودعة بمكتب كاتب الأسرار..

بعدها بأيام قال صوتها فى التليفون :

- قلت لزوجي كل شيء، ثار بقدر ما تسمح به الجلطة، طلب أن أتخلص من الجنين مقابل أن يعتبر الموضوع منتهيا؟

- وماذا قلت؟

- رفضت طبعاً، سيدعن أخيراً..

- ولكن...

- قال أن الأطباء الأصدقاء كثيرون فكدت أبصق في وجهه..

كانت فرحة. لم تنتظر أي إجابة. قالت كأنما نذكرت أمراً..

- على فكرة.. عاد «مدوح» من السفر في أجازة قصيرة..

- عال ...

- سأزورهم اليوم، ألدبك مانع أن ندعوه إلى العشاء غداً؟!

ترددت قليلاً.. قلت :

- ليكن بعد ثلاثة أيام..

«... ذهباً في الموعد لا ريب، فلم يجداً أحداً.. فماذا قالت وماذا

قال؟» . وكيف فسرت رفضك الرد على مكالماتها، وإلى أين ينتهي بنا

الهروب؟..

.....

قال موظف الاستعلامات :

- إتصلت المدام في الثامنة والنصف... وأبلغناها الرسالة !

هززت رأسي. تقدمت في اتجاه البار، جلست وحيداً. حاول

«إبّارمان» أن يجاذبني الحديث، كان الصمت داخلي يتكلم.. مضى شطر

من الليل.. انتقلت إلى الشرفة مرة ثانية.. إنحنى خادم نوبى بصينية فضية

أمامي، قال يوقظني من شرودي:

- برقية لك..

فتحتها بكسل، وضعت بعض النقود على الصينية - كانت برقية

عزاء...

- «أشرف» و «سهير» ماتا، لا ضرورة لحضورك. قام زوجي

بالواجب «عابدة». ضحكت مروراً وبلا صوت. كان البحر يوج على البعد

إنتهى الأمر : لا حزن ولا فرح ولا شيء. من يشتري اليأس ولو كان باخساً

إذن لأصبحنا من الأغنياء. مات «أشرف» و ماتت «سهير». أجهضت

نفسها أو أجهضها الوحش. هكذا يمضي جُبنك بلا عَقَب، والضعف مرض

قد يكون وراثياً. ترى ماذا تقول الوجه إذا ما التقت مرة أخرى، والبحر

هامد لا يقول شيئاً، لا يهمس النسيم بكلمة... وتأمل الخمر الزاعقة داخلك

بالبلادة.. إلى أين ومن أين؟

- مَنْ هناك؟..

- أهلاً.. كيف أنت «يا عم عمار»..

بدا شبحة مختفياً في العتمة، وكان القمر يدرا سبتمبرياً، قادني إلى

الخيمة. أشرت إليه. بدأ العمل في صمت. وهو يناولني الغابة طافت بالنفس

ذكرى أمومتها الفياضة..

- ألا تذكرني «يا عم عمار»؟

- كثيرون يأتون ويذهبون..

- ولكنني قضيت ليلة هنا في الحريف الماضي.. وكانت معي

زوجتي..

- كثيرون يأتون ويذهبون..

- وأنت ... ألا تذهب؟

قال وهو يُسَلِّك الغابة :

- لا.. أنا هنا من زمن طويل..

- متى؟

- سنوات لا تعبها الذاكرة.. جاء كثيرون ومضوا، شاهدت «روميل»

وزرته في مخبأه ورأيت «رتشى» و «مونتجمري» وكان سميناً كالعجل.

ضحك ضحكة قصيرة.



امتدت اللحظة طويلة.. طويلة..  
قمت. مشيت بخطوات سريعة. قبل أن أصل باب الحقل قلت : ليست  
الشجاعة عسيرة إلى هذا الحد..  
سمعت صوته ينادى ولم أعرف إلى أى اتجاه تشير يده.. وهل كان  
يطلب منى أعود أو أن أتقدم. قلت :  
- ليست الشجاعة عسيرة إلى هذا الحد..  
دلقت عبر المسلك المشائك بخطى ثابتة. قرأت اللافتة «حقل ألغام».  
خطر الموت».  
كان الفجر يولد، وأسراب السمان المهاجر تبدأ رحلتها إلى الجنوب.

- لماذا تعيش بعيدا عن العمران؟  
أشار إلى الغرب قائلا :  
- كنت أحرس حقول الألغام قبل تسويرها ، ثم طابت لى الإقامة.  
كان جلبابه رقعا ملونة، تأملته فى عجب، قلت :  
- وكيف تعيش؟  
أشار إلى موجودات الخيمة إشارة عامة ثم قال :  
- وفى الخريف نصيد السمان المهاجر. يعود الشبك محملا به،  
ونشويه لمن يريد!  
- فقط..  
- وتترك بى أحيانا نساء عقيمات فيرزقهن الله بنينا يسمينهم  
باسمى لذلك ينتشر فى كل الأنحاء.  
قلت..  
- هل تداوى العقم؟  
- بركتى لا تخيب.  
خرجت إلى باب الخيمة.. كان القمر ساطعا يكشف مساحة عريضة  
من الصحراء. وعلى البعد كان حقل الألغام مسورا. وعلى باه لافقة سوداء  
صغيرة غابت ورائها نظرتى الشاردة وقتا طويلا. أسراب السمان تقف  
مستريحة من عناء الهجرة على الشاطئ.. والبحر هادئ وساكن.. قلت :  
- ألم تشاهد يوما جنديا هاربا من الحرب يا «عم عمار».  
- أووه.. كثيرون. ومرة قتل الكابتن سبعة جنود حاولوا الهرب.  
- قتلهم؟  
- آه قال إنهم سيخلخلون الصفوف.  
لفنا الصمت لحظة. فرش لى بطانية فى العراء. قال :  
- سأذهب لأنام.. تعرف ما ستفعل..

## كاتب للمؤلف

- ١- الثورة العربية  
الطبعة الأولى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٢. (نقد)  
الطبعة الثانية - دار المستقبل العربي القاهرة ١٩٨٢. (نقد)
- ٢ - حكايات من مصر  
الطبعة الأولى : دار الوطن العربي بيروت ١٩٧٤. (نقد)
- ٣- البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة  
الطبعة الأولى: دار بن خلدون بيروت ١٩٧٩. (نقد)  
الطبعة الثانية: مطبوعات الثقافة الوطنية القاهرة . ١٩٨٠. (نقد)
- ٤ - مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا [رواية].  
الطبعة الأولى : دار بن رشد بيروت . ١٩٨٠. (نقد)
- ٥ - فلسطين [الأرض والمقاومة] [بالاشتراك مع خيرية قاسمية وحسنا مكداشي].  
الطبعة الأولى : دار الفنى العربي. بيروت . ١٩٨٠. (نقد)  
الطبعة الثانية : دار الفنى العربي. القاهرة ١٩٨١. (نقد)

## الفهرس

- ١ - الحب والصمت ..... [١٩٦٤] ..... ١١
- ٢ - جنرالات .. بلا جنود ..... [١٩٦٥] ..... ٢١
- ٣ - الأيتام على مائدة اللثام ..... [١٩٦٩] ..... ٣٥
- ٤ - أضعاف أحلام ..... [١٩٦٩] ..... ٤٩
- ٥ - بيان مشترك ضد الزمن ..... [١٩٦٩] ..... ٦٩
- ٦ - ثلاث مشائخ متبينة الصنع ..... [١٩٧٠] ..... ٩٩
- ٧ - الغربية فى شارع كتيف الزحام ..... [١٩٧٠] ..... ١٢١
- ٨ - ضحكات من زمن الموت غبلة ..... [١٩٧٠] ..... ١٥٥
- ٩ - باقة ورد على الضريح ..... [١٩٦٩] ..... ١٨٩
- ١٠ - نصف كوب من دموع التماسيح ..... [١٩٧١] ..... ٢٠٩
- ١١ - مصرع طائر السمان المهاجر ..... [١٩٧١] ..... ٢٥٣

## تحت الطبع للمؤلف

- ١ - أفهون وبنادق: (ظاهرة العنف الجنائى والسياسى فى مصر - نشرت مسلسلة بمجلة ٢٣ يوليو - لندن ١٩٧٩).
- ٢ - الهرنميسة والأفندى: (قصة غرام الأميرة فتحية ورياض أفندى غالى).
- ٣ - مأساة شكرى مصطفى الحقيقية.
- ٤ - أسطورة فرج الله الحلوى: (وثائق التحقيق فى قضية تعذيبه وقتله مع دراسة عن حملة عبد الناصر ضد الشيوعية).
- ٥ - اغتيال مصطفى خميس: (الصدام الأول بين البروليتاريا والعسكرىتاريا).
- ٦ - الصحافة المصرية فى معركة الديمقراطية: (١٩٥٠ - ١٩٥٤).
- ٧ - صك المؤامرة: (قصة وعد بلفور - بالاشتراك مع جميل عطية إبراهيم).
- ٨ - مذكرات عرابى باشا وأوراقه [تحقيق وتوثيق - ثلاث مجلدات].
- ٩ - عهد الرحمن الجبرئى... الانتعاش المصرى فى عصر القومية.

## ٦- محاكمة فزاد سراج الدين (دراسة ووثائق)

الطبعة الأولى: مكتبة مدهولى. القاهرة ١٩٨٣.

الطبعة الثانية: دراسة المؤلف التى قدم بها لنصوص المحاكمة. وقد ص  
مستقلة بعنوان [البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة] دار التنوير. ب  
١٩٨٢.

## ٧- هوامش المترجم: (المجموعة الثانية من وحكايات من مصر).

الطبعة الأولى: دار القاهرة - القاهرة ١٩٨٣. (نقد)

## ٨- رجال مرج دابق [قصة الفتح العثمانى لمصر والشام].

الطبعة الأولى: دار الفنى العربى. بيروت ١٩٨٣. (نقد)

## ٩ - مثقفون وعسكر: [مراجعات وشهادات ومحارب عن حالة المثقفين فى عهد عبدالناصر والسادات.

الطبعة الأولى: مكتبة مدهولى. القاهرة ١٩٨٦.

## ١٠ - الكارثة التى تهددنا: [مراجعات تاريخية ضد أهلية البرجوازية المصرى لقادة الحاضر وصنع المستقبل].

الطبعة الأولى: مكتبة مدهولى. القاهرة ١٩٨٧.

الطبعة الثانية: دار عيون النار البيضاء. ١٩٨٨.

## ١١ - تيار جريح [خواطر وذكريات].

الطبعة الأولى: مكتبة مدهولى القاهرة ١٩٨٨.

## ١٢ - حكايات من دفتر الوطن.

الطبعة الأولى: كتاب الأهالى ١٩٩١.

## تعريف بالمؤلف:

- ولد في أكتوبر ١٩٢٩ بقرية «بشلا» إحدى قرى محافظة الدقهلية بمصر.
- حصل على بكالوريوس في الخدمة الاجتماعية عام ١٩٦١، وعمل لمدة خمس سنوات، رئيساً لعدد من الوحدات الاجتماعية في قرى محافظة القليوبية، إلى أن فصل من عمله عام ١٩٦٦، بسبب آرائه السياسية.
- اعتقل لأول مرة في أكتوبر ١٩٦٦، بسبب سلسلة مقالات كتبها في مجلة «الحرية» اللبنانية، وأعيد اعتقاله في مارس ١٩٦٨، وقبض عليه فيما بعد على ذمة قضايا لم تقدم للمحاكمة في سنوات ١٩٧٥، ١٩٨١، وكان بين الذين قبض عليهم في حملة سبتمبر ١٩٨١.
- بدأ ينشر مقالاته في الصحف عام ١٩٥٦، ومنذ ١٩٦٢ بدأ ينشر كتاباته في الصحف المصرية والعربية بانتظام. وفي عام ١٩٧١ عمل بجريدة «الجمهورية» إلى أن فصل منها عام ١٩٧٧، أثناء هروبه من مطاردة الشرطة بسبب اتهامه بالمشاركة في التحريض على انتفاضة الطعام في ١٨ و ١٩ يناير، ونقل مفصولاً منها لمدة عشر سنوات.
- شارك في تأسيس الإصدار الثاني لجريدة «الأهالي» عام ١٩٨٢، ثم أصبح مديراً لتحريرها عام ١٩٨٦، إلى أن استقال في مايو ١٩٨٨. وشارك في تأسيس ورأس تحرير «الثقافة الوطنية» - ١٩٨٠ - و«كتاب الأهالي» (١٩٨٢) و«الصحفيون» و«اليسار» (١٩٩٠).
- صدر له ١٢ كتاباً في التاريخ والفكر السياسي والاجتماعي، والأدب. وله تحت الطبع ١٠ كتب أخرى.